مختصر

نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام

د. علي محمد محمد الصلّابي

مكتبة الأسرة العربية

1444هـ/ 2022م

مقدمة:

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 –71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد؛

فبعد أن أتم الله فضله عليّ بإتمام الموسوعة التي كنت أحلم وأعمل على إنجازها، وهي موسوعة " أولي العزم من الرسل"؛ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، إضافة لآدم عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد طبعت بحمد الله عدة طبعات، وترجمت إلى عدة لغات، وانتشرت انتشاراً كبيراً على مستوى العالم الإسلامي، وتعدّ هذه الموسوعة ذات أهمية كبيرة، فإنها تعرض للناس سير قادة الحضارة الإنسانية بداية من آدم عليه السلام حتى خاتمهم محمد ﷺ وإن البشرية في أشد الحاجة لمعرفة سير الأنبياء والمرسلين من خلال كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

خلفه، وشرح تراجمهم وأخلاقهم وأصول دعوتهم من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الصحيحة، وأقوال العلماء الراسخين بأسلوب عصري يلائم المرحلة التي تمرُّ بها الإنسانية الباحثة عن إجابات شافية لتساؤلها عن الله والكون والحياة، والجنة والنار، والقضاء والقدر، والرسالات والنبوات والحضارات الإنسانية القديمة، ومتى نشأت؟ وما مصيرها؟ وسنن الله في خلقه، وأصول الأخلاق، والقيم الروحية...إلخ، وإدارة الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر والكفر والإيمان...

لأول مرة في تاريخ المكتبة الإنسانية تُقَدم دراسة عن الحضارة الإنسانية بهذا المنهج

موسوعة "نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام" مشروع فكري ثقافي عقائدي ديني تاريخي، استمد معانيه وأفكاره وتفصيلاته، بعد توفيق الله سبحانه وتعالى، من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ)، وقوله سبحانه وتعالى: (وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا)

إنّ أولي العزم هم الأنبياء العظماء والرُسل الكرام والأسوة الحسنة والنماذج الإنسانية المثالية والمصطفاة، الذين ذُكروا في كتاب الله العزيز، كما في سورة الشورى والأحزاب، وجاء ذكرهم في سورة آل عمران في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبۡرَاهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَانَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (آل عمران ٣٣-٣٤)

موسوعة نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام، تتضمن أكثر من خمسة آلاف وخمسمئة صفحة، وتتألف من 6 مجلدات متوفرة في الموقع الرسمي للدكتور علي محمد الصلّابي:

- قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)، رابط الكتاب:

http://alsallabi.com/uploads/file/doc/Adam.pdf

- نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم: ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، رابط الكتاب:

http://alsallabi.com/uploads/file/doc/Noh.pdf

- إبراهيم خليل الله (عليه السلام): داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة، رابط:

http://alsallabi.com/uploads/books/16228097650.pdf

- موسى كليم الله (عليه السلام)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، رابط:
https://drive.google.com/file/d/1P6V8l76sM_k-0HkjGwA79O5iAXkyAIb6/view?usp=sharing

- عيسى بن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة، رابط الكتاب:

http://alsallabi.com/uploads/file/doc/AlsallabiBook.pdf

- محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين (السيرة النبوية)، رابط الكتاب في جزأين:

http://alsallabi.com/uploads/file/doc/01_siranabawya.pdf

http://alsallabi.com/uploads/file/doc/02_siranabawya.pdf

فالموسوعة في مجلدها الأول، تتحدث عن المؤسس الأول للحضارة الإنسانية بدءاً بمفهوم التوحيد ودلائل الوحدانية والمخلوقات الأولى وسيرة أبي البشرية آدم (عليه السلام)، وذلك وفق الرؤية القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وتفاسير العلماء

الغزيرة، فالمؤسس الأول هو آدم (عليه السلام) منذ خلقه إلى نزوله على الأرض، هو وأُمُّنا حواء وتأسيس الحضارة الإنسانية الأولى وانطلاقها.

وفي المجلد الثاني، انتقلت للحديث عن مؤسس الحضارة الإنسانية الثانية، وهو سيدنا نوح (عليه السلام) وما حدث من الطوفان العظيم، وكيف نجت الإنسانية في سفينته (عليه السلام) وأسباب زوال الحضارة الإنسانية الأولى، والأُسس التي بنيت عليها الحضارة الإنسانية الثانية واتساعها وقيامها على الحق والعدل والتوحيد.

وانتقلت في المجلد الثالث إلى محطة كبرى في تاريخ الإنسانية، وهي فترة تأسيس الممالك والدول وبناء الجيوش والحكومات ومؤسسات الملك في عصر الكلدانيين والكنعانيين الذي هو عصر إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: "إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا" (البقرة: 124)، وهي مدة تأسيسية مهمة في مسيرة الحضارة الإنسانية، وما تفرع من دعوة خليل الله ومن ذريته من أنبياء ومرسلين، سواءً كان في فرع إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداوود وسليمان (عليهم السلام)، أو الفرع الإسماعيلي ممثلاً في دعوة إسماعيل عليه السلام ثم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وهو خاتم النبيين ورسول العالمين.

أما في المجلد الرابع، فدرست مرحلة مهمة، بعد إبراهيم عليه السلام، وهي مرحلة هيمنة النظام الاستبدادي الفرعوني الدكتاتوري، ورسالة كليم الله موسى (عليه السلام)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين، وما في قصته وتجربته الدعوية وحواراته مع الطغاة من دروس عِبر، وفوائد عقدية وروحية وإيمانية وتاريخية في مقارعة الظلم ورد الكفر، وإفراد الله بالعبادة والتوحيد.

وفي المجلد الخامس، تناولت قصة المسيح عيسى بن مريم (الحقيقة الكاملة)، أيِ الحقيقة التي جاءت في القرآن الكريم من الناحية التاريخية والعقائدية والقيمية، والرد على الشبهات المتعلقة بقصة عيسى عليه السلام وحقيقة دعوته إلى الله وحده.

واختتم المجلد السادس الموسوعة، بتناول سيرة إمام القادة العِظام وسيد الأولين والآخرين وخاتم النبيين والمرسلين للإنسانية محمد (صلى الله عليه وسلم)، في كتاب عنونته باسم "السيرة النبوية؛ عرض وقائع وتحليل أحداث: دروس وعِبر"، فكانت تجربة عظيمة سواءً الدعوة النبوية السرية والعلنية، ومجابهة الشرك والكفر والانتقال الدعوي إلى الطائف والحبشة والمدينة، والمراحل التي مرَّ بها، والسُّنن التي تعامل معها؛ كسنة الابتلاء والتدرج وتغيير النفوس والأخذ بالأسباب والتمكين لدين الله، والأحداث التي ذُكرت في القرآن الكريم كالغزوات الخالدة مثل غزوة بدرٍ الكبرى في سورة الأنفال، وغزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة تبوك في سورة التوبة، وبني النظير في الحشر، وفتح مكة في سورة الفتح، وما جاء من السيرة في الأحاديث الصحيحة الثابتة، وكل ما يتعلق بسيرة ومغازي ودعوة الرسول الكريم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) في كتب التفسير والتراجم والطبقات والأعلام وأهل الحديث.

"نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام"؛ موسوعة أسياد البشرية وقادة هذا الركب الإنساني العظيم، الذين يستحقون أن تكون سِيرهم وتجاربهم ومُعاناتهم وتدرجهم بالأخذ بالأسباب والصبر على الابتلاء وحواراتهم الواسعة مع أعداء الله ورحمتهم وعمق إيمانهم وطاعتهم لخالقهم، مرجعيةً لكل البشر في المسائل العقائدية والروحية والأخلاقية والقيمية، وفي التصورات والأفكار والعبادات والأخلاق والمعاملات.

إن أولئك القادة العِظام هم رُســـل الله تبارك وتعالى إلى الناس لهدايتهم وتعريفهم بحقيقة وجودهم وسبب خلقهم، ألا وهي عبادة الله وحده، وهذه هي الحقيقة والقول الفصل، وجوهر وقيمة الرسالات السماوية والدعوات التوحيدية.

إنني أحمد الله العلي الكبير أن وفقني للاهتمام بهذه المواضـيع، وأحمده وأشـكره على نعمه التي لا تحصى ولا تعدّ، وأسـأله أن يمدني بتوفيقه وتسـديده وتأييده في الكتابة المنهجية النافعة لبني الإنســـان، وأن يطرح لها القبول بين الناس، ويجعلها ســـبباً في هداية الباحثين عن الحقائق الكبرى في الوجود للوصول إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشـهداء والصـالحين وحسـن أولئك رفيقاً، وأن تســـهم هذه الكتابات في تنوير العقول وتطهير النفوس وتزكية الأرواح البشرية؛ لاستشراف الحق والتمسك به والذود عنه.

وأسـأله أن يمدّني بتوفيقه وتسـديده وتأييده في الكتابة المنهجيّة النافعة لبقيّة قصـص الأنبياء والمرســـلين من كتابه العزيز، وأن يلقى ما أكتبه القبول بين الناس، ويجعلها سـبباً في هداية الكثير من خلفه، وأن تُسـهم هذه الكتابات في نشـر توحيد الله عزّ وجل، وإفراده بالعبادة وتقديم نماذج رفيعة للمرجعيّة العقديّة والروحيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة والفكريّة.

ولا يسـعني في نهاية هذه المقدمة حول الموسـوعة، إلا أن أقف بقلبٍ خاشـعٍ منيبٍ بين يدي الله ـ عزَّ، وجلَّ ـ معترفاً بفضله، وكرمه، وجوده، فهو المتفضِّل، وهو المكرم، وهو المعين، وهو الموفِّق، فله الحمد على ما منَّ به عليَّ أوَّلاً، وآخراً، وأسأله سبحانه بأسمائه الحسـنى، وصـفاته العُلى أن يجعل عملي لوجهه خالصـاً، ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه، ويجعله في ميزان حســـناتي، وأن يثيب إخواني الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضـع، ونرجو من كلِّ مسـلمٍ يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينســـى العبد الفقير إلى عفو ربِّه، ومغفرته، ورحمته،

ورضــوانه من دعائه. قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْــكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَــالِحًا تَرْضَــاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّــالِحِينَ *﴾ [النَّمل: 19].

سبحانك اللّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إِله إِلا أنتَ، أستغفرك وأتوب إِليك، وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إِلى عفو ربِّه، ومغفرته، ورحمته ورضوانه

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

الفصل الأول:

قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)

تمهيد

يعد الكلام على قصة بدء الخلق وخلق آدم – عليه السلام– من الناحية المعرفية محاولة جادة لجمع وتفسير ما يقدمه القرآن الكريم بشأن بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام من خلال مطالعة ما ورد في كتاب الله العزيز وكتابات العلماء والمفكرين وأهل التخصص.

عندما نتحدث عن قصة الخلق وآدم عليه السلام، وجذور الحضارة الإنسانية الأولى، لا بدّ من الحديث عن الخالق العظيم، والرزاق الكريم، الفعّال لما يريد، الكريم المنّان، الواسع العليم، الذي رأيتُ من خلال مسيرتي في عالم التاريخ عظمتَه في الحياة، وفي قيامِ الدول وزوالها، وانتشارِ الحضارات واندثارِها، وعزِّ الحكومات وإذلالها، وقصص الناس، وفي مخلوقاته العجيبة الغريبة، وفي هذا الكون الفسيح، وحركة التاريخ.

هذا الكتابُ إنّما كان نتاجَ هذه المسيرة، بل إحدى ثمارِها، حيثُ وجدتُ أنّ الذين آمنوا بالله العظيم، واتبعوا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، هدى الله قلوبهم، بل زادها إيماناً، لقد عرفوا ربهم، وعلموا أنّ الله هو التواب الرحيم، ذو الفضل العظيم، العزيز الحكيم، الذي ابتلى ابراهيمَ بكلمات، وسمع نداءَ يونسَ في الظُّلمات، واستجابَ لزكريا فوهبه على الكِبَرِ يحيى هادياً مهدياً، وحناناً من لدنه وكان تقياً.

الله جلّ وعلا الذي أزال الكرب عن أيوب، وألان الحديد لداوُد، وسخّر الريح لسليمان، وفلق البحر لموسى، ورفع إليه عيسى، ونجّى هوداً وأهلك قومه، ونجّى

صالحاً من الظالمين، فأصبح قومه في دارهم جاثمين، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وفدى إسماعيل بذبحٍ عظيمٍ، وجعل عيسى وأمّه آيةً للعالمين.

الله جلّ وعلا الذي أغرق فرعون وجنوده، ونجّاه ببدنه ليكون لمن خلفَه آية، وخسفَ بقارون ودارِه الأرض، ونجّى يوسف من غيابة الجُبِّ، وجعلَه على خزائن الأرض، ونصرَ نوحاً على القوم الكافرين، ونجّاه وأهله من الكرب العظيم.

الله جلّ وعلا الذي أضحك وأبكى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأجدَّ وأبلى، ورفع وخفض، وأعزَّ وأذلَّ، وأعطى ومنع.

الله جلّ وعلا الذي هدى نوحاً وأضلّ ابنه، واختار إبراهيمَ وأبعد أباه، وأنقذَ لوطاً وأهلكَ امرأته، ولعن فرعونَ وهدى زوجتَه، واصطفى محمّداً ومقت عمَّه، وجعل من أنصار دعوته أبناءَ ألدِّ خصومته؛ كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فسبحانه عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته(1).

الله سبحانه إلهٌ واحدٌ ليس له شريكٌ، وليسَ له مثيلٌ في ذاته وصفاته وأفعاله، كلُّ ما في الكون من إبداعٍ ونظامٍ وانسجامٍ يدلُّ على أنَّ مبدعَه ومدبِّره واحدٌ، ولو كان وراءَ هذا الكون أكثرُ من مدبّرٍ، وأكثرُ من منظِّمٍ، لاختلَّ نظامُه، واضطربَتْ سنَنُهُ. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]. وليس التوحيدُ مجرَّد إقرارِ العبد بأنّه لا خالقَ إلا الله، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عُبّادُ الأصنامِ مقرّين

(1) الله أهل الثناء والمجد، ناصر بن مسفر الزهراني، شركة العبيكان، السعودية، ط7، 2007، ص41.

بذلكَ وهم مشـــركون، بل التوحيدُ يتضـــمّن محبَّةَ اللهِ، والخضـــوعَ له، والذلَّ له، وكمالَ الانقيادِ لطاعتِه، وإخلاصَ العبادةِ له، وإرادةَ وجهِهِ الأعلى بجميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعطاءِ، والحُبِّ والبغض، وهو واحدٌ ســـبحانه في ألوهيته، فلا يســتحقُّ العبادةَ إلا هو، ولا يجوزُ التوجُّه بخوفٍ أو رجاءٍ إلا إليه. لا خشــيةَ إلا منه، ولا ذلَّ إلا إليه، ولا طمعَ إلا في رحمته، ولا اعتمادَ إلا عليه، ولا انقياد إلا لحكمه(2). الله جلّ وعلا كلُّ الخلقِ مفتقرونَ إليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15].

قد يُعْطَى الإنســـان أموالاً، وقد يُمْنَحُ عقاراً، وقد يُرْزَقُ عيالاً، وقد يُوْهَبُ جاهاً، وقد ينَاَلُ منصـباً عظيماً، أو مركزاً كريماً، أو زعامةً عريضـةً، أو رياسـةً مكينةً، قد يحفُّ به الخدمُ، ويحيطُ به الجندُ، وتحرسُـــه الجيوشُ، ويخضَـــعُ له الناسُ، وتذلُّ له الرؤوسُ، وتدينُ له الشـــعوبُ، ولكنّه مع ذلك فقيرٌ إلى الله، محتاجٌ إلى مولاه(3). الله تعالى أســـعدَ عبادَه بكتابه، وأبهجَ قلوبَهم بكلامه، وأنارَ بصـــائِرَهم بقراءته، أكثرُهم قراءةً له أشـــدُّهم تعظيماً له، وأقربُهم منزلةً منه أقربُهم من كلامه، وأقرَؤُهم لوحيه.

كلامٌ معجزٌ، وقرآن مبهجٌ، وحبـلٌ متينٌ، ونورٌ مبينٌ، ينطِقُ بالعظمـةِ، ويهتِفُ بالإبداعِ، ويصـدَحُ بالألوهيةِ، ويشـهدُ بالربوبية(4). قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

---

(2) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 85.

(3) الزهراني، المرجع نفسه، ص. ص 127-126.

(4) الزهراني، مرجع سابق، ص 490.

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر: 23]. وجودُ الله جلّ وعلا أمرٌ ثابتٌ في النفوس، متمكّنٌ في الفِطَرِ، مزروعٌ في الأذهانِ، مغروسٌ في الأفئدةِ، لا يحتاجُ إلى دليلٍ، ولا يتطلّب إثباتاً، ولا يفتقِرُ إلى توكيدٍ. قال الشاعر المتنبي:

وَلَيسَ يَصِحّ في الأفهامِ شيءٌ　　　إذا احتَاجَ النّهارُ إلى دَليلِ

ولكنَّ بعضَ ذوي الفِطَرِ المنكوسةِ، والأنْفُسِ المريضةِ، والعقليّات المتعنّتَةِ، قد يجادلون في ذلك، مع أنّه مغروسٌ في حقيقة ضمائرهم، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [سورة النمل: 14]. وجاء القرآن الكريمُ مزدهراً بآياتٍ تنطِقُ بالعظمةِ، وتشهدُ بالربوبيَّةِ، وتَسُرُّ نفوسَ الواثقين، وتدحَضُ مزاعمَ المارقين، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [سورة الطور: 35].

وقد تعرّضَ أنبياءُ اللهِ، وأمناءُ الوحي، وحملةُ الدعوةِ، ومصابيحُ الدجى، وأنصارُ التوحيدِ، لعددٍ من المتعنتين على مرِّ العصورِ، مع اختلافٍ في طبقاتهم، وتبايُنٍ في تفنُّناتِهم، إلاّ أنّ بعضَهم وصلَ به الأمرُ إلى أنِ ادّعى أنَّه ربُّ العالمين، فأيَّد الله أولياءَه بحججٍ قاهرةٍ، ودلائلَ باهرةٍ، وأدلةٍ قاصمةٍ، وصواعقَ مرسلةٍ، تدمّرُ أباطيلَهم، وتنسِفُ افتراءاتِهم، وتزلزِلُ كياناتِهم، وتُظْهِرُ سُخْفَ عقولِهم، وقلّة فهمهم، وانحطاطَ أمانيهم؛ فهذا إبراهيمُ عليه السلام يحاوِرُ النمرود، الذي طَغَى وتجبّر، وعتا وتكبّر، وادّعى الربوبيةَ من دون المولى عزّ وجل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي

وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: 258]. فحينما أدلى إبراهيمُ بالدليل الأوّلِ على وجودِ الله تعالى وربوبيته فقال: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾. قال النمرود: وأنا أحيي وأميتُ (فأتي برجلين قد تحتّمَ قتلهما، فأمرَ بقتلِ أحدهما وعفا عن الآخر، فكأنّه قد أحياه، وأمات الآخر)، وهذه حجةٌ واهيةٌ وردٌّ سخيفٌ، ولكنَّ إبراهيمَ عليه السلام تدرّجَ معه في المحاجَّةِ فأتاه بالضربةِ القاضيةِ، والحجَّةِ الدامغةِ، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [سورة البقرة: 258]، أي هذه الشمسُ مسخّرةٌ كلَّ صباحٍ تطْلعُ من المشرقِ، كما سخّرها خالقُها ومسيّرُها وقاهِرُها؛ اللهُ الذي لا إله الا هو، خالقُ كلِّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما زعمتَ أنَّك تحيي وتميتُ فأتِ بهذهِ الشمسِ مِنَ المغربِ، فإنَّ الذي يحيي ويميت هو الذي يفعلُ ما يشاءُ، ولا يمانَعُ، ولا يغالَبُ، بل قد قهرَ كلَّ شيءٍ، ودانَ له كُلُّ شيءٍ، فإنْ كنتَ كما تزعمُ فافعل هذا، فإنْ لم تفعلَه فلستَ كما زعمتَ، وأنتَ تعلمُ وكلُّ أحدٍ يعلمُ أنك لا تَقْدِرُ على هذا، ولم يبقَ للنمرود كلامٌ يجيبُ فيه الخليلَ عليه السلام(5)، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

(5) الله أهل الثناء والمجد، الزهراني، مرجع سابق، ص 567.

وقال الصحابي (الشاعر) لبيد بن ربيعة:

فيـا عجبـاً كيفَ يُعْصَـى الإلـ ـــه أمْ كيـفَ يجحَدُهُ الجاحِدُ

وللهِ فـــي كـــلّ تحريكـةٍ علينـا وتســكينـةٍ شـــاهـدُ

وفي كـل شـــيءٍ لـه آيـةٌ تــدلُّ عــلـى أنــه واحــدُ

وما أجمل هذه الأبياتَ الرائعةَ التي قالها الشاعر إبراهيم بريول رحمه الله:

إني أويـت لـكـل مـأوى في الحيـا ةِ فمـا رأيـت أعز من مـأواكـا

وتلمّســت نفســي السـبيل إلى النجا ةِ فلم تجد منجى ســوى منجاكا

وبحثت عن ســر الســعادة جاهـداً فوجـدت هـذا الســر في تقواكـا

فليرضَ عني النـاس أو فليســخطوا أنا لم أعد أســعى لغير رضـاكا

إلى أن قال:

يا أيهـا الإنســان مهلاً مـا الـذي بالله جـلَّ جـلالُـهُ أغـراكـا؟

فـاســجـد لمولاك القـدير فـإنمـا لا بـدَّ يومـاً تَنْتَهِي دُنيـاكـا

وتـكونُ في يومِ القيـامـةِ مـائلاً تُجْزَى بمـا قَـدْ قـدّمَتْـهُ يَـدَاكـا

إنَّ حقائقَ الاسلام ثابتةٌ لا تتغير، منذ أُنزلتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة، المرجعُ فيها كتابُ اللهِ وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنّ علماءَ الأُمّة في كلِّ جيلٍ، وطلاّبَ العلمِ فيها، يتناولونَها بالشـــرح والتفســـيرِ من خلالِ الواقعِ الذي يعيشُــه كلُّ جيلٍ، وما جدَّ فيها من نوازلَ، وما حدثَ فيه من انحرافٍ في الفهمِ أو الســـلوكِ، وإنَّ جيلنا الذي نعيشُ فيه لهو مِنْ أحوجِ الأجيالِ إلى التعرُّفِ على حقائق دينه، وخصوصاً قصة الخلق وآدم عليه السلام.

المبحث الأول: كلمة التوحيد وأدلة وجود الله سبحانه:

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنســان بوّابةَ الإســلامِ، ويصــلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ (لا إله إلا الله، محمدٌ رســـول الله)، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صــلى الله عليه وســلم بالرســالةِ. أنْ يشــهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المســتحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَرفَ قواه –قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنهِ وجوارحِه– في التسبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإله العظيم، الذي أنتَ أيُّها الإنسان من بعضِ فضلِه، ومن بعضِ خلقِه، فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترِفُ به، وتمجِّده، وتســـبِّحه، شـــئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنســـــان أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعاً بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[6]، وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم الخاتمَ للرسل هو

---

(6) مع الله، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم، 1429هـ/2008م، ص 39.

عبدُ اللهِ ورســـولُه، أرســـلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، وذلك إقراراً باللسانِ، وإيماناً بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

تكلمت في هذا المبحث على ثمانية أشياء متعلقة بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله):

أولاً: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله:

وخلاصـــتها أنه لا معبود بحق إلا الله فهو وحده المســـتحق بأن تصـــرف له جميع العبادات خالصـــة له دون ســـواه. ومعنى شـــهادةِ (أنَّ محمداً رســـول الله): الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ.

ثانياً: فضل لا إله إلا الله:

جاءت فضـائلها كثيرة في القرآن الكريم والسـنة النبوية، أما في القرآن، فقد وصـفت بأنها الكلمة الطيبة، والقول الثابت، وأنها العروة الوثقى، ومن فضـــائلها أنّ الرســـل جميعَهم أُرسلوا بها مبشِّرين ومنذرين.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً، منها:

فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، ومن فضائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، ومن فضائلها أنّها ترجُحُ بصحائفِ الذنوب يوم القيامة.

ثالثاً: شروط "لا إله إلا الله":

ذكر العلماء شروط لهذه الكلمة العظيمة وعددوها سبعةً، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، ولكن فهمها والتزامها، فكم مِنْ عامّيٍ اجتمعت فيه

والتزمَها، ولو قيل له عدِّدها لم يُحْسِـــنْ ذلك وكم حافظٍ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً فيما يناقِضُها، والتوفيق بيد الله[7].

1. العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها.
2. اليقين المنافي للشك.
3. القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان.
4. الانقياد لما دلّت عليه، فعلاً، وتركاً.
5. الصّدق المنافي للكذب.
6. الإخلاص.
7. المحبة.

رابعاً: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ضرب نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين؛ حيثُ كان عليه السلام أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله، ومنهم أبوه. وقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام مع قومه كأيِّ نبيٍّ رسول؛ حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلّ طاغوت يُعْبَدُ من دون الله[8].

خامساً: آثار الإقرار بـ "لا إله إلا الله":

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ نذكر بعضـــها على وجه الاختصار؛ منها:

---

(7) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط 1، 1990، 377/1.

(8) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط 1، ص 145.

1. أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضـــيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

2. أن الإيمان بهذه الكلمة يُنشـــئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء.

3. ينشأ من هذه الكلمة تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٌ من غير كِبْرٍ.

4. الإيمان بـ "لا إله إلا الله" يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

سادساً: أدلة وجود الله:

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشـةٌ صـريحةٌ لمنكري الخالق فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضـيةٌ ضـروريةٌ لا مسـاغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليسـتْ قضـيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً –أيَّ أثرٍ– من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟! ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضـــية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [ســورة الشــعراء: 23]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: 38]، ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [سورة غافر: 36-37].

ومع خلو القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق فإنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[9]. ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

1. دليل الخلق:

وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليّ القدير سبحانه. قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: 35-36].

2. دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: 53]. فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيتنا وقدرتنا[10]، وقوله: "في الآفاق"، يعني: أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات[11]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله.

3. دليل الأنفس:

فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكِّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ

---

(9) المحكم في العقيدة، الكبيسي، ص 66.

(10) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 374/15.

(11) القرطبي، المرجع نفسه، 374/15.

الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِـــهِ وجد آثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه(12).

4. دليل الهداية:

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: 50]، والمقصـــودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصـــوير ما يصـــلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشـــادُه إلى ما يُصْـــلِحُه في معيشـــته، ومطعمه، ومشـــربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه(13).

والهداية أنواع:

1. هداية المعارف الفطرية الضرورية لكل مخلوق.
2. هداية الإرشاد والبيان التي بعث الله بها أنبياءه، وأنزل بها كتبه.
3. الأخذُ بالقلوب والعقول إلى مواضع رضاه بالتوفيق والإلهام والحفظ، كما وعد ســبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [سورة يونس: 9].

---

(12) التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت، 190/1.

(13) مفتاح دار الســـعادة ومنشـــور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، بيروت، ص 109. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، 1978، ص 78.

5. دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والســـفلي، وارتباطُ بعضِـــه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبَّره واحدٌ لا إله غيره(14).

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا فَسُـبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: 22]. لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له، أي لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ.

6. دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: 8]، وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ الله عزّ وجلّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحســـنِ نظامٍ، وأدلِّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِه(15).

وقد ذكرت في كتابي "قصـــة بدء الخلق وخلق آدم" غيرها من الأدلة يمكن الرجوع إليها.

---

(14) الصـــواعق المرســـلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط 1، 1408، 464/3.

(15) الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2000، ص 314.

المبحث الثاني: قصة بداية خلق المخلوقات:

إن الناس -في كل زمان ومكان- يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده... لذلك سيتناول هذا الفصل مبحثين؛ الأول: بدء الخلق وقدرة الخالق سبحانه. والثاني: أي المخلوقات خلق أولاً.

أولاً: بداية الخلق ليست غامضة:

بداية الخلق ليس بداية غامضة أو هلامية كما يصوّرها الفكر الغربي المادي الحديث، الذي يتيه في شعاب من التجارب والنظريات المتناقضة في كثير من الأحيان، وما زال المفكرون الغربيون وعلماء الفيزياء والفلك في حيرة من أمرهم في مسألة تحديد بداية الخلق ونشأة الكون، بل لقد أفضت بهم تلك الحيرة إلى الإلحاد في التصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية -كما يقول جعفر شيخ إدريس- هو مع الأسف تصور مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية، وأن الكون مكتفٍ بنفسه، غني عن أيّ شيءٍ خارجي(16).

والله تعالى يخبرنا أنّه سبحانه وتعالى هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شيء، وقد اقترن اسم الأول باسمه الآخر سبحانه وتعالى مرة واحدة في القرآن؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: 3].

---

(16) الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط 1، 2001، ص 15.

وأحسن التعريفات وأكملها ما فسّره أعرف البشر بالله عز وجل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وذلك في قوله: (وأنت ألأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء)[17].

ثانياً: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

فالله تعالى غنيٌّ عن كل شـــيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس مثله شـــيء، وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير[18].

ثالثاً: الله يعرف نفسه لخلقه في آية الكرسي:

وهذه الآية تملأ القلب مهابةً من الله وعظمته وجلاله وكماله، فهي تدل على أن الله تعالى منفرد بالألوهية والسلطان والقدرة، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض[19].

رابعاً: الله غني عن خلقه:

ومن أهم المعالم في هذه القصـــة العظيمة أن الله ســبحانه وتعالى لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد[20].

---

(17) تفسير القرآن، ابن كثير، المصدر السابق، 8/ 31.

(18) إبراهيم، المرجع نفسه، ص. ص 28-29.

(19) التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط 2، 1418، 18/3.

(20) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 22.

خامساً: خلق الله الخلق في أوقات متفاوتة:

من معالم قصة الخلق أن الله سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد، ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه.

سادساً: مظاهر الحكمة في الخلق:

إن الله عز وجل ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، فلم يخلق الله الخلق عبثاً ولا لعباً، وإنما خلق الخلق جميعه لحكمة، وخلق تفاصـــيل الخلق لحكم عظيمة يدركها الإنســـان في خلقته، وفيما حوله من المخلوقات التي يمتلأ بها الكون، يقول ســـبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الدخان: 38-39].

سابعاً: أول المخلوقات التي خلقها الله عز وجل:

أولاً: خلق العرش والكرســـي، وعرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفيةً وأعلاها مكاناً. وجاء في الحديث: "كان الله ولم يكن شـيء قبله، وكان عرشـه على الماء".

ثانياً: خلق الماء، وهو سر الحياة ومنبعها، وهو من أول المخلوقات وجوداً، بل هناك من أهل العلم من قال بأن الماء أول المخلوقات، حتى قيل إنه خلق قبل العرش، ثم خلق العرش بعد ذلك.

ثالثاً: القلم: كثير من العلماء رجح أن أول المخلوقات هو العرش، ثم الماء ثم القلم، وهو ما سرنا عليه في ترتيب المخلوقات في هذا الكتاب.

رابعاً: خلق اللوح المحفوظ: وهو أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين[21].

خامساً: خلق الزمان.

سادساً: الأرض.

سابعاً: خلق الجبال.

ثامناً: خلق السماوات.

تاسعاً: خلق الشمس والقمر.

عاشراً: خلق الليل والنهار.

الحادي عشر: خلق النجوم.

الثاني عشر: خلق الرياح.

الثالث عشر: خلق السحاب والرعد والبرق والصواعق.

الرابع عشر: خلق الشجر والنبات.

الخامس عشر: خلق الظلال.

---

(21) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص 84.

المبحث الثالث: حديث القرآن الكريم عن آدم –عليه السلام– وتأسيس الحضارة الإنسانية الأولى:

وردت قصة بدء الخلق وخلق أبينا آدم –عليه السلام– في القرآن الكريم، والقرآن شكّل أوّل وأكمل وأعظم مصدر تاريخي حفظ لنا تلك المرحلة التأسيسية من الخلق وبداية الحضارة الإنسانية الأولى منذ انتقال آدم من الجنة إلى الأرض ومرحلة العمار الأولى. ووردت قصة آدم أكثر ما وردت في سورة البقرة والأعراف والحجر والإسراء والكهف وطه...

أولاً: قصة آدم (عليه السلام) في سورة البقرة:

وردت قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة من الآية الثلاثين حتى الآية التاسعة والثلاثين، المبتدئة بقوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾، حتى قوله: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا

الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: 30-39]

أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكته بأنه سيجعل خليفة في الأرض، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً من بعد جيل إلى ما شاء.

وذكر سبحانه وتعالى قصة آدم عليه السلام بعدما ذكر من الآيات الكريمة المتعلقة بأصل الإنسان، وبأن الله عز وجل خلق له ما في الأرض جميعاً، وملّكه حق الانتفاع بها، وأشار إلى خلق السماوات، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 28-29].

- في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [سورة البقرة: 28].

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم، والرابع منتظر موعود به وعد الحق:

الأول: كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم، بل نطفاً وعلقاً ومضغة مواتاً لا حياة فيها.

الثاني: أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة.

الثالث: أنه يميتهم بعد هذه الحياة.

الرابع: أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه، فما بال العاقل يشـــهد هذه الأطوار الثلاثة الأُوَل ويكذّب بالرابع، وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق؟ فالذي أحياكم بعد أن كنتم مواتاً ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعدما يميتكم؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله؟ فكيف يقع منكم بعدما شـــهدتموه؟ ففي ضـــمن هذه الآية الاســـتدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد[22].

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْـــتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: 29].

بيان نعمة أخرى مرتَّبة على الأولى؛ فإنه خلقهم أحياء قادرين مرة بعد أخرى، وهذه خلق ما يتوقف عليه بقاؤهم، ويتم به معاشـــهم، ومعنى "لكم" لأجلكم، ولانتفاعكم، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل على هذا الأصــــل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها، مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله "جميعاً" أقوى دلالة على هذا[23].

وفي قوله: "ثم استوى إلى الســـماء فسـواهن"، أيّ: علا عليهن وارتفع فدبّرهن بقدرته، وأتمّهن وأحكمهن وقوّاهن، وخلقهن سبع سماوات[24].

---

(22) بدائع الفوائد، ابن القيم، مرجع سابق، 137/4.

(23) محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، مرجع سابق، 90/2.

(24) التدبر والبيان في تفسير القرآن، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، مرجع سابق، 368/1.

وختم الآية: "وهو بكل شيء عليم" أيّ: فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته بما ينفع الناس بيانه، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام المحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من يشاء من عباده؟[25]

ثم ذكر سبحانه وتعالى معالم من القصة الحقيقية لخلق الإنسان، وعلاقته في خلقته وتكوينه بمخلوقات الله عز وجل من الملائكة والشيطان ومستقبله في الأرض... إلخ.

ثانياً: قصة آدم (عليه السلام) في سورة الأعراف:

إن سورة الأعراف سورة مكية، وقد تضمنت سنة الله الكونية في الأمم المخالفة، وتذكيراً للناس بآيات الله في الكون وخلقه، وخلق الإنسان وضعفه، وبداية عداوة الشيطان للإنسان، وذكر الله فيها جملة من حجج المعاندين من الأمم السابقة، وحذّر من سلوك طريقهم وخَوَّفَ من يوم القيامة، ومن عاقبة الكافرين في النار، ورَغَّبَ بالجنة وذكر عاقبة أهلها[26].

وقد مهّد الله عز وجل قبل الحديث عن الأمم السابقة، وقبل الدخول في قصة البشرية تفصيلاً بالحديث عن تمكين الله عز وجل للجنس البشري في الأرض، ومن هنا نبدأ الرحلة الكبرى في مسيرة البشرية، ثم الشروع في قصة آدم عليه السلام وعداوة إبليس له وجاءت تفاصيل مثيرة وحقائق خطيرة لا توجد إلا في كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(25) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 251/1.

(26)التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، 1281/3.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلا مَّا تَشۡكُرُونَ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّار وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِين قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُوما مَّدۡحُوراۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُور فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّ مُّبِين قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِين قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَة قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِد وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ،فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ

ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِد وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَة يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡم يَعۡلَمُونَ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ،وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَل فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: 10-34].

وتناولت سورة الأعراف الكلام على قصة آدم عليه السلام من خلال:

1. بداية الرحلة الكبرى وربط الحياة بالله عزوجل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف:10]؛ حيث بدأت الآيات الكريمة تمهد عن تمكين الله للجنس البشري في الأرض، كحقيقة مطلقة وذلك قبل أن تبدأ قصة البشرية تفصيلاً.

2. خلق الإنسان وتصويره:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:11].

بدأ الله خلق الإنسان من طين، ثمَّ صوره حتى تكامل خلقه إنساناً سوياً يملك الصورة الجميلة والجسم المعتدل والأجهزة الدقيقة التي تتحرك في نظام محكم متوازن، فتحرّك فيه العقل والإرادة الذين يستطيع من خلالهما أن يحمل مسؤولية نفسه ومسؤولية الكون من حوله[27]. وتحدث الله عز وجل في كتابه عن مراحل خلق

(27) تفسير من وحي القرآن، فضل الله، مرجع سابق، 33/7

الإنسان، وهي: التراب، ثم الماء، ثم الطين، ثم الطين اللازب، ثم الحمأ المسنون، ثم الصلصال.

أ. مرحلة آدم وتصويره:

بعدما مَرَّ آدم عليه السلام بالمراحل المذكورة خلقه من تراب، ثم تحول التراب إلى طين، ثم تحويل الطين إلى طين لازب، ثم تحويل اللازب إلى صلصال من حمأ مسنون ثم تحويل ذلك الصلصال إلى صلصال كالفخار تمثالاً مجسماً وجسداً بدون روح، هذه المرحلة هي مرحلة التصوير تمهيداً لنفخ الروح فيه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:11].

ب. الروح التي نفخها الله في آدم:

شاء الله العليم الحكيم الخالق المصور أن يجعل هذا التمثال المجسم حياً، فأخبر الملائكة بذلك، وطالبهم أن ينتظروا إحياءه، فإذا رأوا أن الله نفخ فيه من روحه فعليهم أن يسجدوا له، وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرا مِّن طِين ،فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِين﴾[ص: 71-72]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[الحجر:29]، لقد نفخ الله في هذا التمثال المجسم من روحه، فدَّبت فيه الحياة وصار إنساناً حياً متحركاً(28). أي بث الله فيه الروح: التي هي سر الحياة والتي لايعلم شأنها إلا من خلقها فهي في عالم الغيب، وهي الجزء المهم في هذا الإنسان وهي التي أعطته القيمة والكرامة، فنفخه الروح

(28) سيرةآدم، الخالدي، مرجع سابق، ص 50.

ســـبب الحياة وســـر الحياة، وكم من أمر لايعلمه البشـــر ولكنهم يؤمنون به فالكهرباء حتى الآن مازالت طلسماً أفلا يؤمن بها البشر؟؟

وكيف لا، وجل حياتهم وآلاتهم وأجهزتهم مرتبطة بها أو قائمة عليها، ولم يمنع البشـــر عدم فهمهم لماهية الكهرباء أن يؤمنوا بها وينتفعوا بها ولا يقول أحد منهم: أقنعني بالكهرباء وأنها موجودة! (29).

ج. أول قول وفعل لآدم:

بنفخ الروح في آدم صـــار به خلقاً آخر يختلف عن الحال التي كان عليها، إذ كان جماداً من الجمادات، وبعد أن نفخ الروح صـار إنسـاناً يعقل وينطق، بل ويتلقى الأوامر والتوجيهـات من رب العـالمين، ولمـا خلق الله آدم، ونفخَ فيـه الروح عطس، فقـال: الحمـد لله، فحمـد الله بإذنه، فقـال لـه ربـه: يرحمك الله يا آدم"[30]. أول مـا لفظ آدم هو الحمد، الحمد على الروح وعلى الحياة، وعلى التكريم وعلى الإنسانية وعلى المعرفة والتعليم.

د. صورة آدم وطوله:

قال رسـول الله (صـلى الله عليه وسـلم): "خلق الله آدم على صـورته سـتون ذراعاً، ثم قال له: اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاســتمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقال السـلام عليكم فقالوا: وعليكم السـلام ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صـــورة آدم في طولـه، ســـتون ذراعـاً، فلم تزل الخلق بعـده تنقص حتى

---

(29) تفسير سورة الحجر، أحمد نوفل، مرجع سابق، ص 203.

(30) أخرجه الترمذي في صـــحيحه، رقم 8478. وانظر: ابن خزيمة في التوحيد، 160/1، من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

الآن"(31). ومعنى "على صورته"؛ على صورة آدم عليه السلام، والمراد الصورة التي أهبطها الله عليها إلى الأرض وعاشها على الأرض ورآها عليه أولاده وهو صورته البشرية وجسمه الآدمي بأعضائه وأجهزته وهي أعضاء وأجهزة جسم كل منا.

هـ. زوجة آدم وأبوته:

خلقت زوجة من نفس العناصر التي خلق منها آدم، فنفسها نفس إنسانية، فهي من الجنس البشري، وليست من جنس الملائكة أو الجن أو الحيوانات. فالله خلق زوج آدم من نفس نوع آدم كما خلق لنا من أنفسنا أزواجاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجا﴾ [النحل:72].

وآدم وحواء كانا بلا أب ولا أم، بل هما أبو البشرية جمعاء، وإن أبوهما الطين والتراب والأرض، ولو وضع آدم شجرته التاريخية، لكانت:

- الماء/ التُّراب.
- الطين.
- الطين اللازب.
- الحمأ المسنون.
- الصلصال.
- نفخ الروح.

---

(31) أخرجه البخاري في صحيحه رقم، 3326، كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته منحديث أبي هريرة (رضي الله عنه).

و. زواج آدم عليه السلام:

تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السلام في ثلاث مواضع، وفي ثلاث سور، وهي:

في سورة البقرة؛ بينت بأن حواء خُلقت لتحقيق هدف السكن والطمأنينة. وفي سورة طه؛ عرضت قصة آدم عليه السلام وحواء في الجنة ومعصيتهما لله تعالى وكشف السوءات. وفي سورة الأعراف؛ لتبين نزول آدم عليه السلام وحواء على الأرض وأول جماع جنسي بينهما[32].

3. سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وحواره مع رب العالمين:

وبعد الحديث عن الخلق والتصوير لبني الإنسان كان الحديث عن سجود الملائكة لآدم عليه السلام، والذي كان الغرض منه تنفيذ أمر الله، وذلك طاعة له فيما أمر، وإكراماً لآدم به، وإظهاراً لفضله، وتنويهاً على مكانته عند الله. وقد ذكرت هذه القصة مفصلة في الآيات التي جاءت في سورة البقرة، ولم يكن إبليس من المنفذين لأمر الله عز وجل استكباراً وحسداً لآدم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ۝ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

(32) التربية الجنسية في الإسلام، داود، مرجع سابق، ص 237.

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:11 - 18].

4. قصة آدم في الجنة وخروجه منها:

أ. قال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:19].

في توجيه الخطاب لآدم عليه السلام بهذه الفضيلة بحضور إبليس بعد طرده هو زيادة إهانة، لأن إعطاء النعم لمرضيّ عليه في حين عقاب من استأهل العقاب زيادة حسرة على المعاقب، وإظهار للتفاوت بين مستحقي الإنعام، ومستحق العقوبة(33).

ب. ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:20].

أي: ألقى إليهما الوسوسة وهي الصوت الخفي المتكرر[2].

هدفه الأول من الوسوسة أن يزيل عنهما حرمة أهل الجنة وكرامتها وسعادتها، فيتلطخا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها(34)، أي استزلهما بالوسوسة والإغراء

---

(33) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ص 53/9.

(34) روح المعاني، الألوسي، مرجع سابق، ص 99/8.

اللذين لهما أعظم التأثير في القلوب، حيث غزاهما بدغدغة العواطف وتحريك الأنانية الكامنة في القلوب[35]

ج. ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:22].

جعلهما يتدليان نحو القاع، نحو القعر، نحو أسفل سافلين، بينما هما يتصوران أنهما يركبان سلم الرقي والتطور، وقادهما إلى تلك الشجرة المحرمة، خطوة خطوة، وخطوة إثر خطوة من خطوات الشيطان في دواخلهم، في نوازعهم، فيما بدا لهم أنه أصيل في أعماقهم، دلاهما بغرور، بخديعة ووصلا إلى تلك الشجرة، عبر خطوات الشيطان.

د. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23].

وفي هذه الآية يتكشف الجانب الآخر في طبيعة هذا الكائن المتفرد، إنه ينسى ويُخطئ، إن فيه ضعفاً يدخل منه الشيطان، إنه لا يلتزم دائماً ولا يستقيم دائماً ولكنه يدرك خطأه ويعرف زلته ويندم ويطلب العون من ربه والمغفرة ويثوب ويتوب إلى الله، إنها خصيصة الإنسان التي تصله إلى ربه وتفتح له الأبواب إليه لا حول ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا كان من الخاسرين، وهنا تكون التجربة الأولى قد تمت، وتكشفت خصائص الإنسان الكبرى وعرفها هو وذاقها، واستعد بهذا التنبيه لخصائصه الكامنة لمزاولة اختصاصه في الخلافة

(35) العقوبات الإلهية في القرآن الكريم، الشمراني، مرجع سابق، ص71.

وللدخول في المعركة التي لا تهدأ أبداً مع عدوه[36].

هـ. قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:24].

انتهت بهذه النتيجة التجربة وما فيها من دروس وعبر وأمر الله تعالى الإنسان إلى الأرض التي خلق ابتداءً منها ليستخلفه سبحانه.

حيث جعل الله الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم، وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نُشورهم في يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله[37].

5. النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم بعد قصة آدم (عليه السلام) وما فيها من تقرير وتحذير:

قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا

(36) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ص 1270/3.

(37) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ص 36/3.

وَاشْـرَبُوا وَلَا تُسْـرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَـةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْـتَأْخِرُونَ سَـاعَةً ۖ وَلَا يَسْـتَقْدِمُونَ ۝ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُـلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّـونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْـلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْـتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 26-36].

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشـري على الأرض وسماته الكبرى، جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة يا بني آدم.

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصـيغة واضـحة، فالعهد قريب بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشيطان له ومكره وإغوائه، مما أدى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية وتجريده من ثياب أهل الجنة، وظهور سـوءته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضـل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكون له مستقراً ومتاعاً إلى حين، فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده، وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كل زمان ومكان[38].

(38) التفسير الموضوعي، الكومي وقاسم، مرجع سابق 39/3.

ثالثاً: قصة آدم (عليه السلام) في سورة الحجر:

تدور قصة آدم عليه السلام في سورة الحجر حول خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون وخلق الجان من نار السموم وأصل المادة التي خلق منها الجان وإثبات تكليف الجان.

وذكر الله تعالى أنه نفخ من روحه لآدم بقوله ﴿ ونفخت فيه مِنْ رُوحِي﴾؛ و "من" في هذه الآية بيانية وليست تبعيضية، وورود كلمة الروح في القرآن الكريم، وأهم المظاهر للحياة الروحية للإنسان، ومنها:

- العيش في واحة الأسماء الحسنى.
- التأمل العقلي في مخلوقات الله المبثوثة في الكون وتناولت الآيات مصير من اتبع صراط الله من الجنان والسعادة الأبدية ومآل من سلك طريق إبليس إلى جهنم التي وصفتها الآيات بأن لها سبعة أبواب وأن لكل باب منهم جزء مقسم.

وضحت الآيات وسائل إبليس في التزيين والإغواء: ﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾؛ فالتزيين والإغواء ركنان أساسيان في الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، فمن يغوي الناس عن الحق ويزين لهم الباطل فليعلم أنه من معسكر إبليس. وذكرت الآيات الوسائل التي استخدمها إبليس وتم فضحها في هذا الكتاب:

- التشكيك في وجود الخالق.
- التشكيك في اختصاص الله بالعبادة وحمل الناس على عبادة الاصنام.
- التشكيك في العقائد الإيمانية.

- التشكيك الذي يشمل حياة المسلم بشكل عام.
- تزيين الهوى والمعاصي.
- التثبيط عن فعل الطاعات.

وكذلك بينت طريق النجاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه القصة وأهمية الإخلاص لله رب العالمين في التغلب على الشيطان واتباعه، فالإخلاص جوهر الأخلاق الإيمانية ونقطة دائرتها لأنه هو المميز لما يترتب على الأخلاق الحسنة من المدح والثواب وعظم المنزلة في الآخرة.

رابعاً: قصة آدم (عليه السلام) في سورة "الإسراء"، و"الكهف"، و"طه"، و"ص":

أعاد الله تعالى في كتابه الكريم ذكر قصة آدم في سورة "الإسراء"، و" الكهف"، "وطه"، و"ص"، وقد تكلمت في كتابي الأصل: "قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام"، عن كل قصة بالتفصيل وبينت معانيها وشرحتها معتمداً على كلام العلماء المتقدمين والمتأخرين، وبينت العلاقة بين القصة والسورة التي ذكرت فيها، كما أني بحثت في الآيات قبل الدخول في القصة وعلاقتها بها، فيمكن الرجوع للكتاب الأصل لمن أراد التوسع، وسنذكر هنا بعض فوائد الآيات وهداياتها العامة.

قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۝ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء:61-63].

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:50،51].

وقال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدم مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ۝ فَقُلْنَا يَا آدم إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ۝﴾[طه: 115-119].

وقال في سورة ص: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾[ص:71-74].

- **ومن فوائد الآيات:**

- يعلن الشيطان عداوته وخططه وهو متأكد أو واثق أن هذا لا يغير من الواقع شيئاً والأصل أن إعلان الخطط يوقظ المستهدفين.

- اجتهاد الباطل وأهله وتقاعس حملة الحق، فهذا الشيطان يعلن أنه سيلازم الذرية التي سينجبها هذا المخلوق الجديد ما بقي من الزمان ولئن كانت أطول مدة من دعوات الأنبياء والمرسلين، وممن دعا ألف سنة إلا خمسين عاماً "نوح عليه السلام" فإن إبليس مستمر في دعوة الشر من بدء الخليقة إلى نهاية العالم وهو درس لنا نحن المؤمنين من نحمل الحق.

- إبليس يمكر بالبشر من ذرية آدم والله يمكر به بتجهيز جهنّم له ولأتباعه.

- ما أسوأ أن يمكر الإنسان بنفسه، فهذا الشيطان يمكر ببني الإنسان، ولكن جزءاً كبيراً من أعوانه هم من بني الإنسان من المفسدين في الأرض من بني إسرائيل وغيرهم، يمكرون بالجنس البشري عن طريق الفساد والجنس والأفلام والإعلام والمخدرات وتدمير إنسانية الإنسان لحساب الشيطان، فمتى يفيق البشر على أعدائهم الحقيقيين؟ متى يعرفون ما هو الإرهاب الحقيقي وما هو التدمير الشامل الحقيقي؟

- لا يغرنك هذه العربدة الإبليسية في الأرض للشيطان وأتباعه من بني صهيون، إن جهنم تنتظرهم على أحر من الجمر.

- لله حكمة بالغة في وجود الشر والشيطان وفي هذه المعركة الحامية الوطيس، الدائرة بين أتباع المرسلين وأتباع الشياطين(39).

- الالتفاف في الضمير عن بني آدم: من ضمير الغائبين في ﴿مِنْهُمْ﴾ إلى ضمير المخاطبين في ﴿جَزَاؤُكُمْ﴾ إيذاناً بأن من اتبع إبليس فإنه يفقد إنسانيته، ويتحول إلى شيطان مريد مع الشياطين، حتى ولو كان نسبه شريفاً وهو ابن أبيه آدم في النسب، لكنه ليس منه في الأفعال والصفات وفيه أيضاً أن جهنم موفورة غير منقوصة لهم، فعذابهم والعياذ بالله كامل معد لهم مدّخر موفّر، جزاءً على أعمالهم(40).

- أن إبليس من الجن كما في سورة الكهف وهي الآية الأولى التي يصرح فيها بذلك.

- أنه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك.

- أنه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا إبليس وذريته أولياء من دون الله مع عداوته لهم.

---

(39) تفسير سورة الإسراء، نوفل، مصدر سابق، ص 357.

(40) قصة آدم، ياسر برهامي، مصدر سابق، ص 109.

– إن أفضل السبل لبحث قضية آدم عليه السلام هو سلوك طريق القرآن والسُّنة الصحيحة الثابتة وتفسير الآيات تفسيراً منهجيّاً صحيحاً، وجميع الآيات والروايات الواردة في هذا الباب ودراستها دراسة تفصيلية تحليلية موسعة قبل تكوين رأي معين عنها.

– إن مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب إلى نفخ الروح فيه، ذكرها الله وفي أكثر من موضع وبينها النبي صلى الله عليه وسلم وليست من المتشابهات ولا مما يستأثر العلم التجريبي بتفسيره.

– الآيات والروايات الواردة حول آدم في الشرع غنية جداً وشاملة وواضحة ولا لبس فيها إلا من كان اللبس في فهمه هو، ولا تعارض بينها وبين ما ثبت من يقينيات العلم التجريبي والتفكير المنطقي، ومن خلالها فقط نستطيع الوصول إلى لب قصة آدم عليه السلام(41).

– وفي الآيات تقرير التوحيد بأدلته وعلاماته.

– وفيها تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما جاء به وحي من الله، شواهده من الخبر عن الملأ الأعلى الذي لا يعلم ما يجري فيه إلا بوحي، كما في سورة ص.

– ذم صفة الكبر والحسد وبيان شرّها وأذاها على من اتصف بها.

– وفيها تقرير مبدأ الحوار والرد على إبليس بوضوح وصراحة تامة بالحجة البالغة(42).

---

(41) آدم بين التطور والتطور الموجه والوحي، إبراهيم الشحات، مصدر سابق، ص 556.

(42) تفسير المدينة، نخبة من العلماء، مصدر سابق، 405/2.

خامساً: هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض وقصة النبي آدم عليه السلام:

1. هبوط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض:

- شاء الله أن تنتهي أحداث قصة آدم في الجنة بعدما تاب وأناب وتاب الله عليه واجتباه واصطفاه، وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء، وعدوّه إبليس، وقد جاء ذكر الهبوط في آيات عديدة وهي: - قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36].
- وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:24،25].
- وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه:123].

2. قصة ابني النبي آدم عليه السلام:

ومما قصه علينا ربنا تبارك وتعالى بعد هبوط آدم وحواء إلى الأرض؛ قصة ابني آدم والجريمة الأولى التي وقعت على الأرض، وهذه الواقعة لم يشهدها من البشر أحد سوى آدم وزوجته وأولاده، ولولا أنّ القرآن الكريم قد سجلها بهذا التفصيل الدقيق الذي يمكن من استخلاص العبرة منها، ما علم بها أحد من البشر بعد، وما كان أمام العلماء والمؤرخين من وسيلة للوصول إلى معرفة شيء من تلك الواقعة التي طواها الزمن في أستاره[43].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ

(43) من آيات الإعجاز الإنبائيّ والتاريخي في القرآن الكريم، زغلول النجار، مصدر سابق، 125/1.

لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝﴾[المائدة:27 -31].

إن قصة ابني آدم التي جاءت في القرآن الكريم هي قصة الإنسان في ارتفاعه وانحطاطه، وفي طاعته ومعصيته وفي سعادته وشقائه، وفي سموّه وسقوطه، هي قصة البشر ولقد جعلها الله عز وجل درساً بليغاً لهذا الإنسان لكي يتعظ بها ويستفيد منها في حياته ويستخرج منها الدروس والعبر.

3. وفاة آدم عليه السلام:

عاش آدم عليه السلام وفياً للرسالة الربانية، ووفياً للخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، وعاملاً على حقن الدم ومنع الفساد والوفاء لتعاليم الله عز وجل، واقترب الرحيل من الحياة الدنيا، وحان وقت الأجل والمغادرة، والموت هو نهاية المطاف لجميع الخلق في الدنيا وهذه سنة الله في خلقه، فالموت مقدّر في اللوح المحفوظ منذ خُلق الإنسان فإذا جاءت ساعة الإنسان جاءته المنية ولو كان في بروج مشيدة، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:78]، فحينما يأتي الأجل لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:34].

ولقد عاش آدم على مرحلتين:

المرحلة الأولى: عاشها في الجنة ولا نعرف مقدار سنواتها.

المرحلة الثانية: عاشها على الأرض ولا يمكن الجزم في معرفة سنواتها أيضاً[44].

واختلف في مواضع دفنه عليه السلام على عدة منها:

– دفن على جبل سرنديب بالهند، ذلك الجبل الذي أهبط إليه يقال له جبل نوذ وهذا الرأي مروي عن أبي صالح عن ابن عباس، وقال به الثعلبي.

– أنه توفي في مكة، وذلك عندما كان في الحج في تلك السنة فدفن في جبل أبي قبيس في غار يقال له الكنز، وهذا الرأي مروي عن مقاتل.

هذا ما وصلت إليه بعد سير وبحث في قصة آدم عليه السلام والفضل لله وحده وهو ولي التوفيق فمنه العون والسداد.

---

(44) قصص القرآن، صلاح الخالدي، مصدر سابق، 144/1.

الخلاصة: دروس وعِبر:

عاش آدم عليه السـلام وفياً للرسـالة الربانية، ووفياً للخلافة في الأرض بالبناء والإعمار، وعاملاً على حقن الدم ومنع الفساد والوفاء لتعاليم الله عز وجل

إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان؛ لأنها كانت بداية الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسـفة معينة لبدء الخليقة، وجاء كلامنا على قصة خلق آدم عليه السلام والخليقة معتمداً على كتاب الله عز وجل ومستنداً إلى المصدر الكوني الأول والأصدق كتاب الله العزيز.

إنّ أهم ما يمكن أن نجمل به دعوة آدم عليه السـلام هو التأكيد على أن لفظ آدم يختزل لغة ومضـموناً الإنسـانية كلها، وبالتالي فهو متعال على الزمان والمكان، بل يربطها جميعاً ويشدها إليه كأصل واحد ينبغي ألا يتنازل عنه في تأسيس العلاقات وبناء الحضارات [45].

وفي خاتمة حديثنا عن قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام ونشأة الحضارة الإنسانية الأولى وذكر بعض الإضاءات حول قصة الخليفة الأول آدم عليه السلام في سياق التفسير القرآني، ونظراً لأهمية تلك المرحلة التأسيسية ومكانتها العظيمة لدى المخلوقين كلّهم بمختلف ألوانهم وأطيافهم وألسنتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم يمكننا أن نلخص أهم الأفكار العلمية حول تلك القصـة الإنبائية والإعجازية العجيبة في بدء خلق المخلوقات وميلاد الحضارة الإنسانية الأولى، والتي استندتُ من بدايتها

(45) المرجع نفسه، ص 55.

إلى نهايتها على كتاب الله العزيز الحكيم الذي "لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ".

1. أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ "لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله"، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عزّ وجلّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بالرسالةِ.

2. تضمن الكتاب أدلة إثبات وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى. والتي ذكرنا منها: دليل الخلق، ودليل الفطرة والعهد، ودليل الآفاق، ودليل الأنفس، ودليل الهداية، ودليل انتظام الكون وعدم فساده.

3. الناس في كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ولذلك فقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية.

4. لا يوجد إجماع واتفاق على أي المخلوقات قد خلق أولاً؟ والذي رجحناه أنه العرش.

5. الزمان، والسماء، والأرض، والجبال من مخلوقات الله العظيمة، ومن الآيات التي يتكرر ذكرها كثيراً في كتابه عظة وتذكيراً للناس بعظمة الخالق العظيم.

6. إن أول ورود لقصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم هو في سورة البقرة في الآيات (30-39)، وقد أخبر سبحانه وتعالى في هذه السورة ملائكته بأنه سيجعل خليفة في الأرض، والخليفة هو العامر لها، ويخلفه من ذريته خلفاء يتتابعون تناسلاً جيلاً من بعد جيل إلى ما شاء.

7. اختلف العلماء في سبب تسمية آدم عليه السلام بهذا الاسم، فمنهم من قال بأنه سمي بآدم لأنه خلق من أدمة الأرض، ومنهم من قال لأنه مشتق من

الســمرة من لونه، ومنهم من قال بأنه سمي بآدم لكونه من عناصــر مختلفة وقوى متفرقة، وأما الفريق الرابع فقالوا بأنه سمّي بذلك لما طُيّب به من الروح المنفوخة فيه.

8. أول تعليم علّمه الله تعالى لآدم عليه السلام هو الكلام والتعبير.

9. إن العبرة المستخلصة من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود وامتناع إبليس عن تنفيذ الأمر، هي أن الإيمان ليس معرفة وحســب؛ ذلك أن إبليس كان يعرف أن الله موجود، وإنما الإيمان خشــوع واســتجابة، وقول وعمل واعتقاد، إنه ســجود، فإذا لم يتأتَّ السجود فلا إيمان.

10. لا خلاف بين أهل العلم أن آدم عليه السلام أفضل من الجن والشياطين، ولم يتبقَّ من المكلفين إلا الملائكة، وقد اختُلف في الأنبياء والملائكة أيهما أفضل، فقد استُدل بسجود الملائكة لآدم على أن الأنبياء أفضل من الملائكة.

11. لم ينهَ الله آدم وحواء عن مجرد الأكل من ثمار تلك الشـــجرة المحرّمة، إنما نهاهما عما هو أبلغ؛ وهو الاقتراب منها وهذا هو المســـمَّى في الإســـلام بســـد الذرائع؛ أي تحريم كل طريق توصل إلى الحرام.

12. لقد ساوى النص القرآني بين آدم وحواء عليهما السلام في المسؤولية بشكل واضـح وصـريح، فالوسـوسـة التي كانت من إبليس كانت للاثنين آدم وحواء وأن المعصــــية وقعت منهما بالتســـاوي، والاثنان نُهيا عن الاقتراب أو الأكل من الشجرة، والاثنان أزلهما الشيطان عنها، وكلاهما ظلما أنفسهما، وتابا إلى الله.

13. إنَّ هبوط آدم إلى الأرض هو المقصود من خلقه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾.

14. لا وجه للمقارنة بين معصـية آدم عليه السـلام ومعصـية إبليس، فمعصـية

إبليس كانت عن إصرار وتعمد، وهذا بخلاف معصية آدم التي كانت عن سهو وغفلة ونسيان.

15. شاء الله أن تنتهي أحداث قصة أدم بعدما تاب وأناب، وتاب الله عليه واصطفاه واجتباه وأمر الله بإهباط الثلاثة إلى الأرض: آدم وزوجه حواء وعدوّه إبليس.

16. وردت قصة آدم عليه السلام في سورة البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص.

17. الروح في ماهيتها وجوهرها من عالم الغيب الذي استأثر الله به، وهذا لا يمنع البحث في تأثيراتها وأنواعها وصلتها بالجسد وعلاقتها بالنفس.

18. إن عناية الله بأمرِ آدم عليه السلام، تشير بأن له شأناً عظيماً عند الله جل في علاه، ووزناً في نظام هذا الوجود.

19. تحدث القرآن الكريم عن زواج آدم عليه السلام في ثلاث مواضع، وفي ثلاث سور، وهي: في سورة البقرة، وفي سورة طه، وفي سورة الأعراف.

20. التزيين والإغواء هما ركنا الخطة الإبليسية، وكل من يسير على خطة إبليس هو من جنده، وقد استخدم الشيطان أساليب عديدة لإغواء بني الإنسان وهي أساليب تدل على المكر والدهاء وإجادة الأدوار.

21. إن أفضل ما يعطي التصور الحقيقي والعلم اليقيني عن نشأة الإنسان وبداية خلقه وعلاقته بالكون والمخلوقات والخالق العظيم (الله عز وجل) هو القرآن الكريم وما ثبت من الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

22. العناد والضلال يوردان المرء الموارد الوبيلة ويسوقانه سوقاً إلى التردي في مهاوي الهالكين، وهذا ما حصل لإبليس حين عاند ورد أمر الله وافتخر وتكبّر

بأصله وامتنع عن السجود.

23. كان آدم عليه السلام قدوة لبنيه في توحيد الله، وإفراده بالعبادة وعمارة الأرض، وساهم ذلك على الاستفادة من رصيد الفطرة لأولاده في عبادة الله وعمارة الأرض.

24. رتب آدم عليه السلام قبل رحيله، أمر خلافته وعهد إلى أحد أبنائه من بعده بعد ما علّمه المواقيت والعبادات وبعض الأخبار والمعلومات الضرورية ومهارات القيادة لاستمرار الحضارة الإنسانية الأولى.

25. إن لقصة آدم عليه السلام أهمية خاصة في الأديان لأنها كانت بداية الخليقة، فما من دين أو مذهب أو معتقد إلا وله عقيدة أو فلسفة معينة لبدء الخليقة، فجاء هذا الكتاب مفصلاً لبدء الخليقة معتمداً على كتاب الله عز وجل ومستنداً إلى كتابه العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

26. إن الله تعالى جعل حواء مشاركة لآدم، فأصل الإنسانية "آدم وحواء، رجل وامرأة" خلقهما الله من نفس واحدة، فهي ليست مخلوقة هامشية لا دور لها في الحياة وإنما هي مثله تحمل نصيبها من تبعة التكليف ومسؤولية العمل والعبادة.

27. عاش آدم مئات السنين على الأرض وشاهد الأولاد والأحفاد ومن بعدهم خلّد الله آدم بذريته ولدى كل الشعوب.

28. إن آدم عليه السلام كان نبياً يعبد الله وحده، وعلم أبناءه التوحيد، فقد سئل النبي صل الله عليه وسلم عن آدم: "أنبيٌّ هو قال: نعم نبي مكلمّ خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه".

29. نجح آدم عليه السلام وزوجه وأولاده في تحقيق العبودية لله وعمارة الأرض

والعمل بمقومات الاستخلاف فيها، ومن الوسائل التي استخدمها آدم وبنوه في عمارة الأرض والتي هي رحمة لله بعباده من أهمها: العقل، والفطرة، والحواس، والمنهج الرباني، والاستخلاف في الأرض.

30. الحضـارة الربانية التي قادها الأنبياء والمرسلون منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، فإنها تنظر إلى العلم باعتباره يشمل على جميع المعارف الإنسانية، سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات، أو الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطب، أو النقل والسماع كاللغة، أو الوحي والنقل كعلوم الدين.

الفصل الثاني:

نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم ...

ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية

تمهيد

حينما انحرفت الإنسانية في عقيدتها، شاءت رحمة الله أن يرسل نوحاً عليه السلام مبشراً بالحق في مجال العقيدة، وبالخير في مجال الأخلاق، وبالعدل في مجال التشريع.

فبعث الله سيدنا نوحاً حينما عمّ الفساد؛ ليبشّر بالحق والخير والعدل، وبدأ سيدنا نوح عليه السلام بالتوحيد: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 59).

وهذا الذي قاله سيدنا نوح لقومه هو التبشير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعاً، والله سبحانه وتعالى يؤكد لسيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلاً:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25) . والتوحيد هو ما نعبر عنه في الإسلام بـ "أشهد أن لا إله إلا الله"، وهو العلامة الأصلية والطابع الحقيقي والجوهر الثابت لكل دين سماوي صادق [46]. إن عبادة الأوثان لم تتسرب إلى عقائد البشر بين عشية وضحاها، بل استغرقت شوطاً من الزمن منذ الانحراف الأول، وكان للطبيعة المادية وتسلط الشيطان على الإنسان أثر في تنمية هذا الأمر واتساعه، ولا يظن أحد أن تطور البشرية في العلوم وتقدمها في الميدان الحضاري لن يعيد الإنسانية إلى مرحلة الوثنية تلك، فإننا ما زلنا نرى صوراً مختلفة في الوثنية الحديثة التي تذكرنا بالجاهلية الأولى.

---

(46) عبد الحليم محمود، قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرُّسل، ص 67.

إنَّ نوحاً عليه السلام جاء في نهاية الحضارة الإنسانية الأولى، والتي بدأت من آدم عليه السلام، ثم انحرفت عن التوحيد وإفراد العبادة للخالق العظيم، وتطورت الحياة الإنسانية على وجه الأرض في قضاياها المادية، وضعفت وأخطأت السبيل في قيمها الروحية ومعرفتها بخالقها العظيم، فأرسل الله عز وجل نوحاً عليه السلام، فأقام على الكافرين والظالمين والفاسقين والمعاندين الحجة، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم، وآمن معه القليل الذين أنشأ بهم حضارة السلام والبركات بعد الطوفان.

إنَّ المتأمل لقصة نوح عليه السلام ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي في قيامه لأداء مهمة التبليغ لقومه ودعوته إليهم لعبادة الله تعالى وحده حيث مكث عليه السلام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانيةً، وكانت دعوة نوح عليه السلام التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك الشرك الذي هم فيه من عبادة الأصنام.

المبحث الأول: ما قبل نوح عليه السلام:

نطوي الزمان في وثبة هائلة لا ندري مداها، فنصـــل إلى ما قبل ســـيدنا نوح عليه السلام، إلى مجيء أبينا آدم عليه السلام.

ونسـأل عن الزمن ما بين آدم ونوح عليهما السـلام، وهل كان الناس على التوحيد؟ وهل بين آدم ونوح رسول؟ ومتى بدأ الشرك بين بني البشر؟

ومما لا شـــك فيه أن الله بعث آدم عليه الســـلام وهو على عقيدة ســـليمة من عالم الألوهية، وعالم الجنة، وعالم الملائكة، وكان مزوَّداً بالمبادئ الأخلاقية الصـــالحة، وبثَّ آدم ذلك في أبنائه، واستجاب له من هداه الله، وشذَّ عنه من أغواه الشيطان (47).

أولاً: المُدَّة بين آدم ونوح عليهما السلام:

رُوي عن جماعة من السلف أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على ملة الحق، وأن الكفر بالله إنما حدث في القرن الذي بعث فيه نوح عليه الســـــلام، وقالوا: إن أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام (48).

ثانياً: ليس بين آدم ونوح رسول:

ليس بين آدم ونوح رسول وقد أدخل بينهما إدريس عليه السلام، كما فعله كثير من المؤرخين، وهذا لا دليل يعتمد عليه في صـــــحته، بل إنَّ هناك جملة من الأدلة تدل على أنَّ نوحاً عليه السلام هو أول الرسل بعد آدم عليه السلام، ومن تلك الأدلة:

---

(47) قصـص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسـل، عبد الحليم محمود، دار الرشـاد للنشـر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2010م، ص 63.

(48) تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، الطبري، مصر، الطبعة الثانية، 1387هـ – 1967م، 65/1.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (الحديد: 26).

ثالثاً: الأصل في الإنسان التوحيد:

إنّ الأصل في الإنسان التوحيد، والشرك طارئ عليه، ويستدل عليه من عدة وجوه:

1. إنَّ الإنسان الأول هو آدم عليه السلام كان نبياً يعبد الله وحده لا يشرك به، وعلم أبناءه التوحيد، حيث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن آدم: أنبي هو؟ قال: "نعم، نبي مكلَّم خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه"[49].

2. بين الله سبحانه أن البشرية كانت في أول أمرها على التوحيد، كما جاء بيان ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم.

3. أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أنَّ الفطرة التي فُطرت عليها البشرية كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص[50]. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:30).

رابعاً: أول شرك وقع في بني آدم:

أول شركٍ وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السلام وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة المشهور، حيث ورد فيه: "يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض"[51]، وكما جاءت الآية التي تكلمت عن الرسل بتصديره، مثل قوله تعالى: ﴿لَمْ

---

(49) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 2008م، 265/5- 266، إسناده صحيح.

(50) الشرك في القديم والحديث، أبو بكر محمد زكريا، 183/1.

(51) صحيح البخاري، رقم 3340.

يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (التوبة: 70).

المبحث الثاني: دعوة نوح عليه السلام:

إنَّ دعوة الأنبياء والرسل – عليهم السلام – هي دعوة واحدة في أصولها على مرّ الزمان والمكان، الكل منهم كان يبذل غاية جهده، وأقصى طاقاته لربط الناس بخالقهم، وتوجيههم الوجهة الصحيحة[52].

– قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (النحل: 36).

– قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25).

– في سياق القصص القرآني: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: 59).

---

(52) منهج الدعوة إلى الله في سورة نوح، أحمد سليمان الرقب، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2010م، ص 116.

فالآيات الكريمة المذكورة وغيرها تترى، كان يفتتح بها النبي أو الرســـول رســـالته إلى قومه بكل وسيلة يؤكد على توحيد الله عز وجل، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وحاكميته وعبادته، وتقواه وطاعة رسله.

أولاً: توحيد الله في رسالة نوح عليه السلام:

بعث الله سـيدنا نوحاً حينما عمّ الفسـاد؛ ليبشّـر بالحق والخير والعدل، وبدأ سـيدنا نوح عليه الســـلام بالتوحيد: ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأعراف: 59).

وهذا الذي قاله ســـيدنا نوح لقومه هو التبشـــير بالتوحيد، والتوحيد هو جوهر الرسـالات السـماوية جميعاً، والله سـبحانه وتعالى يؤكد لسـيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلاً:﴿ وَمَا أَرْسَـــلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـــولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25).

ثانياً: قيام نوح عليه السلام بدعوة قومه إلى عبودية الله تعالى وتحقيق العبودية في نفسه:

إنَّ المتأمل لقصـة نوح عليه السـلام ودعوته لقومه يرى عظم هذا النبي في قيامه لأداء مهمة التبليغ لقومه ودعوته إليهم لعبادة الله تعالى وحده حيث مكث عليه الســـلام فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانيةً، وكانت دعوة نوح عليه الســـلام التي دعا قومه إليها هي دعوة التوحيد الخالص، وتحقيق عبودية الله تعالى، وترك الشرك الذي هم فيه من عبادة الأصنام [53].

(53) عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، مكتبة الضياء جدة، الطبعة الأولى، 1413 هـ، ص 168.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ 25 أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (هود: 25- 26).

ثالثاً: دعوة نوح عليه السلام قومه إلى تقوى الله عز وجل:

اهتَّم نوح – عليه السلام – بدعوة قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ وإفراد العبودية لله عز وجل والحث على تقواه، لأن تقوى الله عز وجل هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج، وعدم التفلّت عنه هنا أو هناك، وعدم الاحتيال عليه أو الالتواء في تنفيذه، كما أنها هي مبعث الخُلُق الفاضل المنظور فيه إلى الله، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة (54). قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: 23).

---

(54) في ظلال القرآن، السيد قطب، المرجع السابق، 6/ 3711.

المبحث الثالث: مواقف قوم نوح (عليه السلام) من دعوته، وموقفه تجاههم:

المبحث الرابع: سفينة نوح والطوفان العظيم:

أولاً: أوحى الله لنوح بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وأمره ببناء الفلك:

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ (هود: 36- 39).

يتضمن هذا البيان لنوح – عليه السلام – الإشارة إلى الحكم عليهم بالإهلاك الشامل، فالتيئيس من إيمان منهم يدل على أن الحكمة تقضي بعدم الإمهال، إذ الغاية الابتلائية قد استنفدت كل ما يلزم لها، وصار إبقاؤهم في الحياة خالياً من الحكمة فالعقاب الشامل لهم صار هو الأمر الحكيم، كما صارت متابعة دعوتهم غير مجدية [72].

(72) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، الميداني، المرجع السابق، ص 107.

ثانياً: ركوب سفينة النجاة:

قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾:

"جاء أمرنا": وقع وحلّ أوان أمرنا، أي بنهاية مهلة الكافرين، وبدء أخرى بعد انتهاء تلك اللحظة بدء عذابهم، وأضـــاف "أمر" إلى نون العظمة لتفخيمه، أي الأمر وتعظيمه فكل ما أضـــيف إلى التعظيم عظيم، فكيف إذا عبّر عن ذاته العليّة بنون العظمة؟ [73] "قلنا احمل فيها": قلنا بنون العظمة أيضـــاً ولا ريب أن الحادثة جلل ضخم عظيم مناسب نون العظمة [74].

" وما آمن مع إلا قليل"؛ هذا خبر مُوجّه لنا، جاء معترضاً ضمن حكاية قصة نوح عليه الســـلام وقومه، لإفادتنا أمراً يهم الدعاة وينفعهم، ويفيد الباحثين في الظواهر الاجتماعية، ويفيد مستبصري حكمة الله في عقوباته العامة.

ثالثاً: طريقة إغراق الأرض بالماء وحدوث الطوفان:

عرض الله عزَّ وجلّ في سورة القمر مشهد التنكيل والتعذيب والطوفان العظيم، الذي أصاب قوم نوح، وكيف أن أبواب السماء فتحت، وكأن الماء يصب منها صباً على خلاف المعهود من نزول المطر، وكيف تحولت الأرض كلّها إلى عيون تتفجّر منها المياه بشكل عنيف وقوي، ولك أن تتصّور من خلال الآيات الكريمة إلى الحد الذي وصلت المياه إليه من الارتفاع [75].

---

(73) تفسير سورة هود، د. أحمد نوفل ص 153.

(74) تفسير سورة هود، د. أحمد نوفل، ص 154.

(75) قصة نوح عليه السلام، د. عمر إيمان أبو بكر، ص 70.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (القمر: 9- 16).

رابعاً: حوار نوح مع ابنه في وسط الأهوال الكونية والنفسية:

قال تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ* قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ (هود: 42- 43).

تدلّنا "وهي تجري بهم في موج كالجبال" على أنها مسيّرة بقدرة الله عز وجل، ولذلك فإن هذه الأمواج التي وصفها الله أنها في علوّها وضخامتها كالجبال، هذه الأمواج التي لا بد أن تغرق أضخم السفن وأقواها لم تفعل شيئاً لسفينة نوح، فلم تضربها بقوة، أو تقلبها أو تضرها على أي شكل من الأشكال. -"ونادى نوح ابنه": وفي هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح، فإذا أحد أبنائه في معزل عنهم وليس معهم، وتستيقظ في كيانه الأبوة الملهوفة، ويروح يهتف بالولد الشارد[76]. يا بني": وفي نداء نوح عليه السلام لابنه بكلمة »يا بني" فيه تحنّن ورأفة ورحمة وتحبّب وتلطّف وتودّد وتقرّب لو كان هذا يجدي. ولاحظ الادغام في الباء والميم في "اركب معنا.." أي تفضل بنا واركب في سفينة النجاة مع الناجين من المؤمنين. ولكن البنوة العاقة لا

(76) في ظلال القرآن، السيد قطب، المرجع السابق، (1878/4).

تحفل بالأبوة الملهوفة، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل(77). ويجيب الابن من معزله البعيد غير مبالٍ يتأثر الوالد وشفقته: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء! يجيب الأب: لا عاصم اليوم من أمر الله بالطوفان العام الشامل، إلا من رحمه الله فجعل له السفينة وسيلة النجاة الوحيدة، فلم يجب ما دعاه إليه أبوه، ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾.

خامساً: الأمر الرباني بنهاية الطوفان:

في غمرة الأحداث التي تصورها الآيات القرآنية، وبين صخب الأمواج التي تنحسر وتمتد في بحر هي الأرض كلها ينطوي هذا المشهد فجأة لنرى من ورائه مباشرة عودة الهدوء إلى الدنيا، ورجوع كل شيء إلى نظامه السابق، فقد هدأت الزمجرة، وسكنت العاصفة، وولدت الدنيا كما كانت من جديد، وتعال فلنتأمل في اللوحة الإلهية التي رسمت هذا المشهد (78).

قال تعالى:﴿ وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: 44).

إنّ هذه الجمل القرآنية العجيبة تصور لك معنى الإرادة الإلهية وسلطانها الرهيب المنبسط على الكون كله، بل القابض عليه كله، تتصرف به كما تشاء في سمائه وأرضه وبحاره وجباله وفي كل شيء ليس في حسابها أي معنى لكبير وصغير أو لعظيم وحقير، ألا ترى كيف علّقت الآية رجوع كل شيء إلى ما كان عليه بعد أن التقت

---

(77) في ظلال القرآن، السيد قطب، المرجع السابق، (1878/4).

(78) من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص 274.

مياه السماء والأرض على طوفان هائل مخيف، على كلمة صغيرة: "وقيل" لتصور لك سهولة الأمر، وأنه لا يحتاج إلا لهذا الأمر الإلهي الذي به قيام الدنيا وزوالها.

سادساً: سؤال نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه وطلبه المغفرة والرحمة من الله عز وجل:

إنَّ رحلة النجاة في بحر لُجِّيّ ضمن أمواج كالجبال، وأمطار تصب صباً كالجداول، إذ فتحت لها السماء أبوابها، قد أنست نوحاً حال ابنه فحال الموج بينهما[79].

لقد صرفته عنه أهوال الرحلة المخيفة القاسية، فلما حطت السفينة على الجودي مستوية الاستقرار، وذهب الروع والقلق الصارف للأفكار، ولم يبق غلا الانشغال بأحداث الوضع القائم، عندئذ تواردت على نوح ذكريات أرضه وبلده وقومه وذكر ابنه الذي لم يدرِ ماذا حصل له، فتفجرت عاطفة الأبوة التي فطرها الله عز وجل في قلوب الآباء[80]. قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود: 45، 46، 47).

---

(79) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، الميداني، المرجع السابق، ص 129.

(80) نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، الميداني، المرجع السابق ، ص 130.

سابعاً: أسباب زوال الحضارة الإنسانية الأولى:

إن من أسباب زوال ونهاية الحضارة الإنسانية الأولى عوامل عديدة من أهمها:

1. الكفر بالله عز وجل:
2. الشرك بالله:
3. الظلم
4. تكذيب الرسول الكريم نوح عليه السلام:
5. إيذاء نوح عليه السلام بأنواع الإيذاء، ودعاؤه عليهم:
6. استعجال العذاب
7. الجدال بالباطل
8. الترف
9. الاستكبار
10. المكر
11. الخطايا والذنوب الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة:

وكل ذلك وزيادة عليه ذكرته مفصلاً بأدلته في كتابي الأصل: "نوح عليه السلام والطوفان العظيم"، فيمكن الرجوع إليه لمن أراد التوسع.

المبحث الخامس: ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية:

أولاً: صفات نوح عليه السلام في تأسيس الحضارة الإنسانية الثانية:

كان نوح – عليه السلام – من أولي العزم من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ودعوا إلى ذلك وآمن بعض الناس برسالته، وربى الناس على أخلاق وصفات حميدة كانت متجسدة في شخصه الكريم، وفاضت على من حوله من أتباعه، فقد كان كثير الشكر لربِّه ومخلصاً له، وطارقاً لأبوابه بالدعاء والتضرع بين يديه، وشديد الخوف من الجليل، ومتوكلاً على العزيز الرحيم، تائباً إلى الله وطالباً للمغفرة منه، صابراً على تكاليف الدعوة، صادقاً في دعوته، شجاعاً لا يخاف إلا الله، بارّاً بوالديه، وغير ذلك من الصفات والأخلاق الحميدة التي عاش بها في وسط الناس ودعا إليها وعلمها لمن استجاب لدعوته، وعمل على غرس تلك الصفات النبيلة في قلوب أتباعه قبل الطوفان وبعده، وأسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي للحضارة الإنسانية الثانية، ونذكر أهم تلك الصفات والأخلاق:

1. الإخلاص.
2. الصبر.
3. التقوى.
4. مستغفر وتواب.
5. الدعاء.
6. العبودية.
7. العفة.
8. الأمانة.

9. الثبات.

10. بر الوالدين.

ثانياً: فقه نوح عليه السلام في التعامل مع السنن الربانية:

إنَّ قيادة الحضـــارات وتربية الناس والنهوض بها، يخضـــع لقوانين وســـنن ونواميس، تتحكم في مســـيرة الأفراد والمجتمعات والشـــعوب والأمم، وعند التأمل في ســـيرة نوح عليه الســـلام نراه قد تعامل مع الســـنن والقوانين بحكمة وقدرة فائقة وتوفيق من الله عظيم.

إنَّ السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون، وعلى الإنسان في كل زمان ومكان وهي كثيرة جداً.

إنَّ المتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن ســـــنن الله تعالى، التي لا تتبـدل ولا تتغير، ويجـد عنـايـة ملحوظـة بإبراز تلـك الســـــنن وتوجيـه النظر إليهـا واستخراج العبر منها، والعمل بمقتضياتها، لتكوين المجتمع السعيد المستقيم على أمر الله.

وحينما يوجِّه القرآن الكريم أنظار الناس إلى ســـــنن الله تعالى في الأرض وفي حركة التاريخ وسـير المرسـلين، فهو بذلك يردهم إلى الأصـول التي تجري وفقها، فالنواميس التي تحكم الكون والشـــعوب والأمم والدول والأفراد، جارية لا تتخلف والأمور لا تمضـــي جزافاً، والأمور لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المســـلمون هذه الســـنن وأدركوا مغازيها، تكشـــفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينـت لهم الأهـداف من وراء الوقـائع، واطمـأنوا إلى ثبـات النظـام الـذي تتبعـه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة من وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير

على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين؛ لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه، والسنن التي تحكم الحياة واحدة، فما وقع منها في زمان مضى، سيقع في كل زمان[81].

إنَّ أول شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية، والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم، هو أن نفهم بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السنن، وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ "فقه السنن"، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية.

إنَّ حركة نوح – عليه السلام – نحو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والحثِّ على تقواه، وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، والتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته:

- أهمية القيادة في صناعة الحضارة.
- أهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافتها.
- أهمية الوحي الذي يبيّن المنهج الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات.
- أهمية سنة التدرج وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن المهمة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

---

(81) السيد قطب، في ظلال القرآن، المرجع السابق، (478/1).

وقد اتّضح في سيرة نوح – عليه السلام – منطلق هذه السنة بما أن الطريق طويل، فقد سار باتزان وتريُثٍ وصبرٍ عظيم، وأوغل فيها برفق نحو الأهداف المرسومة، من ترفق بالناس واختيار المؤمنين بدعوته، ومقاومة خصومه، ثم مرحلة النصر والتمكين بعد الطوفان العظيم.

لقد تعامل نوح – عليه السلام – مع سنة التدرج بحكمة وذكاء وبُعْد نظر، ورعى هذه السنة في سياسة الناس وتربية الجيل المؤمن، الذي حمل عبء الحضارة الإنسانية الثانية في منطلقاتها الروحية والعقلية والمنطقية والوجدانية.

ثالثاً: الأسس التي قامت عليها الحضارة الإنسانية الثانية:

يعتمد مفهوم الحضارة الإنسانية الثانية على تحليل عميق للقصص القرآني، واستنباط فهم حقيقي لمفهوم الحضارة، ويعتمد على الازدهار الإنساني بخصائصه الفكرية والروحية والوجدانية والسلوكية؛ تحقيقاً لعبودية الله في الأرض وعمارتها وفق مراد الله عزَّ وجل على مستوى الأفراد والشعوب والأمة.

وأفضل من رسم فقه الحضارة الربانية لمسيرة الإنسانية على مرِّ تاريخها الطويل، هم الأنبياء والمرسلين، وبالتالي هم قادة حضارات إنسانية عظيمة أصلت لمفهوم التوحيد والعبادة والقيم والعمارة والاستخلاف والارتقاء السياسي والاجتماعي والاقتصادي والروحي والنفسي والعمراني والمادي المنبعثة؛ قيم مستمدة من الوحي الرباني وجمعت بين جانبَي:

- مظاهر الرقي المادي الذي يشمل جوانب الحياة من صناعة وتجارة وزراعة وفنون.
- مظاهر الرقي المعنوي الذي يتصل بالقيم الروحية والقواعد الأخلاقية والإنتاج الفكري والإبداع الأدبي الرفيع.

ولا تكون الحضـارة ذات طابع إنسـاني لدى الحضـاريين حتى تتصـف بالرقي المادي والمعنوي على حد سـواء؛ لأن الحضـارة تقاس بالتقدم العلمي والصـناعي أو الآلي والعمراني عندما تُعبر عن مقاصـد إنسـانية صـالحة، وتجسـد لمبادئ خلقية فاضـلة، وقمة هذا الفهم الحضـاري الإنسـاني الرفيع نجده في قيادة الأنبياء والمرسـلين للأمم والشعوب:

- كالحضارة الإنسانية الثانية التي قادها نوح عليه السلام.
- أو كالتي حدثت في عهد داود وسليمان عليهما السلام.

ومن أهم الخصائص التي قامت عليها الحضارة الإنسانية الثانية:

1. قامت على أسـاس الوحدانية المطلقة في العقيدة، فهي تنادي بالإله الواحد الذي لا شريك له، في حكمه وملكه.
2. وثاني خصائص الحضارة الإنسانية الثانية أنها: إنسانية النزعة والهدف، وتلبي احتياجات بني الإنسان الروحية والعقلية والمادية.
3. جعلت للمبادئ الأخلاقية مكانة رفيعة في كل نظمها، ومختلف ميادين نشاطاتها العلمية والتشريعية والاقتصادية والاسرية.
4. تؤمن بالعلم في أصـدق أصـولها، وترتكز على العقيدة في أصـفى مبادئها، فقد خاطبت العقل والقلب معاً، وأثارت العاطفة والفكر في وقت واحد.
5. قامت على حرية المعتقد، وعلى البينة والدليل والبرهان، وحرية الاختيار العقلي والفطري والمنطقي والوجداني.

الخلاصة: دروس وعِبر:

توفي نوح (عليه السلام) بعد أن دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، كما ذكر القرآن الكريم، ويروى أنَّ نوحاً عليه السلام بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيت له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر[82].

وفي نهاية هذا الفصل فإنني أدعو القارئ الكريم أن يقف على هذه المقاصد من قصة نوح عليه السلام:

1. الهدف الأول:

أن يشحذ عقله وفكره، "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"، فمن هدف القصص القرآني تفكر الناس واتعاظهم؛ لأنَّ الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمعون من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصالحين. والتفكير واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب والعقل والبصيرة.

قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج:45-46).

---

(82) عثمان الخميس، فبهداهم اقتده، المرجع السابق، ص 49.

2. الهدف الثاني:

الاعتبار بما جرى للسابقين، والاستفادة من ذلك ولا يعتبر بهذا إلا أولو الألباب والأبصار، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (يوسف:111).

وهذه الآية الأخيرة من سورة يوسف، وهي تعقيب على قصة يوسف في السورة وتبين الهدف من ذكر القصة، وهو ليس التسلية أو المتعة القصصية أو السرد التاريخي، وإنما هو العبرة والعظة.

ويكون الاعتبار بقصص القرآن لأولي الألباب، وهم أصحاب العقول الواعية، والبصائر المنيرة الذين يحسنون استخدام عقولهم وحواسهم، ويستفيدون من كل ما يشاهدون أو يسمعون أو يقرؤون ويطالعون، هؤلاء المتيقظون عندما يسمعون أو يقرؤون القصص القرآني وكلامه على الأمم السابقة يعتبرون، حيث يقيسون الأحداث الماضية على حياتهم وواقعهم فيستفيدون من ذلك، ويكون الجانب الإيجابي في القصص القرآني قدوة ودرساً لهم، يقتدون فيه بمواقف الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من الصالحين العاملين ويكون الجانب السلبي منه المتمثل في مواقف الكفار تحذيراً لهم، فيحذرون السير على طريق أولئك، لئلا يصيبهم ما أصابهم، لكن الغافلين اللاهين لا يعتبرون من القصص القرآني، ويمرون على آياته وهم معرضون؛ لأن عقولهم معطلة وبصائرهم مطموسة.

3. الهدف الثالث:

إنَّ الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب أصحابه وأتباعه وقلوب امته في أي زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله: ﴿

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود:120).

وهذه الآية من أواخر آيات سورة هود، جاءت تعقيباً على ذكر مجموعة من قصص الأنبياء في السورة، والقصص المذكورة في هذه السورة هي: قصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة إبراهيم، وقصة لوط، وقصة شعيب، وقصة موسى، عليهم الصلاة والسلام.

وبعد سرد القصص جاء ذكر الهدف من ذلك: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود:120)، فقصص الأنبياء في القرآن تثبيت لقلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس وحده على طريق الدعوة والرسالة، وإنما سبقه على هذه الطريق إخوة أنبياء كرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام وهو يواجه كما واجهوا، ويسمع كما سمعوا، ويؤذى كما أوذوا، فعليه أن يصبر كما صبروا، لينتصر كما انتصروا.

وإنَّ قصص الأنبياء يزيد يقين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه على حق، وأن أعداءه الكفار على باطل، وأنه سيظهر وسينتصر، وأن دينه سيعلو وينتشر وأن أعداءه سيهزمون ويخسرون، والقصص القرآني تثبيت لأفئدة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحق وزيادة مواجهتهم وتحديهم وجهادهم لأعدائهم.

ويحقق القصص القرآني – ومنها قصة نوح – هذا الهدف الرائع لكل من سار على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم في التربية، والدعوة وفي الإصلاح والجهاد والمواجهة، كل الدعاة والمصلحين وأبناء الأمة الغيورين تثبت أفئدتهم وقلوبهم على الحق عندما يقفون مع القصص القرآني ويتدبرونه ويفهمونه، ويقدم لهم هذا القصص

الزاد والعدة، ويقدم لهم المعرفة والفائدة ويمنحهم الوعي والبصيرة، ويشحذ هممهم ويرفع معنوياتهم ويسمو بنفوسهم ويصوب مسيرتهم وحركتهم.

ويمكن تلخيص النتائج التي وصلنا إليها فيما يلي:

1. إنّ أول نبي أرسله الله إلى قوم بالإنذار والدعاء إلى توحيده نوح عليه السلام.
2. ليس بين نوح وآدم رسول، وقد أدخل بينهما إدريس عليه السلام كما فعله كثير من المؤرخين، وهذا لا دليل يعتمد عليه في صحته.
3. إن الأصل في الإنسان هو التوحيد والشرك طارئ عليه وأول شرك وقع في بني آدم هو في قوم نوح عليه السلام، وهو أول الرسل كما في حديث الشفاعة المشهور، وهذه الأولية مقيدة بما بعد وقوع الشرك.
4. نوح عليه السلام مع كونه نبياً رسولاً، هو أيضاً من أولي العزم من الرسل، وهذه مرتبة عالية لا ينالها إلا قلة من المرسلين.
5. نوح عليه السلام الأب الثاني للبشر وهذا محل اتفاق بين العلماء من أهل الإسلام.
6. إن دعوة الأنبياء والمرسلين واحدة في أصولها على مرّ الزمان والمكان، والكل منهم كان يبذل غاية جهده وأقصى طاقاته لربط الناس بخالقهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة.
7. ورد اسم نوح عليه السلام في القرآن ثلاثاً وأربعين مرة.
8. سورة «نوح» كلها في الحديث عن قصته مع قومه، وسورة «هود» عرضت مشاهد ولقطات طويلة من قصته، وسورة «يونس» و«الشعراء» عرضت لقطات أقصر، بينما وردت الإشارة إلى القصة في سورة العنكبوت في آيتين اثنتين تضمنتا معلومة هامة لم ترد في السور الأخرى.

9. بيّن الدكتور طه وادي في كتابه «أولو العزم من الرسـل» أن: 94.54 % من الآيات في قصـة نوح عليه السـلام في العهد المكي، و 5.46 % من الآيات في قصة نوح عليه السلام في العهد المدني.

10. ذكر القرآن الكريم صفات قوم نوح عليه السلام والتي من أهمها: «كانوا قوماً عمين»، ظالمون، قوم سوء، الكفر، فاسقون، الكذب، الطغيان.

11. تحدث القرآن الكريم عن سـيرة قوم نوح عليه السـلام وأبرز أمراضـهم وآفاتهم وصـفاتهم، كما تحدث عن المعوقات التي منعتهم للاسـتجابة لدعوة التوحيد وإفراد العبادة لله عز وجل التي نادى بها نوح عليه السـلام، ومن أهم المعوقات التي ذكرها الله عز وجل: المعوق الأول: الكبر، المعوق الثاني: العناد، المعوق الثالث: التقليد الأعمى، المعوق الرابع: الوثنية، المعوق الخامس: الملأ، ومنن أعمال الملأ: المكر، الترف.

12. إن من أسـباب زوال ونهاية الحضـارة الإنسـانية الأولى عوامل عديدة من أهمها: الكفر بالله تعالى، الشـرك بالله، الظلم، تكذيب الرسـول الكريم «نوح عليه السلام»، إيذاء نوح عليه السلام بأنواع الإيذاء ودعاؤه عليهم، استعجال العذاب، الجدال بالباطل، الترف، البطر، الاسـتكبار، المكر، الخطايا والذنوب، الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة، سنة الاستبدال، سنة الأجل الجماعي، سنة الهلاك، سنة الخسران، الغفلة من أسباب الهلاك.

13. إنَّ النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسـامى عن مهاوي الشـرك وضـلال الوثنية، فهو في صـراحة تامة يذكر أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصرفوا إلى عبادة الأوثان.

14. بدأت الحضـارة الإنسـانية الثانية بنزول نوح عليه السلام من السفينة بعد نهاية الطوفان، وبدايتها وأبعادها الأممية يتضـح في قول الله تعالى: ﴿قِيلَ يَانُوحُ

اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هود: 48). فبدأت بالسلام والبركات.

15. إن حركة نوح عليه السلام نحو توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والحث على تقواه وعمارة الأرض على شريعة رب العالمين، اعتمدت بعد توفيق الله على تنظيم جهود الدعوة وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري، وتعامل مع فقه السنن وقوانين الحضارة، فظهر لنا من خلال سيرته وقصته: أهمية القيادة في صناعة الحضارة، وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في عمارة الأرض وخلافاتها، وأهمية الوحي الذي يبين المنهج الرباني في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات والقيم والتصورات، وأهمية سنة التدرج وهي من سنن الله في خلقه وكونه، وهي من السنن الهامة التي يجب على الأمة أن تراعيها وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله.

16. من خصائص الحضارة الإنسانية الثانية: الوحدانية المطلقة، الإنسانية، الأخلاق، العلم، الحرية.

17. عوامل نشوء الحضارة الإنسانية الثانية، عديدة منها: العامل العقدي، العامل الصناعي والاقتصادي، عامل البيئة، العامل الاجتماعي، العامل الأخلاقي، العامل السياسي، عامل الجمال.

18. استطاعت الحضارة الإنسانية الثانية أن تحقق: الإخاء والمحبة، التعاطف والتراحم، التساند والتعاون، التكافل والتضامن، التواصي والتناصح، التطهر والترقي، العدالة الإنصاف، التقدم العقلي والمنطقي والروحي والنفسي والمادي. وحققت الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية من أبرزها: العبادة لله، خلافة الله في الأرض، عمارة الأرض.

19. مقاصد قصة نوح عليه السلام كثيرة منها: أن يشحذ القارئ عقله وفكره قال تعالى: «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» فمن هدف القصص القرآني تفكر الناس واتعاظهم؛ لأن الأصل أن يفتحوا عقولهم وقلوبهم لما يسمع من حوادث القصص القرآني، وأن يعتبروا بما جرى للهالكين، وأن يقتدوا بالصالحين، والتفكير واجب قرآني وفريضة إسلامية، لا يجوز تعطيلها، ومن لم يتفكر ويتعظ بما جرى للسابقين فهو أعمى القلب العقل البصيرة.

20. إن الله أراد من إيراد القصص القرآني تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب أصحابه وأتباعه، وقلوباً آمنه في كل زمان ومكان، وجاء هذا في صريح قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: 120).

الفصل الثالث:

إبراهيمُ عليه السّلام داعية التوحيد ودينِ الإسلام والأسوةُ الحسنة

تمهيد

كان إبراهيم (عليه السلام) أحد الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من قومه، وهو من أولي العزم من الرسل – عليهم السلام- وتظهر مكانته وفَضله، من خلال ما وصفه الله تعالى به، وما ورد في السنّة؛ فهو العبد الذي أحسن، ووفّى، فكرَّمه الله تعالى تكريماً يليق بمكانته، فجعل التوحيد الخالص ملّته، وجعل من اتَّبع دينَه هم العقلاء، وهو إمام الناس وقدوتهم، كما أنّ الله اختصَّ النبوّة بذُرّيته؛ فالأنبياء جميعاً كانوا من نَسله، وآخرهم سيّد الخَلْق محمد صلّى الله عليه وسلّم، الذي يُمثّل استجابةَ الله لدعاء إبراهيم في أن يبعث في أمة العرب رسولاً من أنفسهم.

فإبراهيم عليه السّـــلام الأب الثّالث، أبُو الآباء، فإن أبانا الأول آدم، والأب الثاني نوح، وأهل الأرض كلهم من ذُرِيَّته، وهو عمود العالم، وإمام الحنفاء الَّذِي اتَّخذه الله سُـــبحـانـه وتَعـالى خليلًا، وجعـل النُّبوَّة والكتـاب في ذُرِيَّتـه: ﴿جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[الصافات:٧٧]، ذاك خَلِيل الرَّحْمَن وشَيخ الأنبياء جميعًا.

ونلاحظ أن قصةَ إبراهيم – عليه السّلام – هي أطول قصة قرآنية بعد قصة سيدنا موســى – عليه السّـــلام – ومســاحتها تزيد عن الجزء، وإن آياتها نزلت مبكرة في المرحلة المكيّة واســتمر نزولها حتى أواخر المرحلة المدنيّة، وهذا يعني أن قصـــة إبراهيم التي أخذت هذه المســـاحة الكبيرة في القرآن الكريم، وأخذت هذه الفترة الزمنية في نزول الوحي لها دور كبير في تحقيق أهداف القرآن الكريم ومقاصده [83].

---

(83) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م، ص15.

المبحث الأول: إبراهيم عليه السلام (أصله ونسبه ومكانته):

كان إبراهيم (عليه السلام) أحدَ الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من قومه، وهو من أولي العزم من الرسل – عليهم السلام–، ولذا لا بدَّ من أن نتحدثَ عن مولده ونسبه وأصوله.

أولاً: اسمّه ونسبه وكنيته ومولده:

"إبراهيم" كلمة سريانية تعني أب رحيم. وهو إبراهيم بن آزر، ولم يذكر القرآن الكريم أبعد من هذا النسب غيَّرَ أن المؤرخين المسلمين وغيرهم اعتمدوا على التوراة لمعرفة نسب خليل الله عليه السّلام، وقد وقع اختلاف بينهم في أسماء أجداده، كما وقع اختلاف كبير بينهم على المراد بـــ (آزر) المذكور في القرآن، لأن المشهور في كتب التاريخ أن اسم أبيه (تارح).

ولم يَذكر القرآن الكريم مكاناً لمولد إبراهيم – عليه السّلام – ولا تاريخ ولادته، ولا يوجد نص شرعي يحدد لنا على وجه الجزم والتعيين كل هذا، ولذا اختلف المؤرخون حول مكان مولده، واضطربت الروايات في تعيين توقيت الميلاد ومكانه على وجه التحديد، وأكثر المؤرخين من جعله ما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين قبل الميلاد دون تحديد لسنة الميلاد.

وكان إبراهيم – عليه السّلام – يُلقب بـــ "الخليل"، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:125].

ثانياً: إبراهيم الخليل .. عصره والحياة الدينية فيه وهجرته:

سبقت رسالة إبراهيم – عليه السّلام – عدة رسالات سماوية كرسالة نوح وهود وصالح وقبلهم آدم.

وكانت العقائد والعبادات التي كانت سائدة في فترة إبراهيم الخليل – عليه السّلام – كانت على النحو الآتي:

1. عبادة الكواكب والنجوم.
2. عبادة الأصنام.
3. عبادة الملوك.
4. تقديم القرابين والنذور.
5. بناء المعابد.
6. وجود الصابئة.

بدأ إبراهيم – عليه السّــــلام – دعوته في العراق مع أبيه أولاً، ثم مع قومه، ثم مع الملك الظالم الكافر بإحراقه في النار، ولكنّ الله أنجاه منها، وبعد ذلك أمره الله بالخروج والهجرة من العراق، فغادرها إلى الأرض المباركة المقدّســــة، وكان معه لوط عليه السّلام، أقام إبراهيم – عليه السّلام – في الأرض المباركة فلسطين، وكان معه زوجه المؤمنة سارة رضي الله عنها، وارتحل مع سارة إلى مصر، وهناك جرت لهما قصة مع ملك مصر، فأهداهما "هاجر" وقدمت سارة هاجر إلى إبراهيم، وتسرّى بها فأنجبت له أول أولاده إسماعيل – عليه السّــــلام – وأمره الله بأخذ هاجر وإسماعيل إلى بلاد الحجاز، فنفّذ أمر الله ووهبه الله بعد ذلك إسحاق – عليه السّلام – من زوجه سارة، بعد أن كان شيخاً، وكانت زوجه عاقراً وشبّ إسحاق في حياة إبراهيم، كما شبّ إسماعيل قبله(84).

---

(84) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق – الدار الشامية، بيروت، ط1، 1419هـ، 1998م، (313/1)

وهكذا يمكن إجمال رحلات إبراهيم – عليه السّلام – في ثلاث هجرات رئيسية هي:

- أولاً: خروجه من بابل إلى الشام ومروره بحرّان.
- ثانياً: رحلته من الشام إلى مصر ورجوعه إلى الشام.
- ثالثاً: زيارته لمكة المكرمة (85).

ثالثاً: إبراهيم عليه السّلام ومكانته بين الأنبياء والمرسلين:

عرضَ القرآن الكريم موكبَ الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين، ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض، كما يُلاحظ في مواضع أخرى؛ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ

---

(85) المرجع نفسه، ص50.

(89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾ [الأنعام:83-90].

1. أهمية قصة إبراهيم عليه السّلام في القرآن الكريم:

إنّ قصةَ إبراهيم – عليه السّلام – هي أطول قصة قرآنية بعد قصة سيدنا موسى – عليه السّلام – ومساحتها تزيد عن الجزء، وإن آياتها نزلت مبكرة في المرحلة المكيّة واستمر نزولها حتى أواخر المرحلة المدنيّة، وهذا يعني أن قصة إبراهيم التي أخذت هذه المساحة الكبيرة في القرآن الكريم، وأخذت هذه الفترة الزمنية في نزول الوحي لها دور كبير في تحقيق أهداف القرآن الكريم ومقاصده (86)، والتي نذكر منها:

أ. إبراهيم – عليه السّلام – مَثَلٌ أعلى للبشر.

ب. التوحيد الخالص.

ج. عمق العلاقة بين إبراهيم عليه السلام والمسلمين.

د. أهمية الحوار والهجرة في الدعوة إلى الله.

هـ. صلة المسلمين ببيت المقدس.

و. إثبات أن القرآن الكريم من عند الله.

ز. الاستفادة من سنن الله وحسن التعامل معها.

---

(86) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، عمان، 1992م، ص15.

2. الحكمة من توزيع مشاهد قصة إبراهيم عليه السّلام في أكثر من سورة:

جاءت مشاهد قصة إبراهيم – عليه السّلام – موزعة على عدد كبير من السور المكية والمدنية، وهذا التوزيع لم يأتِ عبثاً وإنما جاء عن حكمة وعن قصد، نذكر منها ثلاث حكم:

أ. كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم يصلح أن يكون قصة لوحده، ويعطي العبرة المناسبة له، ولهذا جاءت مشاهد قصة إبراهيم موزّعة في ثنايا القرآن الكريم بهذه الصورة، بينما نجد مشاهد قصة يوسف – عليه السّلام – مجموعة في سورة واحدة؛ لأن هذه المشاهد مترابطة ولا يمكن فصلها عن بعضها حفاظاً على الوحدة الموضوعية للسورة.

ب. كل مشهد من مشاهد قصة إبراهيم – عليه السّلام – جاء في مكان وزمان نزولها.

ج. تناثر مشاهد قصة إبراهيم في ثنايا القرآن الكريم، يشير إلى أن إبراهيم – عليه السّلام – رمزٌ من رموز دعوة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ومعلَمٌ من معالم الطريق الحقّ، فينبغي أن يبقى هذا الرمز الداعي إلى التوحيد وإلى عبادة الله ومحاربة الشرك والكفر حاضراً في الذهن لا ينساه المسلم أبداً.

3. مواضع ذكر إبراهيم عليه السّلام في القرآن الكريم:

تحدثت آيات القرآن الكريم عن سيرة إبراهيم الخليل – عليه السّلام — وحياته في أكثر من موضع وسورة، فهو إمام الناس ورسول الله ونبيه، فكان في سيرته كثير من الدروس والمعاني الإيمانية التي تدلّنا على طريق القويم المستقيم، وما هو الدين الحق عند ربّ العالمين؟

وقد ذكر إبراهيم عليه السلام في السور التالية من القرآن الكريم:

- سورة البقرة، في ثلاثة مواضع مختلفة.
- ســورة آل عمران، تحدثت عن حقيقة الانتســاب إليه وحقيقة الدين الذي كان عليه.
- سورة الأنعام.
- سورة هود.
- سورة إبراهيم.
- سورة الحجر.
- سورة مريم.
- سورة الأنبياء.
- سورة الحج.
- سورة الشعراء.
- سورة العنكبوت.
- سورة الصافات.
- سورة الذاريات.
- سورة الممتحنة.

كما ذكر في ســورة أخرى فيها إشــارات وومضــات من قصــة إبراهيم عليه الســلام، ومنها: سورة النساء، وسورة التوبة، وسورة النحل، وسورة الزخرف، وسورة الحديد.

وهناك سور اكتفت بذكر إبراهيم عليه السلام في سياق ذكر أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، أو في سياق الثناء على بعض مواقفهم، منها: سورة يوسف، والأحزاب، وص، والشورى، والنجم، والأعلى[87].

وقد ذُكر إبراهيم الخليل – عليه السّلام – في القرآن الكريم تسعاً وتسعين مرة في خمس وعشرين سورة، وثلاث وستين آية [88].

المبحث الثاني: قصة إبراهيم (عليه السلام) في القرآن الكريم:

يعرض هذا الفصل مرحلة دعوة إبراهيم إلى الله عزّ وجل، والإيمان به وحواراته مع أبيه وقومه، ومناظراته، وقوّة حجّته، وما تعرّض له من ابتلاء وهجرة ومحن، ويغلب على هذه الفترة عندما كان إبراهيم قد أتاه الله رشده ووصل إلى مرتبة اليقين وحرصه على هداية أبيه وقومه بأرض العراق.

أولاً: قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة الأنعام وحواره مع والده وقومه عن عبادة الكواكب والنجوم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ

---

(87) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (311/1).

(88) رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، (181/1).

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90)﴾ [الأنعام:74-90].

جاء في سورة الأنعام مشاهد من قصة إبراهيم – عليه السّلام – في مناظراته لعبدة الكواكب والقمر والشمس، وهي القصة الوحيدة في سورة الأنعام التي اهتمّت بردّ الشبهات وإقامة الحجج لإلزام المشركين، بل لإلزام أولئك الذين يجحدون الحق في شأن الألوهية والرسالة في كل زمان ومكان، ومن هنا فليس عجيباً أن لا يذكر في سورة الأنعام أي قصة من قصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام– ولكن الخبر الوحيد الذي ذكر في هذه السورة هو خبر إبراهيم عليه السّلام، وقد ذكرت هذه

القصة من الجهة التي يعالجها موضوع السورة، وهو إقامة البراهين على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإبطال كل ما يُعبد من دونه، هكذا جاءت قصة إبراهيم – عليه السّلام – في سورة الأنعام، وهي إقامة الحجة على أولئك الذين يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السّلام، ومع ذلك يعبدون الأصنام ويستهجنون أمر التوحيد، وهكذا بدأت قصة إبراهيم – عليه السّلام – فهو ينكر على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة، إن هذا لضلال مبين يتّبعه آزر وقومه(89).

مثّلت قصة إبراهيم الخليل – عليه السّلام – في سورة الأنعام أحداثاً متّسقة مع موضوع السورة الكريمة؛ وذلك لأن سورة الأنعام هي سورة الحجج والأدلة على العقيدة الصحيحة، وكما قلت من قبل، أنّها القصة الوحيدة في قصص الأنبياء التي ذكرت في هذه السورة، وفيها الحجّة الدّامغة على أولئك الذين انحرفوا عن ملّة إبراهيم – عليه السّلام – فجلبوا الأصنام للبيت الذي بناه.

إنَّ هذه الآيات الكريمة –كما حدثتنا عنها سورة الأنعام – نجد في آخرها بعد ذكر الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام– بياناً شافياً كافياً تاماً كاملاً، بأن أولئك هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وهناك من أبى من أقوامهم إلا الكفر، ولكن هناك من أكرمهم الله بالإيمان، وهم الذين هداهم الله تبارك وتعالى، فبهداهم يُقتدَى ويُهتدَى.

ثانياً: قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة مريم عليها السلام وحواره مع والده:

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ

(89) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط 3، 1430هـ، 2010 م، ص289.

جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِـــرَاطًا سَـــوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّـيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَـــى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَـقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْـحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَـانَ صِـدْقٍ عَلِيًّا (50)﴾ [مريم:41-50].

إنَّ أول سورة سردت لنا حديثاً مفصلاً عن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – هي سـورة مريم عليها السـلام، التي نزلت مبكرة بعض الشـيء، ويدلّ هذا أن جعفر بن أبي طالب – رضـــي الله عنه – قرأها على النجاشـــي ومن عنده من رجال الدين النصارى.

وفي هذه السورة – التي لها من اسمها نصيب كبير– يحدثنا ربّنا عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى – عليهم السلام – ثم ينتقل الحديث عن إبراهيم – عليه السّلام – وبعض الأنبياء من بنيّه، ومما يأخذ باللبِّ ويأســـر القلب، ولكن هذا القلب يأبى إلا أن يتفلّت؛ ليرقص إعجاباً ثم يلين خشوعاً، ذلك أن الحديث في سورة مريم عن إبراهيم – عليه السّـــلام – كان يتناول ذلك الحوار المؤثر بينه وبين أبيه، ولعلَّ الناظر في السـورة الكريمة وهو ينعم النظر ويُعمل الفكر، ويدقق في الموضـع، يدرك هذا السـرّ الذي يأبى إلا أن ينتشر شذاه وأريجه.

إنّ سورة مريم التي جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد– عليهم السلام –، وعن مريم الأم وعيسى الابن – عليهما السلام – وهي التي ستحدثنا في آخرها بما يهز القلوب والمشـاعر، كيف لا وهي ما تكاد السـماوات تنفطر له، وتنشـق

الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمان ولداً، وقبل هذا حدثتنا السورة الكريمة عن الذي ﴿كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم:77].

لا عجب إذن أن نجد ما حدثت به السورة الكريمة عن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – كان جلّه، بل كلّه يتصل بهذا الجانب، وهو حديث إبراهيم – عليه السّلام – مع أبيه، ولنقرأ الآيات الكريمة لنرى – بعد حديثنا عن السرِّ الرائع– أي تأثير، وأي فعل يمكن أن تفعله الآيات[90].

تبيّن هذه القصة كيف حاور إبراهيم – عليه السّلام – أباه ودعاه إلى نبذ عبادة الأوثان، واجتناب طاعة الشيطان في وفق ولين وأدب جمّ، كما سنبيّنه بالتفصيل – إن شاء الله – من خلال البلاغة القرآنية، وأتمنى أن يقرأ هذه القصة الأبناء العاقّون لآبائهم؛ ليروا كيف كان أدب إبراهيم – عليه السّلام – وهو مقام المحاورة والوعظ لأبيه.

إنَّ ذكر قصة إبراهيم – عليه السّلام – جاء ملائماً جداً للسياق؛ لأن العرب تُقرّ بعلوّ مكانته – عليه السّلام – وطهارة دينه ونقائه وله في نفوسهم منزلة عظيمة، فهو أبو العرب، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:78].

ففي ذكر طرفٍ من أخباره تشويق لمشركي العرب ولغيرهم من بابٍ أولى؛ ليسمعوا قصته بشغفٍ ولهفة، يتلوها عليهم الرسول صلّى الله عليه وسلّم، والقصد من وراء ذلك بيان فساد عقيدتهم الباطلة في الشرك بالله تعالى، وبيان هذا: كأنه قيل للعرب: إن كنتم تتشدقون بحبكم لأبيكم إبراهيم، فلمَ لا تقلّدونه في نبذه عبادة الأوثان، وأنتم الذين تقولون: نحن على دين آبائنا، ونقتفي آثارهم، كما حُكي عنكم قولكم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:23].

---

(90) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص278.

إذن فلمَ لا تتبعون رأسكم وأصلكم أشرف آبائكم المقرب إليكم، المحبُّ عندكم إبراهيم – عليه السّلام – في تركه لعبادة الأوثان؟ ثم إن أباكم إبراهيم نبذ دين آبائه الباطل، فلم لا تتركون أيضاً دين آبائكم الباطل؟ ثم إنكم تعترفون بطهارة دين أبيكم الأكبر إبراهيم – عليه السّلام – من أية شائبة شرك، فلم تركتم دينه القائم على التوحيد؟.

ثم إن كنتم ممن يحتج بالنظر والعقل والدليل، فتأملوا في الأدلة التي ساقها أبوكم إبراهيم – عليه السّلام – لإبطال دين أبيه الفاسد بالعموم، إن لم تتبعوا أباكم الأكبر والأشرف إبراهيم– عليه السّلام – تقليداً، فاتّبعوه استدلالاً وحجةً ومنطقاً[91].

وخلاصة القول في هذه المسألة: إنَّ في ذكر قصة إبراهيم – عليه السّلام — تشويقاً وإغراءً للسامع؛ ليقتفي أثر أبيه الأكبر إبراهيم – عليه السّلام – ويتبع ملَّته إمّا اقتداءً بفعله، وإما اقتداءً بفكره وحجته ومنطقه، وإما اقتداءً بهما معاً، وهذا كله من براعة الاستهلال في القصة، والله أعلم[92].

ثالثاً: قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة الأنبياء وحواره مع والده وقومه من عبدة الأوثان:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَل رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى

---

(91) تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، دار النوادر، دمشق، سوريا، 2011م، ص181.

(92) التفسير الكبير مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، (464/10).

ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)﴾ [الأنبياء:51-73].

ابتدأ هذا المشهد الحواري بمقدمة استهلالية تعلن المنزلة العظيمة التي منحت لإبراهيم - عليه السّلام -، حيث أُكدت بلام القسم الداخلة على قد ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾؛ وذلك لتحقيق المضمون في نفوس المخاطبين العرب الذين يدّعون الانتساب إلى دين إبراهيم - عليه السّلام -[93].

(93) صناعة الحوار، حمد عبد الله السيف، ص90.

إنّ مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الله سبحانه وتعالى لما قدّم الكلام في دلائل التوحيد[94]، والنبوّة والمعاد اتّبع ذلك بثلاثة عشر نبياً غير مراعٍ في ذكرهم الترتيب الزماني، وذكر بعض ما نال كثيراً منهم من الابتلاء، كل ذلك تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم وليتأسّى بهم فيما جرى من قومه[95].

ومحور الحديث الرئيسي في هذه السورة هو موضوع العقيدة، التي هي أصل الدين وأساسه، حيث يجب أن تحتل قصة إبراهيم مع قومه الصدارة في هذا الميدان، وذلك هو ما تصدى له كتاب الله هنا بالشرح والبيان، إذ إن اسم إبراهيم أصبح – منذ قرون طويلة وفي جميع الأديان الكتابية – رمزاً إلى مكافحة الوثنية ومجابهة الشرك، وإعلان التوحيد ونشره بين الناس حتى إنه ليعدّ إمام الموحدين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:120][96].

لاحظنا الإيجاز في حديث القرآن الكريم في سورة الأنبياء عن الأنبياء – عليهم السلام – إلا أننا في قصة الخليل – عليه السّلام – نجد التفصيل، ولعلّ السبب في ذلك أن المشركين يزعمون الانتساب للخليل – عليه السّلام –، فأراد الله عزّ وجل أن يبيّن موقف الخليل – عليه السّلام – الصارم في تحطيم الأصنام[97].

---

(94) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تحقيق: هاشم محمد علي بن حسين مهدي، دار طوق النجاة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1421هـ، 2001م، (116/18).

(95) المرجع نفسه، (116/18).

(96) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ، 1985م، (130/4).

(97) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2008م، ص385.

رابعاً: قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة الشعراء:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104)﴾ [الشعراء:69-104].

يحكي لنا القرآن الكريم بكل أمانة ودقة ورقة وموضوعية قصة إبراهيم – عليه السّلام –، وهنا في سورة الشعراء جاءت الآيات تترا؛ لتصف لنا مشاهد من قصته العظيمة تلامس الأحاسيس والأعماق الإنسانية.

ونرى شـخصـية إبراهيم – عليه السّـلام – هذا الطود الشـامخ الذي يتحدى كل المؤثرات بعقيدة التوحيد الراسخة التي تتفاعل مع العقل والقلب، سنلاحظ ذلك في الآيات التي جاءت عن إبراهيم – عليه السّلام – في هذه السورة، وبيان تلك الصّلة الوثيقة بربّه التي ستبقى وستظل الأسـاس الذي يرجع إليه المؤمنون، والقبس الذي يستنيرون به.

وقال ابن عاشـور ملخصـاً لقصـة إبراهيم – عليه السّـلام – التي جاءت في سـورة الشـعراء: والخروج إلى تصـوير هذه الأحوال شـيء اقتضـاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة؛ لأنّه ابتدأ الدعوة بإلقاء السـؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظاً لبصـائرهم، ثم أعقب ذلك بإبطال الهبة أصـنامهم، والاستدلال على عدم استئهالها الإلهية بدليل التأمل، وهو أنّها فاقدة السـمع والبصـر وعاجزة عن النفع والضـرّ، ثم طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لما عجزوا عن تأييد دينهم بالنظر.

فلما نهضـت الحجة على بطلان إلهية أصـنامهم، انتصـب لبيان الإله الحقّ ربّ العالمين، الذي له صـفات التصرف في الأجسـام والأرواح، تصـرف المنعم المتوحّد بشـتّى التصـرف إلى أن يأتي تصـرفه بالإحياء المؤبد، وأنه الذي نطمع في تجاوزه عنه يوم البعث، فليعلموا أنهم إن اسـتغفروا الله عما سـلف منهم مِن كُفْر فإن الله يغفر لهم، وأنهم إن لم يقلعوا عن الشـرك لا ينفعهم شـيء يوم البعث، ثم صـور لهم عاقبة حَالَي التقوى والغواية بذكر دار إجزاء الخير ودار إجزاء الشر.

ولما كان قومه مسـتمرين على الشـرك، ولم يكن يومئذ أحد مؤمناً غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه كان المقام بذكر الترهيب أجدر، فلذلك أطنب في وصـف حال الضـالّين يوم البعث وسـوءِ مصـيرهم، حيث يندمون على ما فرطوا في الدنيا من

الإيمان والطاعة، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا؛ ليتداركوا الإيمان ولات ساعة مَندم[98].

خامساً: قصة إبراهيم عليه السّلام في سورة الصافات:

تجيء قصة إبراهيم – عليه السّلام – في سورة الصافات في حلقتين رئيسيتين، حلقة دعوة قومه وتحطيم الأصنام وهمهم به ليقتلوه وحماية الله له وخذلان شانئيه، وهي حلقة تكررت من قبل في سور القرآن– وحلقة جديدة لا تعرض في غير هذه السورة وهي الخاصة بحادث الرؤيا والذبح والفداء، مفصلة المراحل والخطوات والمواقف في أسلوبها الأخّاذ وأدائها الرهيب، ممثلة أعلى صور الطاعة والتضحية والفداء والتسليم في عالم العقيدة في تاريخ البشرية الطويل[99].

كما أنها تذكر صورة الاستسلام الخالص التي تتمثل في مجيء إبراهيم لربّه، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه، والتعبير بالسلامة تعبير موحٍ مصور لمدلوله، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم، ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة والإخلاص والاستقامة إلا أنه يبدو بسيطاً غير معقد، ويؤدي معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات، وتلك إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد، وبهذا القلب السليم استنكر ما عليه قومه واستبشعه، واستنكر القلب السليم لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور وسلوك[100].

---

(98) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (150/19-151).

(99) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2992/5).

(100) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2992/5).

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آَلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾: فقال أي شيء تعبدونه؟ وكأنه يقول لهم أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة، فكيف تعبدونها من دون الله؟ ما تعبدونه ليس من شأنه أن يُعبد، ولا أن يكون له عابدون (101).

- ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أخبرونا ماذا تظنون في الله؟ وما الذي يعجبكم في ألوهيته سبحانه؟ وكيف تخدعون أنفسكم فتنصرفون عنه سبحانه وهو رب العالمين.

- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى آَلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (93)﴾ [الصافات:88-93]: يُروى أنه كان للقوم عيد - ربما كان هو عيد النيروز- يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات بعد أن يضعوا الثمار بين يدي آلهتهم لتباركها، ثم يعودون بعد الفسحة والمرح، فيأخذون طعامهم، وأن إبراهيم - عليه السّلام - بعد أن يئس من استجابتهم له وأيقن بانحراف فطرتهم الانحراف الذي لا صلاح له، اعتزم أمراً، وانتظر هذا اليوم الذي يبعدون فيه عن المعابد والأصنام ليُنفّذ ما اعتزم، وكان الضيق لما هو فيه من انحراف قد بلغ منه أقصاه وأتعب قلبه وقُواه، فلما دُعي إلى مغادرة المعبد والأصنام قلب نظره إلى السماء(102).

- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (94) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ

(101) قصة إبراهيم في القرآن الكريم، إسحاق محمد حمدان البدارين، ص63.

(102) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2992/5).

كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (98)﴾ [الصافات:94-98]: إنّه منطق الحديد والنار، الذي لا يعرف الطغاة منطقاً سواه؛ عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين[103].

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)﴾ [الصافات:99-101]: هذه حلقة أخرى من قصة إبراهيم - عليه السّلام -، لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه، لقد أرادوا به الهلاك في النار التي أسموها الجحيم، وأراد الله أن يكونوا هم الأسفلين ونجّاه من كيدهم أجمعين، وعندئذ استدبر إبراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة وطوى صفحة لينشر صفحة[104].

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:102]: أخذ إسماعيل - عليه السّلام - يشبّ ويترعرع حتى بلغ السنّ التي يتمكن فيها من السعي والعمل، وبلغ أيضاً من حبِّ والديه مبلغاً عظيماً، وكان الحبُّ يزداد مع الأيام ويكبر على مرِّ السنين، وإذا بوالده يرى ما يراه النائم أنه يذبح ابنه، وكان الوالد يعلم أنّها إشارة له بذبح ابنه، إشارة من نوع الابتلاء الذي اختبره الله تعالى به من تحطيم الأصنام والإلقاء في النار، وقد نجح في الاختبار السابق واجتازه في ثقة بالله لاحقاً لا حدّ لها، بيد أن الابتلاء السابق واضح المعنى، وكان سافر الملامح، لقد كان أمراً صريحاً بتحطيم الأصنام، وكان تحطيماً مفهوم الدلالة،

---

(103) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2993/5).

(104) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2994/5).

فما ينبغي أن يعبد مع الله، وما يجوز في منطق العقل والشـــعور الســـليم أن ينصرف الإنسـان عن مانح النعم، وكان الإلقاء في النار أيضاً واضح المعنى، إنه في ســبيل الله وفي ســبيل الله يهون كل ألم، وهو نجح في الابتلاء الماضــي وحفظه الله سبحانه وكتب له النجاة كما يفعل سبحانه بكل ما والاه[105].

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْــلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِـنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106)﴾ [الصافات: 103-106]:

لقد تهيأ كل شــيء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم، فماذا حدث؟ لقد همَّ سـيدنا إبراهيم - عليه السّـلام - بذبح ابنه، وتهيّأ كل شــيء لتنفيذ الذبح، الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن أنه على صــــواب حينما رضي بالموت تنفيذاً لأمر الله، لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله.

لقد أسلم إبراهيم وإسماعيل - عليهما السّلام - فلما أسلما أيّ: خلصا لله كلية واسـتسـلما إليه اسـتسـلاماً مطلقاً، ثقة وطاعة لله ورضـى وتسـليم له سـبحانه وتعالى، وكلاهما لا يجد في نفسـه إلا هذه المشـاعر التي لا يصـنعها غير الإيمان العظيم، وهذا هو الإسـلام في حقيقته، عن الذي صـنعه إبراهيم وإسماعيل - عليهما السّلام- إنما هو الاستسلام لمراد الله، الاستسلام الواعي المتعقّل القاصد المريد، العارف بما يفعل، المطمئن لما يكون مع الرضى الهادئ المســتبشــر المتذوّق للطاعة وطعمها الجميل (106). فلما أســلما لله رب

(105) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص126.

(106) في ظلال القرآن، سيد قطب، (2996/5).

العالمين ناداه الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (113)﴾ [الصافات: 104 - 113].

المبحث الثالث: حوار إبراهيم عليه السّلام مع الملك الظالم وسؤاله لربّه كيف تحيي الموتى؟

أرسل اللهُ سيدنا إبراهيم – عليه السّلام – إلى قومه في بلاد الرافدين، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذَّرهم من عبادة الأصنام والكواكب والنجوم التي كانت شائعةً بينهم، لكنهم كذَّبوه ولم يستجيبوا له، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرَّ في تبليغ رسالته، مُستخدِمًا أساليبَ متنوعة؛ لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

أولاً: حوار إبراهيم عليه السلام مع الملك الظالم:

وقد برع الخليل عليه السّلام في حوار قومه ومناقشتهم أثناء دعوته لهم، حتى كان أسلوبه محطَّ اهتمام الدعاة والمصلحين والباحثين، وخاصة أنَّ الله تعالى أرشدنا إلى اتّباع ملّته وطريقته وهديه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:130].

ولما بيَّن الله عزّ وجل في الآية التي قبلها ولاية الله لعباده المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وولاية الطاغوت للكافرين، وإخراجهم من النور إلى الظلمات، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، كما قال عزّ وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ

إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْــحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:257]، أخذ الحق سبحانه يدل على ولاية الله للمؤمنين بقصة الذي حاجّ إبراهيم – عليه السّلام – في ربّه في سياق التعجب من تلك الجرأة(107).

كـــأنه قيل: انظروا إلى إبراهيم – عليه السّـلام – كيف كان يهتدي بولاية الله عزّ وجل له في الحجج القيمة والخروج من الشـــبهات التي تعرض عليه؟ فيظل على نور من ربه وإلى الذي حاجّه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة؟ من ظلمة من ظلمات الشُبه والشكوك إلى أخرى(108).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّـــمْسِ مِنَ الْمَشْـــرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258].

1. مناسبة الآية لما قبلها:

لما بيَّن الله عزّ وجل في الآية التي قبلها ولاية الله لعباده المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وولاية الطاغوت للكافرين، وإخراجهم من النور إلى الظلمات، وأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، كما قال عزّ وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْــحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:257]، أخذ الحق سبحانه يدل على ولاية الله للمؤمنين بقصة الذي حاجّ إبراهيم – عليه السّلام – في ربّه في سياق التعجب من تلك الجرأة.

---

(107) الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، ص430.

(108) تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، محمد رشيد رضا، (3/3).

كـــأنه قيل: انظروا إلى إبراهيم – عليه السّلام – كيف كان يهتدي بولاية الله عزّ وجل له في الحجج القيمة والخروج من الشـــبهات التي تعرض عليه؟ فيظل على نور من ربه وإلى الذي حاجّه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة؟ من ظلمة من ظلمات الشُبه والشكوك إلى أخرى.

ولما ذكر الحقّ عزّ وجل أن الله ســـبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ساق شواهد على ذلك في الآيات التي بعدها، ومنها هذا الشـــاهد الذي اشـــتمل على ضـــلال الكافر، وهدى المؤمن، واستقلاله بأمر عجيب حقيق بأن يصدر به الكلام وهو: اجتراؤه على المحاجة في الله عزّ وجل، وما أتى في أثنائها من العظمة المنادية بكمال حماقته.

2. متى كانت هذه المناظرة؟

انتقل إبراهيم – عليه السّلام – في دعوته انتقالاً متدرجاً منظماً، وقد بدأ دعوته إلى الله مع أبيه، أقرب الناس إليه، ثم انتقل يدعو قومه، وهي الدائرة الأوســـع، ثم الخطوة التي تلتها، وهي دعوة الملك، وهو رأس القوم. ومن المفهوم المعروف أنه لما ناقش وجادل وحاجج قومه، انتشرت دعوته بين الناس واشتهر أمره وذاع صيته، وعرف الناس من هذا الفتى وما هي دعوته وماذا يريد، ومن المفهوم أن تكون دعوته قد وصـــلت بلاط الملك، وأن يكون الملك قد سمع به، ولذلك توجّه إبراهيم – عليه السّلام – إلى الملك داعياً ومحاججاً ومجادلاً.

وقد اختلف علماء التفســـير وغيرهم في الوقت الذي وقعت فيه المناظرة بين إبراهيم – عليه السّـــلام – وبين النمرود لعنه الله، وهل كانت قبل حرق إبراهيم بالنار أو وقعت بعد إحراقه، وجاء الاختلاف على ثلاثة مواقف:

أ-ذهب فريق منهم إلى أن المناظرة وقعت قبل إحراق قوم إبراهيم له بالنار، ومنهم: أبو السعود، والزمخشري في تفسيريهما، ولم ينسباه إلى أحد.

ب- ذهب فريق إلى القول بأن المناظرة، إنما وقعت بعد إلقاء إبراهيم في النار ونجاته منها، ومنهم: الطبري في تفسيره، وابن كثير في تفسيره، وفي البداية والنهاية، وهذا الرأي منسوب إلى السُّديّ.

ج- فيما ذهب فريق ثالث إلى عدم الجزم بأحد القولين، وعدم ترجيح أحد الرأيين، وممن ذهب إلى ذلك الألوسي في روح المعاني، والرازي في التفسير الكبير، وأبو حيّان في البحر المحيط، والخازن والقرطبي في تفسيريهما، فقالوا واختلفوا في وقت هذه الحاجة: فقيل: بعد كسر الأصنام وقبل إلقائه في النار، وهو مرويّ عن مقاتل والربيع. وقيل: بعد إلقائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً، وهو مرويّ عن جعفر الصادق والسُّديّ.

- القول المختار:

إنَّ هذه المناظرة قد وقعت بعد إلقاء إبراهيم - عليه السّلام - في النار ونجاته منها؛ وذلك لأنَّ أسلوب القرآن الكريم في قصة الإحراق يدل على أنه كان نتيجة تكسير الأصنام، ومحاكمته على ذلك، وليس في القرآن الكريم ما يدلُّ من قريب ولا من بعيد على أن الإحراق كان نتيجة مناظرته الملك، إذ ليس في القصة ما يدل على أن الملك استدعاه أو ناظره بعد محاكمته وقبل الحكم عليه بالإحراق، وأن هذه المناظرة كانت بعد أن نجى إبراهيم - عليه السّلام - من النار، وتعجب الملك بنجاته حيث رأى أن ذلك أمر خارق لمألوف العادات، وأنه لا سبيل إلى أخذه عن طريق البطش والقهر، وأن أحسن وسيلة لمراجعة إبراهيم - عليه السّلام - هي مناظرته لعلَّه يعود إلى رشده في زعمه، ويرجع إلى عبادة معبوداتهم والخضوع للملك، فجرت بينهما هذه المناظرة التي ذكرها الله في كتابه.

3. من هو هذا الملك؟ وما اسم مملكته؟

من هو هذا الملك الذي جادله إبراهيم عليه السّلام؟ وما هي مظاهر ملكه؟ وما هي قصة ادّعائه الألوهية؟ وما اسم مملكته وعاصمته؟ وكيف كانت نهايته؟

هذه أسئلة لا جواب عليها في القرآن الكريم، ولا في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ونعتبرها من مهمات القرآن التي يجب إبقاؤها على إبهامها؛ لأنّها لم تبيّن في النصوص الصحيحة المعتمدة.

ونعلم أن هذه الأسئلة عليها إجابات مفصلة في الاسرائيليات، وأن هذه المبهمات مبيّنة في الأساطير، فالإخباريون ورواة الإسرائيليات يقولون: الملك اسمه "نمرود"، وكان ملكاً على "بابل"، وأنَّ الله أهلكه بالبعوضة، دخلت في أنفه إلى دماغه، وكانت "تطنّ" في دماغه وتزعجه، فيطلب ضربه بالنعال ليذهب الألم.. إلى غير ذلك من الإسرائيليات.

ونتوقف في هذه التفاصيل، ولا نقول بها، ونتعامل مع الآية كما تعامل معها الصحابة رضي الله عنهم، ونفهم قصة إبراهيم – عليه السّلام – مع الملك كما فهمها الصحابة، ونسكت عمّا سكتوا عنه ويسعنا ما وسعهم، فكل ما نقوله عن ذلك الملك: إنّه كان ملكاً كافراً ادّعى الألوهية، وكان الناس يعبدونه من دون الله فتوجّه إبراهيم – عليه السّلام – إليه، وحاجّه وجادله وناقشه، وأقام الحجّة عليه، ثم أفحمه وغلبه، فكان الملك أمام إبراهيم – عليه السّلام – مهزوماً مبهوتاً.

ثانياً: سؤال إبراهيم ربه كيف تحيي الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260]:

قال الإمام النووي: أما سؤال إبراهيم عليه السّلام، فذكر العلماء في سببها أوجهاً[109]:

---

(109) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1392هـ، (184/2).

- أنَّه أراد الطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة بعد العلم بها استدلالاً، فإن علم الاستدلال قد تتطرق إليه الشكوك في الجملة بخلاف علم المعاينة، فإنه ضروري، وهذا مذهب الإمام أبي منصور الأزهري وغيره.

- أراد اختبار منزلته عند ربّه في إجابة دعائه، وعلى هذا قالوا: معنى قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾] أي: تصدق بعظم منزلته عندي، واصطفائك وخلّتك.

- سأل زيادة يقين، وإن لم يكن الأول شكاًّ، فسأل الترقي من علم اليقين إلى عين اليقين، فإن بين العلمين تفاوتاً، قال سهل بن عبد الله الشثري رضي الله عنه: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكّناً.

- أنه لما احتجَّ على المشركين بأن ربّه سبحانه وتعالى يحيي ويميت، طلب ذلك منه سبحانه ليظهر دليله عياناً، وقيل أقوال كثيرة أُخَر ليست بظاهرة(110).

---

(110) الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، اسطنبول، تركيا، ط1، 2017م، ص187.

المبحث الثالث: نجاح إبراهيم عليه السلام في الابتلاء، وإمامته للناس:

أولاً: نجاح إبراهيم (عليه السلام) في الابتلاء:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124].

في الآيات الكريمة التي ذُكرت من سورة البقرة، كان الجدال مع أهل الكتاب دائر كله حول سيرة بني إسرائيل ومواقفهم من أنبيائهم وشرائعهم، ومن مواثيقهم وعهودهم، ابتداءً من عهد موسى – عليه السّلام – إلى عهد محمد صلّى الله عليه وسلّم أكثره على اليهود وأقله على النصارى، مع إشارات إلى المشركين عند السمات التي يلتقون فيها مع أهل الكتاب أو يلتقي معهم فيها أهل الكتاب.

فالآن يرجع السّياق إلى مرحلة تاريخية أسبق من عهد موسى، بحيث يرجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقصة إبراهيم عليه السلام – على النحو الذي تُساق به هذا- تؤدي دورها في السّياق، كما أنّها تؤدي دوراً مهماً فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة في المدينة من نزاع حاد متشعب الأطراف.

إنَّ أهل الكتاب ليرجعون بأصولهم إلى إبراهيم عن طريق إسحاق – عليهما السّلام- ويعتزّون بنسبتهم إليه، وبوعد الله له ولذريته بالنمو والبركة، وعهده معه ومع ذريته من بعده، ومن ثم لا يحتكرون لأنفسهم الهدى والقوامة على الدين، كما يحتكرون لأنفسهم الجنة أياً كان ما يعملون[111].

---

(111) في ظلال القرآن، سيد قطب، (111/1).

وإنَّ قريش لترجع بأصولها كذلك إلى إبراهيم عن طريق إسماعيل – عليهما السّلام– وتعتز بنسبتها إليه، وتستمد منها القوامة على البيت وعمارة المسجد الحرام، وتستمد كذلك سلطانها الديني على العرب وفضلها وشرفها ومكانتها.

وقد وصل السياق فيما مضى إلى الحديث عن دعاوى اليهود والنصارى العريضة في الجنة ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾، وعن محاولتهم أن يجعلوا المسلمين يهوداً أو نصارى؛ ليهتدوا ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾، كذلك وصل إلى الحديث عن الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ويسعون في خرابها، وقلنا هناك: أنّها قد تكون خاصة بموقف اليهود من قضية القبلة، وبالدعاية المسمومة التي أثاروها في الصّف الإسلاميّ بهذه المناسبة، فالآن يجيء الحديث عن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق – عليهما السّلام – والحديث عن البيت الحرام وبنائه وعمارته وشعائره في جوّه المناسب؛ لتقرير الحقائق الخالصة في ادّعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعاً، حول هذه النسب وهذه الصلات، ولتقرير قضية القبلة ينبغي أن يتجه إليها المسلمون(112).

كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين إبراهيم، وهي التوحيد الخالص وبعد ما بيّنها وبيّن العقائد المشوهة المنحرفة التي عليها أهل الكتاب والمشركون سواء، وقرب ما بين عقيدة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب – وهو إسرائيل الذين ينتسبون إليه – وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين ولتقرير وحدة دين الله واطراده على أيدي رسله جميعاً، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء، وأن وراثة هذا التراث لا تقوم على قرابة الدم والجنس، ولكن على قرابة الإيمان والعقيدة، فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها في أي

---

(112) المرجع السابق، سيد قطب، (111/1).

جيل من أي قبيل، فهو أحقُّ بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب، فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا مهر.

هذه الحقائق التي تمثل شطراً من الخطوط الأساسية في التصور الإسلامي، يجلوها القرآن الكريم هنا في نسق من الأداء عجيب، وفي عرض من الترتيب والتعبير بديع، يسير بنا خطوة خطوة من لدن إبراهيم عليه السّلام، منذ أن ابتلاه ربّه واختبره فاستحق اختياره واصطفاءه وتنصيبه للناس إماماً إلى أن نشأت الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد صلّى الله عليه وسلّم استجابة من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل، وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام، فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية إبراهيم جميعاً، بذلك السبب الوحيد الذي تقوم عليه وراثة العقيدة، سبب الإيمان بالرسالة وحسن القيام عليها والاستقامة على تصورها الصحيح.

وفي ثنايا هذا العرض التاريخي يبرز السياق أن الإسلام كان هو الرسالة الأولى وكان هو الرسالة الأخيرة، هكذا اعتقد إبراهيم وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى ثم آلت أخيراً إلى وراثة إبراهيم من المسلمين[113].

فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ووريث عهودها وبشاراتها، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته، عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى في اصطفائهم واجتبائهم، لمجرد أنهم أبناء إبراهيم وحفدته وهم ورثته وخلفاؤه.

---

(113) في ظلال القرآن، سيد قطب، (111/1).

لقد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هذه العقيدة وعندئذ تسقط كذلك دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيام عليه وعمارته؛ لأنهم فقدوا حقهم في وراثة باني هذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته، ثم تسقط كل دعاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التي ينبغي أن يتجه إليها المسلمون، فالكعبة هي قبلتهم وقبلة أبيهم إبراهيم، كل ذلك في نسق من العرض والأداء والتعبير عجيب حافل بالإشارات الموحية، والوقفات العميقة الدلالة والإيضاح القوي التأثير [114].

في الآية الكريمة يقول الله عزّ وجل للنبي محمد صلّى الله عليه وسلّم اذكر ما كان من ابتلاء الله عزّ وجل لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاء وقضاء، وقد شهد الله لإبراهيم في موضع آخر بالوفاء بالتزاماته على النحو الذي يرضى الله عنه فيستحق شهادته الجليلة ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾، وهو مقام عظيم، ذلك المقام الذي بلغه إبراهيم، مقام الوفاء والتوفية بشهادة الله عزّ وجل والإنسان بضعفه وقصوره لا يوفي ولا يستقيم[115].

فقد قام إبراهيم – عليه السّلام – بالكلمات الشرعية وأتمّها ووفّاها وصبر على القدرية واحتسب، فمن الأمور الشرعية ما صحّ عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيره هذه الآية قال: ابتلاه الله بالطهارة: خَمسٌ في الرأسِ، وخمسٌ في الجَسَدِ؛ خمسٌ في الرأس: قصُّ الشَّارِبِ والمضمضةُ، والاستنشاقُ والسِّواكُ، وفَرْقُ الرأسِ، وفي الجَسَدِ: تقليمُ الأظفارِ، وحَلْقُ العانة، والختانُ، ونتفُ الإبْط، وغسلُ أثَر الغائِطِ

(114) المرجع نفسه، (112/1).

(115) في ظلال القرآن، سيد قطب، (112/1).

والبَولِ بالماءِ، ومن ذلك أيضاً: الإسلام، والحج، والإحرام، والطواف، والسعي ورمي الجمار[116].

وغير ذلك من التفاسير والرأي الذي قال به الدكتور عبد الحليم محمود مستنداً على الإمام الحسن البصري: هو ما أمره الله تعالى بشيء إلا وفّى به[117].

وقد نجح إبراهيم – عليه السّلام – في ابتلاءات عديدة بفضل الله تعالى منها:

- نجح إبراهيم عليه السلام في ابتلاء الدعوة، عندما دعا أباه وقومه وحاكم قومه.
- نجح الخليل في ابتلاء المواجهة؛ عندما واجه الكفار وثَبت على الحق.
- نجح في ابتلاء الهجرة عندما هاجر للأرض المقدسة.
- نجح في ابتلاء الفراق عندما وضع زوجه وابنه في وادٍ غير ذي زرع.
- نجح في ابتلاء التضحية عندما نفذ رؤياه بذبح ابنه، لولا الله فداه.
- نجح في ابتلاء الكرم والضيافة.
- نجح في ابتلاء بناء البيت.
- نجح في ابتلاء العبادة والذكر والشكر والتوبة وسنن الفطرة والاختتان والدعاء.
- نجح في ابتلاء الولاء والبراء والمفاضلة للأعداء.

---

(116) تفسير الزهراوين البقرة وآل عمران، محمد صالح المنجد، دار العبيكان، الرياض، ط1، 2016م، ص215.

(117) قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص.

- نجح في ابتلاء الإمامة والريادة والقدوة[118].

وتدخل في الكلمات التي كلف الله إبراهيم عليه السلام بها ما تشمله من أوامر ونواهٍ وأحكام وواجبات سواء ما يتعلق منها بالعقيدة أو العبادة أو الدعوة أو الأخلاق أو غير ذلك[119].

ثانياً: دعاء إبراهيم عليه السلام وتضرعه وثناؤه على الله في سورة إبراهيم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41)﴾ [إبراهيم:35-41].

إنَّ سورة إبراهيم مكيّة، والحديث فيها عن إبراهيم – عليه السّلام – جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعى على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من حقهم أن يعبدوا الله الذي منّ عليهم بهذا الأمن في

(118) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (441/1).

(119) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، (441/1).

بلدهم، وأن يتذكروا دعوة إبراهيم – عليه السّلام – حينما سأل ربّه أن يجعل هذا بلداً آمناً، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ويصرفهم عنها، فإنها أضلّت كثيراً من الناس،

ويبيّن إبراهيم– عليه السّلام– بأن الرابطة الحقيقية التي تربط بنيه به، إنما هي رابطة العقيدة ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، كما تبيّن الآيات الكريمة حرص إبراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم، فلا يكفروها، ولا يكفروا بالله الذي أنعم بها، ويعطي القدوة من نفسه على هذا الشكر، فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، ويسأل ربّه سميع الدعاء أن يجعله مقيم الصلاة، ومن ذريته كذلك وأن يغفر لوالديه وللمؤمنين.

ونرى أن ما جاء في سورة إبراهيم – عليه السلام– كان جانباً جديداً من خبر إبراهيم فهو متّسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمّها من جهة أخرى، وهذه الآيات الكريمة في سورة إبراهيم أبلغ ردٍّ وخير دحض لما يقوله خصوم الإسلام من أعداء وأدعياء، والذي أشرنا إليه من قبل أول الحديث عن قصة أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم عليه السلام من أن صلة إبراهيم بالبيت وصلته بإسماعيل عليهما السلام، لم يعرفا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام[120].

---

(120) قصص القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، ص305.

المبحث الرابع: خصائص إبراهيم عليه السلام وفضائله وتقاربه مع النبي محمد ﷺ

إنّ خليل الله إبراهيم عليه السلام عَلَمٌ من أعلام الدنيا، شخصية فذّة وقامة سامقة، تجسدت في شخصيته الكريمة صفات عظيمة وفضائل كريمة، جعله الله بها مهيئاً وأهلاً وناشطاً؛ ليضع أساس وقواعد ملة عظيمة، واضحة المعالم ومستقيمة وسمحاء، تصلح للناس جميعاً، وللأحوال كافة على مدى الدهور، فإن إبراهيم عليه السلام هو خليل الله، وهو النبيّ، والرسول، والصّديق، والمصطفى، والمجتبى، والمهدي، وأبو الأنبياء، والشاكر، والأواه، والمنيب، والحليم، والقانت، والموقن، والحنيف، وذو القلب السليم، والأمّة، والإمام، والأسوة، والصالح، وصاحب الصحف، وهو أول من بنى لله بيتاً؛ ليُعبد الله سبحانه فيه على الأرض، وهو أول من يُكسى يوم القيامة، وهو من أراه الله سبحانه ملكوت السماوات والأرض، وكل هذه الصفات ثابتة بأدلة قطعية الثبوت من كتاب الله وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلّم[121].

أولاً: خصائص إبراهيم عليه السلام وفضائله:

1. الإسلام:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)﴾ [البقرة:130-131].

(121) ملة أبيكم إبراهيم، عبد الستار كريم المرسومي، ص243.

2. الحنيفية:

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْـرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْـلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:67].

3. الحلم والتأوه والإنابة:

وصف الله تبارك وتعالى أخلاق خليله إبراهيم – عليه السّلام – فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:75].

4. الصديقية:

قال الله تعالى في إبراهيم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِـــدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم:42].

5. الشكر:

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿شَـاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِـرَاطٍ مُسْـتَقِيمٍ﴾ [النحل:121].

6. الدعاء.
7. القنوت.
8. سلامة القلب.
9. عمارة البيت الحرام.
10. إكرام الضيف.
11. الخلّة.
12. خير البرية.
13. الإمامة.

14. الاجتباء والاصطفاء.

15. الرشد.

16. النبوة في ذريته.

17. اتخاذ مقامه مصلى.

18. وليّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

19. اللين والرحمة.

20. الرجل الأمة.

21. الوفاء.

22. الإخلاص.

23. الفطانة.

24. العلم.

25. الدعوة إلى الله.

ثانياً: تقارب إبراهيم عليه السلام مع النبي محمد ﷺ:

كم يشدك هذا القرب وهذه القُربى بين إبراهيم الخليل وابنه خاتم النبيين رسول الله محمد صلّى الله عليه وسلّم، إنه قُرب لصيق برغم آماد الزمان، وأبعاد المكان، حتى لكأنهما الأبوة المباشرة القريبة، ولذا يتلقى إبراهيم ابنه محمداً في منازل الملأ الأعلى ليلة الإسراء والمعراج بترحاب الآباء بالأبناء قائلاً: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح،

وعند التأمل في سيرة إبراهيم ومحمد عليهما الصّلاة والسّلام، نجد هذا التشابه والتوافق في مشاهد عظيمة، نذكر منها(122):

1. النشأة:

كان إبراهيم – عليه السّلام– راشداً منذ نشأته الأولى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ و ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فلم يكن إبراهيم مشركاً ولا متحيراً في أي مرحلة في حياته. وكذلك كان النبي صلّى الله عليه وسلّم، فلم يؤثر عنه قبل النبوة أنه عبَد صنماً أو شارك في وثنية.

2. التفكر في ملكوت الله:

فتح الله لإبراهيم – عليه السّلام– آفاق التفكر في آياته الكونية ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. وكذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم يتحنث في غار حراء تفكراً في آيات الله الكونية.

3. عداوة الأقارب:

واجه إبراهيم – عليه السّلام– الخصومة الشديدة من داخل أسرته مع أبيه آزر، سواء قلنا إن آزر كان أباه أو عمه، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

---

(122) منقول هذا النص حول أوجه التوافق بين خليل الله إبراهيم ورسول الله محمد عليهما الصلاة والسلام من مقال: "بين إبراهيم ومحمد عليهم السلام"، د. عبد الوهاب بن ناصر الطريري، إستانبول، 22/ 12/ 2020م.

وكذلك واجه الرسول صلّى الله عليه وسلّم الخصومة الدينية من عمه أبي لهب، ونزل القرآن يحكي هذه الخصومة، ولم يُعيَن أحد من المشركين في القرآن إلا أبا لهب.

4. استغفار إبراهيم لأبيه:

استغفر إبراهيم – عليه السّلام– لأبيه فنُهي عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

واستغفر النبي صلّى الله عليه وسلّم لعمه أبي طالب فقال: "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك"، فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى﴾.

5. إبراهيم والقرابة المؤمنة:

آمن مع إبراهيم ابن أخيه لوطاً – عليهما السّلام– وهاجر معه ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وآمن مع محمد ابن عمه علي وهاجر وجاهد معه وقال له: "أما تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّي بمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِن مُوسَى"(123).

6. إبراهيم وبناء الكعبة:

بنى إبراهيم – عليه السّلام– الكعبة ورفع قواعدها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، وأذّن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

---

(123) صحيح البخاري، رقم (3706).

وكذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم شارك في بناء الكعبة حين بنتها قريش ثم كان على يديها تطهيرها من أرجاس الجاهلية وشعائرها الوثنية، وإعادتها إلى ما كانت عليه حين بناها أبوه إبراهيم، فأرسل نداءه في الناس سنة تسع: "ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان"، ونادى في حجة الوداع: "كونوا على مَشاعرِكُم، فإنَّكمُ اليومَ على إرثٍ، من إرثِ إبراهيمَ"(124)، فالكعبة نسب بين محمد وأبيه إبراهيم كنسب الأبوة.

7. قيادة البشرية:

كان إبراهيم – عليه السّلام– إماماً للناس كلهم، جيله والأجيال من بعده: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وكذلك كان محمداً صلّى الله عليه وسلّم رسول الله إلى الناس جميعاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

8. الهجرة:

هاجر إبراهيم – عليه السّلام– من العراق وترك بلده وقومه وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فانتقل إلى الشام وتوفي بها. وكذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم هاجر من بلده مكة المكرمة إلى المدينة المنورة وتوفي بها.

9. الرحمة العامة:

---

(124) مسند أحمد، رقم (17233).

مع أن قوم إبراهيم – عليه السّلام– حاولوا إحراقه بالنار، فاعتزلهم وهاجر عنهم، لكنه لم يدع عليهم، وعندما جاءته الملائكة تبشره بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب – عليهما السّلام– لم يشغله فرحه بالذرية على الكبر أن يجادلهم في قوم لوط ويستدفع عنهم العذاب ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وكذلك الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما عرَض عليه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة المكرمة جبليها الأخشبين ويدفنهم تحت أحجارها، استدفع عنهم العذاب وقال: "بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا"(125).

وقد ذكرت في كتابي الأصل: "إبراهيم عليه السلام"، ثمانية عشر وجهَ تقارب بين سيدنا محمد ﷺ وسيدنا إبراهيم عليه السلام، فيمكن الرجوع إليه لمن أراد التوسع.

---

(125) صحيح البخاري، رقم (3231).

الخلاصة: دروس وعِبر:

في خلاصة حديثنا عن سيرة إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء والمرسلين في سياق التفسير القرآني، ونظراً لأهمية التعرُّف على قصته ومكانته بين الأنبياء والرسل، فهو عمود العالم، وإمام الحنفاء الَّذِي اتَّخذه الله سُبحانه وتَعالى خليلًا، وجعل النُّبوَّة والكتاب في ذُريَّته، وكان أحد الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من قومه، وهو من أولي العزم من الرسل عليهم السلام، وهو خليل الله الصّدّيق الأواب الحليم المنيب الأواه والحنيف والمجتبى والصالح، وصاحب الصُحف. وهو أول نبي بَنى لله بيتاً؛ ليُعبد الله سبحانه فيه على الأرض، وهو أول من يُكسى يوم القيامة، وهو من أراه الله ملكوت السماوات والأرض.

إذن، فقد كان خليل الله إبراهيم عليه السلام عَلَمٌ من أعلام الدنيا؛ هو شخصية فذة وقامة سامقة، وتجسدت في شخصيته صفات وفضائل عظيمة، وقد جعله الله مهيئاً وأهلاً لحمل رسالة التوحيد والإيمان، ووضع أساس ملة عظيمة واضحة المعالم تصلح لجميع الناس، وللأحوال كافة على مر الدهور، وكل هذا الجهد النبوي والصفات الجليلة عن خليل الله ثابتة بأدلة قطعية الثبوت من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

ونخلص أيضاً للقول: بأن كل الطوائف الدينية، وأتباع الديانات السماوية تنازعوا في الانتساب لإبراهيم الخليل عليه السلام، وذلك نظراً لمنزلته – عليه السلام – في التاريخ والدين وحياة البشرية، فهو أمة، إذ جعله الله إماماً، وجعل في ذريته النبوّة والرسالة، حيث يدعي اليهود والنصارى والعرب (المشركون) الانتساب له عبادة وعقيدة ودماً، مع أن هذه الطوائف بعيدة كل البعد عن دين إبراهيم عليه السلام والرسالة الإيمانية الراسخة، فإبراهيم وأبناؤه الأنبياء لم يكونوا يهوداً، ولم يكونوا

نصارى، ولم يكونوا مشركين، وإنما كانوا مسلمين حنفاء، وكل منهم كان يوصي أولاده، وهو على فراش الموت، بالإسلام.

ويمكننا أن نلخص أهم ماورد في هذا الكتاب من مواقف ووقفات، وحقائق علمية حول سيرة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ونهجه القويم في حمل رسالة الإسلام، والتي استندت من بدايتها إلى نهايتها إلى كتاب العزيز الحكيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

1. تتفرع شجرة النبوّة من إبراهيم عليه السّلام، حتى خاتم الرسل - صلوات الله عليهم - من نسله؛ لأنه من ولد إسماعيل، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:27].

2. كانت حياة إبراهيم - عليه السّلام - تجسد دعوته لتوحيد الله عزّ وجل وإفراده بالعبادة في مجتمع بلاد ما بين النهرين في بداية دعوته ثم بلاد الشام ومصر والحجاز.

3. كانت مصر وبابل دولتين مزدهرتين في زمن إبراهيم عليه السّلام، قامت فيهما أرقى حضارات العصور القديمة.

4. إنَّ تاريخ البشرية لم يسجل أنَّ عقلاً واحداً من العقول الكبيرة النادرة اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية والمتوسطة بالرسالة: لا في تصور اعتقادي، ولا في خلق نفسي، ولا في نظام حياة، ولا في تشريع واحد لهذا النظام.

5. إنّ قصةَ إبراهيم - عليه السّلام - هي أطول قصة قرآنية بعد قصة سيدنا موسى - عليه السّلام - ومساحتها تزيد عن الجزء، وإن آياتها نزلت مبكرة في المرحلة المكيّة واستمر نزولها حتى أواخر المرحلة المدنيّة.

6. تناثر مشــاهد قصــة إبراهيم في ثنايا القرآن الكريم، يشــير إلى أن إبراهيم – عليه السّـــلام – رمزٌ من رموز دعوة التوحيد وإفراد الله بالعبادة، ومعلَمٌ من معالم الطريق الحقّ، فينبغي أن يبقى هـذا الرمز الـداعي إلى التوحيـد وإلى عبـادة الله ومحاربة الشرك والكفر حاضراً في الذهن لا ينساه المسلم أبداً.

7. إنَّ قصـة إبراهيم – عليه السّـلام – في القرآن الكريم أصـلية ولا وجود لها في التوراة أو في الكتابات الإنجيلية.

8. احتفى القرآن الكريم بإبراهيم – عليه السّلام – في طفولته وشبابه ورجولته، كذلك يستمر الاحتفاء به في مرحلة شيخوخته في موطنه الجديد، وما أسبغ الله تعالى عليه من المال والأنعام والمنزلة والعالية عند الله تعالى، حيث تمر به ملائكة الربِّ سبحانه مبشرة مخبرة.

9. كان إبراهيم – عليه السّـــلام – أول مهاجر في ســـبيل الله، ومعه لوط ابن أخيه وزوجه سارة.

10. إنَّ إبراهيم عليه السلام قام بواجبه في تعليم المؤمنين بالله مناسك الحج وفق ما أمره الله، وأوحى إليه من المناســـك الحج وفق ما أمره الله، وأوحى إليه من المناسـك وجدّد هذه الفريضـة بعد ما اندثرت وانحرفت مع مرور السـنين ووسـائل إبليس نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم.

11. تنازعت الطوائف الدينية في إبراهيم عليه الســـلام، وكل واحدة ادّعت انتســـابها إليه وســـيرها على طريقته، وما ذلك إلا لمنزلة إبراهيم عليه الســـلام في التاريخ والدين والحياة فهو أمة، وجعله الله إماماً وجعل في ذريته النبوّة والكتاب، وأشـــهر الطوائف التي ادعت انتســـابها إليه ثلاث: اليهود، والنصـــارى، والعرب المشركون.

12. حاز إبراهيم – عليه السّلام – صفة الصدّيق بأوسع معانيها وأعلى مراتبها، فهو كثير الصدّق، لم يقع في معصية الكذب قط، وقد صدق بقوله واعتقاده وفعله، فاستحق أن يكون خليل الرحمن.

13. إبراهيم هو أقرب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى نبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم، ولا يخفى ما في هذا من فضل ومزية لإبراهيم، فَهُما – على الرغم من البعد الزماني بينهما– قريبان في المحبة، وقريبان في منزلتهما عند الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾.

14. تأثرت الروايات التاريخية بالإسرائيليات التي دخلت على المسلمين، ومن الشعبيات التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل ويرددونها من غير وعي أو شعور وأن الباني الحقيقي لهذا السور – المضروب على قبر إبراهيم– هو شخص يقال له "هيرودوس" الأدومي، وقد كان ملكاً على فلسطين مؤيَّداً من قبل الرومان.

الفصل الرابع:
موسى كليم الله (عليه السلام) ... عدو المستكبرين وقائد المستضعفين

تمهيد

موسى من الرسل الذين واجهوا المعاناة والعذاب والرفض من فرعون وقومه، وهو من أولي العزم من الرسل عليهم السلام وتظهر مكانة موسى عليه السلام وفضله من خلال ما وصفه الله تعالى به وما ورد في السنة من ذلك، فهو العبد الذي أحسن ووفّى فكرّمه الله تعالى تكريماً يليق بمكانته، وأثنى عليه وحفظ لنا قصته في كتابه العزيز ومراحل عمره من شبابه إلى كهولته ورسالته، وجهاده وكفاحه ضد الاستبداد، بل أخذت سيرته وقصته في القرآن حيزاً كبيراً وأصبحت من أكثر القصص وروداً في القرآن سواء قصته مع فرعون، أو قصته مع بني إسرائيل بعد نجاتهم من فرعون، فلا تكاد تخلو سورة من السور الطويلة أو المتوسطة من قصته.

وموسى عليه السلام من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وحارب فرعون ونظامه الظالم بالعقل والحكمة والحجج والبراهين، وجعله الله سبباً في إنقاذ بني إسرائيل من النظام الاستبداديِّ الفرعوني، وقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات حميدة وأخلاق كريمة، كان كثير الدعاء لله عزَّ وجَلَّ، والتضرع بين يديه وشديد الخوف منه، ومتوكلاً عليه، صابراً على تكاليف الدعوة ومشاقّها، صادقاً مع ربه، شجاعاً لا يخاف إلا الله، عالماً وحكيماً وأميناً وقوياً ورحيماً ومعيناً للمستضعفين، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة التي عاش بها وسط الناس، ودعا إليها وعلّمها لمن استجاب لدعوته، وقد أسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي والمنهج الرباني الذي سار عليه الموحدون لله عزَّ وجَلَّ في عهده وبعد وفاته.

المبحث الأول: موسى عليه السلام (اسمه ونسبه ومكانته):

موسى – عليه السلام – هو ابن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأسرته من بني إسرائيل، فأبوه عمران، وأمُّه يوكابد بنت الوي، وأخته الكبرى مريم بنت عمران، وأخوه الأوسط هارون بن عمران، وأولاده – حسب الطّبريّ – هما: جرشون وإيليعاز(126). ولد موسى في مرحلة من مراحل الحكم الفرعونيّ لمصر، في السّنة السّابعة من حكم رمسيس الثّاني، وعاش وكَبِرَ في بيت فرعون؛ ليكون عدّواً للمستكبرين وعوناً للمستضعفين.

عرضَ القرآن الكريم موكبَ الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ويعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً، ولا يُراعي التسلسل التاريخي في العرض، لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ(٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ

---

(126) قصص الأنبياء، الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ط3، 1408هـ/ 1988م، ص٣٣٧.

(٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (٩٠)﴾[الأنعام: ٨٣-٩٠].

وأخذ موسى – عليه السَّلام – مكانته العظيمة في موكب الأنبياء والمرسلين والرَّهط الكرام الذين قادوا مواكب المؤمنين وجموعهم على مرِّ الأزمان، وكان موسى – عليه السَّلام – من الدُّعاة إلى الإيمان بالله، وحظي بالمكانة البالغة في قلوب العصبة المسلمة حتّى يومنا هذا.

المبحث الثاني: قصة موسى (عليه السلام) في القرآن الكريم:

إنها القصة الأطول في القرآن الكريم التي تتحدث عن دعوة نبي الله ورسوله موسى عليه السلام، ولذا كان لا بد من الوقوف على الآيات وتفسيرها والتفكر بها أيّ التي ركزت على القصة وتفاصيلها وشروحها والدراسات التي استفاضت في سردها.

أولاً: قصة موسى عليه السلام في سورة القصص:

جاءت قصة موسى عليه السلام مفصلة في سورة القصص أكثر من غيرها، فهي تفصيل لما أوجز في الشعراء والنمل، حيث تعرضت لحلقات القصة المتعلقة بمولده، والتقاط آل فرعون له، ورضاعته وتربيته داخل بيت فرعون وتذبيحه بني إسرائيل وقتله القبطي خطأ، ثم فراره إلى مدين، فسقيه للمرأتين، فاتصاله بأبيهما، فزواجه من إحداهما ثم عودته ومناجاته لربه(127).

وتتسم قصة موسى عليه السلام في سورة القصص بسمات أهمها:

- جاءت بأسلوب فيه إطناب وتفصيل في كثير من المواضع.

---

(127) تصريف القول في القصص القرآني، محمَّد صافي المستغانمي، المصدر السابق، ص٢٤٣.

- جاء فيها مشاهد لم تأت في غيرها مثل: الحديث عن مولده والتقاط آل فرعون له ورضاعته وفراره إلى مدين وسقيه المرأتين، واتصاله بأبيهما وزواجه بإحداهما ثم القفول إلى مصر من جديد[128].

- السورة على الرغم من اسمها الدال على أكثر من قصة إلا أنها لم تعالج إلا قصة موسى عليه السلام، وكأن في ذلك إشارة إلى أن هذه القصة لما اشتملت عليه من دروس وعبر وما اشتملت عليه من مواقف، فإنها تستحق هذا الاسم الجامع "القصص"، ففيها عبرة القصص القرآني ودلالاتها جميعها، وسورة القصص تقدم قصة كليم الله عليه السلام في مسار واضح محدد فهي تتحدث عن بنية المجتمع، وكيف يمكن معالجة الاختلالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيه؟

وقد ورد في سورة القصص حديث عن معظم الشخصيات الأساسية التي كانت في القصة القرآنية عموماً، كما قدمت تصوراً واضحاً عن بنية هذا المجتمع وأطراف الصراع فيه. ففي الشخصيات تحدثت عن مواقفها، وعن خصائصها وعن دورها في سياق بناء المجتمع أو هدمه، وهذه الشخصيات هي:

- موسى عليه السلام.
- قارون.
- السحرة.
- الملأ.

---

(128) المستغانمي، المصدر السابق، ص٢٤٣.

- أم موسى.
- هارون عليه السلام.
- الرجل الصالح.
- البنتان.
- امرأة فرعون.
- أخت موسى.
- فرعون.

وفي جانب المجتمع، قدمت سورة القصص ثلاثة أطراف رئيسة:

الأول: فرعون، والذي يمثل حقيقة نموذج الاستبداد؛ "فهو يشكل مؤسسة ومنهجاً للاستبداد".

الثاني: الفئة المستضعفة، وتتشكل من بني إسرائيل وبقية الشعب المستضعف.

والثالث: الفئة المسؤولة عن الإصلاح والتوجيه والإرشاد الذي من هدفه وشأنه أن يمسّ بالفئتين السابقتين، وهذه الفئة يمثلها موسى وهارون عليهما السلام، والمصلحين معه كمؤمن آل فرعون.

وآيات السورة تحدد ذلك بوضوح تام؛ فهي تقدم لنا أولاً مؤسسة الاستبداد والظلم، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٤]، هذه هي الفئة المستقوية التي ظَلمت وبَطشت وتَعدت وأَفسدت ومارست التفريق والتقسيم بين أبناء المجتمع والبُعد الشخصي فيها واضح وبارز، لأن فرعون جعل

الأمور كلها تدور في فلكه الشخصي، ومن هنا جاءت أوصافه كثيرة ومتعددة في القرآن بما يشير إلى طبيعة هذا المنهج وخطورته(129).وإليك سرد هذه الأوصاف التي تتصل بفرعون:

- التألّه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾[القصص:٣٨].
- الاستعلاء: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[القصص:٤].
- الاستكبار: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ﴾[القصص:٣٩].
- الظلم: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٤٠].
- الإفساد: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص:٤].
- الخطأ والتجاوز والتعدي: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾[القصص:٨].
- الفسق: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[القصص:٨].
- الغفلة: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[القصص:٣٩]، وكذلك قال عنه في سورة غافر: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[غافر:٢٧].
- الاستخفاف: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾[الزخرف:٥٤].
- التولي: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[الذاريات:٣٩].

---

(129) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، الدقور، ص١٦٩.

- الاستعباد: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الشعراء:٢٢].

- الاستقواء: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف:٥١].

- مسرف مرتاب: ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[يونس:٨٣]، ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾[غافر:٣٤].

ولا شكّ أن هذه الأوصاف لما لها من خطورة وأثر في تكريس سلطة الظلم والاستبداد، فالقرآن يبصّرنا بمنهج التعامل معها، لذلك فقد ذكرت لنا هذه السورة الكريمة مكونات هذه الفئة المستبدة، وبيّن لنا مواقفها ومصيرها وتقوم هذه الفئة على السعي لتحقيق مشروعها من خلال تجميع جهود مكوناتها الأساسية، وتتشكل مكونات هذه المؤسسة المستبدة مما يلي:

- الزعامة القيادية: فرعون.
- الزعامة الاقتصادية: قارون.
- الزعامة السياسية: هامان.
- الدعامة العسكرية: الجند.
- الدعامة الإعلامية: السحرة.
- الدعامة الاستشارية: الملأ.

وفي مقابل هذه الفئة تقدم لنا السورة الفئة المستضعفة المكونة من بني إسرائيل وبقية الشعب الذي قسمته تلك الفئة المستبدة الظالمة لتجعله مشرذماً بشعاً وطوائف،

وتوضح لنا السورة أن هذه الفئة فئة مستسلمة مستضعفة، لذلك فهي تحتاج إلى تقوية مسارها الاجتماعي وتفعيله وتحويله لتخرج من حالة الاسترقاق إلى حالة الحرية، ومن حالة الاستخفاف إلى حالة الاستثقال، وقد فصل لنا القرآن الكريم في حياة هذه الفئة وتحديداً في حالة بني إسرائيل حيث ذكر لنا مواقفهم وتطور حالهم وهو ما أخذ مساحة لا بأس بها من أحداث القصة عموماً.

وإذا كان رهان أصحاب المشروع الاستبدادي في بقاء تلك الفئة المستضعفة على حالها، فإن الرهان أيضاً عند الفئة المصلحة يتمثل في جانبين:

- أن يُخرجوا هؤلاء المستضعفين عن حالهم إلى حالة الوعي والرشد والفاعلية.
- كما أن واجبهم أيضاً منع استبداد أولئك وتعديهم وإفسادهم ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)﴾[القصص:٥-٦].

إن هذه الفئة المصلحة لها مشروعها الذي تمتلكه وتعمل لتحقيقه، فإن المشروع لا يواجه إلا بالمشروع، والمشروع في هذه القصة يمثل منهج الدعوة والإيمان، ومنهج بناء القيم الذي يقدم للإنسان -مستضعفاً أو مستقوياً- هوية جامعة تحقق له مساره الإيماني المبني على توحيد الله تعالى وتحقيقي العبودية له وحده.

وتقدم السورة الكريمة (سورة القصص) هذا المشروع في معالم محددة واضحة، فإذا كان مشروع فرعون يقوم على الاستبداد والظلم والاستقواء والفساد وتحقيق مصلحة الفئة الخاصة على حساب المجتمع، فإن هذا المشروع تتكامل مقوماته لتحقق الحرية

للإنسان ليحقق عبوديته المطلقة التي تحرره أولاً من الخضوع لغير الله تعالى، ويقوم هذا المشروع على أسس رئيسة هي:

- الارتباط بالله تعالى وإخلاص التوجه إليه فالله تعالى هو من يوقف أصحاب هذا المشروع ويرشد سعيهم فيمُن عليهم بذلك ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾[القصص:٥].

- وضوح هدف المشروع وقيمه، فهي ترتبط بتحقيق قيم الدين التي جاءت لتحرير الإنسانية فتربطها بالله تعالى، وهذا يؤكد قيام هذا المشروع على قيم الدين الحق الذي جاء به جميع الأنبياء ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص:٥].

- السعي نحو نتيجة جامعة لكل أبناء المجتمع الذين يتفاعلون مع هذا المشروع وينتمون إليه، فهم يسعون إلى تحقيق التمكين المجتمعي الذي يقوم على تلك القيم الواضحة المحددة النابعة من الإسلام، دين جميع الأنبياء ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص:٦].

- ضبط نقطة البداية وتوجيهها، فإن الفاعلية في العمل لهذا المشروع لا تتحقق بمجرد الأماني، ولا تتم في يوم وليلة، بل تحتاج إلى إعداد، وبناء مشروع جديد لمواجهتها ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧]، فالإعداد يكون من المراحل الأولى في حياة الأجيال وبناء توجهها.

- شمولية المشروع واستهدافه للجميع، بحيث لا يغيب عنه أي مكون من مكونات المجتمع حتى لو كان متعدياً متجاوزاً، فإن له فيه مكاناً، وإن

عارضــه أو رفضــه فإنه يحكم على نفســـه بالزوال والاندثار ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص:٦].

إن أصحاب المشروع هم الذين يأخذون على عاتقهم الوقوف في كل ما يستهدف مجتمعهم، هم الذين يحرصون على المحافظة على سفينتهم وتوجيهها.

في ضـوء ما تقدم يمكن أن نفهم أحداث هذه القصـة وتفصـيلات مواقفها، ويمكننا كذلك معرفة الجهود التي بذلها موسى وهارون (عليهما السلام) في سعيهم لتحفيز الفئة المستضعفة وتفعيل طاقاتها وتحويل مسارها نحو النصر والتمكين ومعرفة كل ما واجهه في سبيل ذلك[130].

إن سورة القصص نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والســلطان، نزلت هذه الســورة لتضــع الموازين الحقيقة للقيم والقوى، نزلت تقرر أن هناك قوّة واحدة في هذا الوجود هي قوة الله تعالى، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرداً من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ســـاندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً [131].

---

(130) القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، الدقور، المصدر السابق، ص 171 – 172.
(131) في ظلال القرآن، (٥/٢٢٦٧٤).

ثانياً: قصة موسى (عليه السلام) في سورة طه:

سـورة طه، سـورة مكية وآياتها خمس وثلاثون ومئة آية، وهي تبحث عن الأهداف نفسـها للسـور المكية، وغرضـها الأسـاسـي التركيز على أصـول الدين من التوحيد والنبوة والبعث والنشور (132).

وتبدأ هذه السـورة وتختم بخطاب الرسـول -ﷺ- ببيان وظيفته وحدود تكاليفه وفي شـدّ أزره وتقوية روحه، حتى لا يتأثر بما يلقى إليه من السـفاهة والعناد والتكذيب ولإرشـاده وتذكيره بوظيفته الأسـاسـية الإبلاغية، وعدم إجباره الناس على الإيمان (133).

وبين المطلع والختام تَعرِضُ سورة طه قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسـرائيل للعجل بعد خروجهم من مصـر مفصـلة مطولة، ولا سـيما موقف المناجاة بين الله ونبيه موسـى عليه السـلام، وموقف الجدل بين موسـى وفرعون، وموقف المبارزة بين موسى والسحرة.

وتتجلى في هذه القصـة رعاية الله تعالى لموسـى وحفظه من الولادة وحتى إهلاك أعداء الله، وفي ثنايا سـورة طه تبرز بعض مشـاهد يوم القيامة في عبارات يرجف لها الكون، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً، كما عرضـت القصـة يوم الحشـر الأكبر، وفيه يتم الحسـاب العادل ويعود الطائعون إلى الجنة ويذهب العصـاة إلى النار، وتعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطئِه، وهدايته له، وترك البشـر من أبنائه لما يختارون من هدي أو ضـلال بعد التذكير والإنذار، ومن ثم تختم

---

(132) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، القاهرة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997م، ص٧٠٠.

(133)في ظلال القرآن، (٢٣٢٦/٤).

هذه السورة ببعض التوجيهات الربانية للرسول -ﷺ- في الصبر وتحمل الأذى في سبيل حتى يأتي نصر الله [134].

ثالثاً: قصة موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء:

موضوع هذه السورة الرئيسي هو موضوع السور المكية جميعها تتلخص في العقيدة، وتجمع في عناصرها الأساسية: توحيد الله، والخوف من الآخرة، والتصديق بالوحي المنزل على محمد رسول الله والتخويف من عاقبة التكذيب، إما بعذاب الدنيا الذي يدمر المكذبين، وإما بعذاب الآخرة الذي ينتظر الكافرين، وجسم السورة هو القصص، والسورة هي هذا القصص مع مقدمة وتعقيب، والقصص والمقدمة والتعقيب تؤلف وحدة متكاملة متجانسة تعبر عن موضوع السورة وتبرزه في أساليب متنوعة، تلتقي عند هدف واحد ومن ثم تعرض من كل قصة الحلقة أو الحلقات التي تؤدي هذه الأغراض.

ويغلب على القصص كما يغلب على السورة كلها جو الإنذار والتكذيب والعذاب الذي يتبع التكذيب، ذلك أن السورة تواجه تكذيب مشركي قريش لرسول الله ﷺ واستهزاءهم بالنذر وإعراضهم عن آيات الله واستعجالهم بالعذاب الذي يَعدهم به، مع التقول على الوحي والقرآن بالادعاء بأنه سحر أو شعر تتنزل به الشياطين، والسورة كلها شوط واحد -مقدمتها وتعقيبها- في هذا المضمار، لذلك نقسمها إلى فقرات ومحاور بحسب ترتيبها، ونبدأ بالمقدمة قبل [135] قصة موسى عليه السلام في السورة.

---

(134) إستراتيجية توجيه الخطاب في القرآن الكريم؛ سورة طه نموذجاً، مشعل عبيد الشمري، إشراف الدكتور خالد بن دومي، رسالة ماجستير، الأردن، جامعة اليرموك، 2014م، ص٥٦.
(135)في ظلال القرآن، (٤/٢٥٨٥-٢٥٨٧).

وإن قصة موسى عليه السلام تجيء في هذه السورة متناسقة مع موضوع السورة، ومع اتجاهها إلى بيان عاقبة المكذبين بالرسالة وإلى طمأنة الرسول ﷺ وتعزيته عما يلقاه من إعراض المشركين وتكذيبهم، وإلى رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعداؤهم أقوياء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل، وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة -وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم.

وقد وردت حلقات من قصة موسى عليه السلام في سورة البقرة، وسورة المائدة وسورة الأعراف وسورة يونس، وسورة الإسراء وسورة الكهف، وسورة طه، وهناك إشارات إليها في سور أخرى وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة أو السياق الذي تعرض فيه على نحو ما في هذه السورة وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق.

وإن الحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب، وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء هذا التكذيب وعقاباً على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين، ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وهذه الحلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية بينهما فجوات بمقدار ما يسدل الستار على المشهد، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه وهي ظاهرة فيه ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة [136]. ونجد هنا مشاهد سبعة، وهي:

أولها: مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى عليه السلام وربه.

---

(136) في ظلال القرآن، (٥/٢٥٨٨).

ثانيها: مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه برسالته وآيتي العصا واليد البيضاء.

وثالثهما: مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى.

ورابعهما: مشهد السحرة بحضرة فرعون يطمئنون على الأجر والجزاء.

وخامسهما: مشهد المباراة ذاته وإيمان السحرة وتهديد فرعون ووعيده.

وسادسهما: مشهد ذو شقين: الشق الأول مشهد إيحاء الله لموسى أن يسري بعباده ليلاً، والثاني: مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل.

وسابعهما: مشهد المواجهة أمام البحر ونهايته من انفلاق البحر وغرق الظالمين ونجاة المؤمنين وقد عرضت هذه المشاهد في سورة الأعراف وفي سورة يونس وفي سورة طه، ولكنها عرضت في كل موضع من الجانب الذي يناسب ذلك الموضع وبالطريق التي تتفق مع اتجاهه وكان التركيز فيها على نقط معينة هنا وهناك.

ففي سورة الأعراف مثلاً بدأ بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون مختصراً، ومر بمشهد السحرة ونهايته سريعاً، بينما وسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه بعد ذلك وعرض آيات موسى مدة إقامته في مصر بعد المباراة قبل مشهد الغرق والنجاة، ومن ثم بعد ذلك مع بني إسرائيل بعد مجاوزتهم البحر في حلقات كثيرة، واختصر هذا المشهد فلم يشر إليه، بينما وسع في مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبيﷺ.

وفي سورة طه توسع في مشهد المناجاة الأول بين موسى وربه واستطرد بعد مشهدي المواجهة والمباراة، فصاحب بني إسرائيل في رحلتهم طويلاً ولم يجاوز هنا مشهد الغرق

والنجاة، وكذلك لا تجد تكراراً في عرض القصة أبداً على كثرة ما عرضت في سور القرآن، لأن هذا التنويع في اختيارات الحلقات التي تعرض، ومشـاهد كل حلقة والجانب الذي يختار من كل مشهد، وطريقة عرضه كل أولئك يجعلها جد في مواضع متناسقة مع هذا الموضع (137).

رابعاً: قصة موسى عليه السلام في سورة غافر:

1. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)﴾ [غافر:٢٣-٢٧].

لما سلّى الله تعالى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا بالأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، سلّاه أيضاً بذكر قصة موسى عليه السلام التي دلّت على أنه مع قوة معجزاته، كذّبه فرعون وهامان وقارون، وقالوا عنه: هو ساحر كذاب ولكن في النهاية تنتصر عليهم وتلك بشارة لنبينا ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام (138).

2. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ

---

(137)في ظلال القرآن، (٥/٢٥٨٩).

(138)تفسير المنير، (٢٤/١٠٤).

لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (٣١) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (٣٤) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)﴾ [غافر:٢٨-٣٥].

بعد أن حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع شر فرعون الذي عزم على قتله، على الاستعاذة بالله، أبان الله تعالى أنّه قيّض له رجلاً من آل فرعون يدافع عنه لتسكين الفتنة وإزالة الشر، واشتمل دفاعه على أمور ثلاثة كبرى هي:

- الأولى: استنكار قتل موسى المؤمن بربه، المستضعف مع قومه في مواجهة قوم فرعون.

- الثاني: تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

- الثالث: تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام من تكذيب رسالته ورسالة من بعده (139).

---

(139) تفسير المنير، (١١٢/٢٤).

3. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (٣٧)﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

بعد وصف فرعون بأنه متكبر جبار، أخبر الله تعالى عن عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى عليه السلام حتى بلغ به الأمر أن أمر وزيره ببناء قصرٍ عال منيف شاهق من الآجر، ليصعد به إلى السماء للاطلاع إلى إله موسى؛ قاصداً بذلك التحدي والتمويه والاستهزاء بموسى وإنكار رسالته [140]، توجه فرعون إلى وزيره هامان وطلب منه بناء صرح له ليبحث عن إله موسى في السماء.

4. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾ [غافر: ٣٨-٤٦].

(140) التفسير المنير، (١٢٢/٢٤).

هذا بقية كلام مؤمن آل فرعون، فإنه أعاد عليهم النصح مرة أخرى حينما رآهم يتمادون في كفرهم وبغيهم، ونادى قومه ثلاث مرات في المرة الأولى، دعاهم في الآيات السابقة إلى قبول الدين الذي دعا إليه موسى على سبيل الإجمال وفي المرتين الأخيرتين على سبيل التفضيل، فدعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه طريق الرشاد، ثم حذرهم من الاغترار بالدنيا وحثهم على العمل للآخرة لدوامها وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم إلى عبادة الأصنام طريق النار، ثم أخبر سبحانه عن وقايته وعصمتهم من السوء الذي دبّروه له وإغراق آل فرعون وإدخالهم في جهنم يوم القيامة (141).

خامساً: قصة موسى عليه السلام في سورة الزخرف:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)﴾ [الزخرف:٤٦-٥٦].

(141)التفسير المنير، (١٢٨/٢٤).

جاءت قصة موسى مع فرعون في سورة الزخرف والتي ذكر فيها قصص بعض الأنبياء من أولي العزم كإبراهيم الخليل وموسى وعيسى عليهم السلام ليعتبر الناس بها ويتعظوا بأحداثها ونتائجها، وفيما يتعلق بموسى عليه السلام بدأت السورة بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه وقوله لهم ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحينما يجيئهم بالآيات فإنهم يفاجئونه بضحكهم وسخريتهم منها وهزئهم بها؛ مع أن الآيات التي جاء بها موسى عليه الصلاة والسلام كانت كل واحدة منها كافية لإيمانهم، فليس هناك آية إلا وهي أكبر من أختها؛ لأن في كل آية ميزة لا توجد في غيرها وقد أخذوا بالعذاب عليهم يرجعون عن غيهم الذي هم فيه سادرون، ولما رأوا العذاب قد أحاط بهم هرعوا لموسى -عليه الصلاة والسلام- قائلين له ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ ومناداتهم له بهذا الوصف قد يكون وصفاً له بالعلم والمهارة، فلم يكن السحر صفة نقص عندهم هذا ما قاله بعض المفسرين، ولكن الذي نرجحه أنهم إنما نادوه بذلك لأنهم كانوا عازمين على عدم الإيمان في قلوبهم، ونستأنس لهذا بقولهم ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولو كان إيمانهم صادقاً لقالوا "ربنا"، سألوه أن يدعو لهم ربه بما عهد عنده من إجابة الدعوة أن يكشف عنهم الرجس حتى يهتدوا ولكنهم -وقد كشف عنهم الرجس- نكثوا ولم يؤمنوا.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، وهم حديث لا نجده إلا في سورة الزخرف، فها هو ينادي في قومه: أليس في ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ذلك أن تبصرونه؟ ثم يبين اعتداده بنفسه وسخريته بموسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ فهو لا يملك شيئاً من أسباب القوة وعلامات الملك فضلاً على أنه لا يحسن الإبانة في قوله، ولو كان موسى عليه السلام صادقاً فهلا ألقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدقة له؟ ولكن شيئاً لم يكن لهم، نجد شيئاً من أسباب

النعمة ظاهراً عليه، ولم يجيء أحد من الملائكة يصدقه فيما يقول، وهكذا استخف فرعون قومه، استخف عقولهم فلعب بها، وهذا شأن كل رعية ضعيفة ومن هنا كان من أهل النار، كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: الضعيف الذي لا زَبرَ له -أي لا عقل- الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً [142].

هكذا كان قوم فرعون، وهذا ما يجعل الشعوب تنحدر فتستمرئ الذل، ومرجع ذلك كله: الفسق والخروج عن منهج الله، فلما أغضبوا الله تبارك وتعالي انتقم منهم، وجعلهم قدوة لمن بعدهم من أهل الضلال، كما جعلهم مثلاً يمكن أن يتعظ به الآخرون، هذا ما جاء في سورة الزخرف وهو إن تدبرناه نجده يتسم بالجدة في كل جزيئاته [143].

وقد جاء الحديث عن موسى وصراعه مع فرعون في سياق تسلية الرسول ﷺ عما يعترض به المعترضون من كبراء قومه على اختياره واعتزازهم بالقيم الباطلة لغرض هذه الحياة الدنيا، وقد بينت سورة الزخرف اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، وتباهيه بما له من ملك من سلطان وتساؤله في فخر وخيلاء: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، وانتفاخه على موسى -عبد الله ورسوله- وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، واقتراحه الذي يشبه ما يقترحه: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ وكأنما هي نسخة تكرار أو أسطوانة تعاد.

---

(142) صحيح مسلم، كتاب الجنة، رقم ٢٨٦٥.

(143) قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس، ص٥٤٩.

ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة على الرغم من الخوارق التي عرضـها عليهم موسـى عليه السـلام، وعلى الرغم مما أصـابهم من ابتلاءات واسـتغاثتهم بموسـى ليدعو ربه فيكشـف عنهم البلاء، ثم كيف كانت العاقبة بعدما ألزمهم الله الحجة بالتبليغ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)﴾، وها هم أولاء الآخرون لا يعتبرون ولا يتذكرون، ومن خلال هذه الحلقة تتجلى وحدة الرسـالة، ووحدة المنهج ووحدة الطريق كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في اسـتقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض، وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون [144].

سادساً: قِصَّة موسى (عليه السَّلام) مع بني إسرائيل في سورة البَقَرة:

وردت قصة موسى كليم الله (عليه السلام) في أطول السور القرآنية، وبحثت سورة البقرة في قصـة بني إسـرائيل وكيدهم للدعوة النبوية في المدينة المنورة ونكران الحق، وكذلك بحثت سورتا النساء والمائدة قصة بني إسرائيل مع موسى وعنادهم في مرحلة الدعوة النبوية، فكانوا أول من واجه الدعوة بالعداء والكيد والحرب في الجزيرة العربية كلها.

سـورة البقرة أطول سـورة في القرآن، وهي مدنية، وتُعنى كغيرها من السـور المدنية بالتشريع المنظم لحياة المسلمين في المجتمع الجديد بالمدينة، مجتمع الدين والدولة معاً، فلا يتفاضـل إحداهما على الآخر، وإنما هما متلازمان تلازم الجسـد والروح، لذا كان التشريع المدني قائماً على تأصيل العقيدة الإسلامية، ومبدؤها الإيمان بالله وبالغيب وبأن مصدر القرآن هو الله عزّ وجل، والاعتقاد الجازم بما أنزل الله على رسوله وعلى

(144)في ظلال القرآن، (٥/٣١٩٢).

الأنبياء الســـابقين، وبأن العمل الصـــالح ترجمان ذلك الإيمان ويتمثل بعقد صـــلة الإنسان مع ربه بواسطة الصلاة ويتحقق أصول التكافل الاجتماعي بواسطة الإنفاق في سبيل الله عزّ وجل [145].

وتحدثت الســـورة عن صـــفات المؤمنين والكافرين والمنافقين لعقد مقارنة بين أهل النجاة وبين أهل الدمار والهلاك، كما يقتضـــي التحدث عن قدرة الله عزَّ وجلَّ ببَدْءِ الخَليقة وتكريم آدم أبي البشر بسجود الملائكة وترتيب الـــمَولى ما حدث معه وزوجه في الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض [146].

وفي هذه الآيات الكريمة من سورة البقرة كان الحديث عن بني إسرائيل أولئك الذين واجهوا الدعوة في المدينة مواجهة مُنْكَرة، وقاوموها مقاومة خفية وظاهرة، وكادوا لها كيداً موصـــولاً، لم يفتُر لحظة منذ أن ظهر الإســـلام بالمدينة، وتبين لهم أنه في طريقه إلى الهيمنة على مقاليدها وعزلهم عن القيادة الأدبية والاقتصادية التي كانت لهم، منذ وحَّد الأوس والخزرج، وسَـدَّ الثَّغَرات التي كانت تنفَذ منها يَهُودُ، وشـرع لهم منهجاً مستقلاً يقوم على أساس الكتاب الجديد.

هذه المعركة التي شـنّها اليهود على الإســـلام والمســـلمين منذ ذلك التاريخ البعيد لم يَخْبُ أُوارُها حتى اللحظة الحاضرة بالوسائل نفسِها وبالأساليب نفسِها، لا يتغير إلَّا شـــكلُها، أمَّا حقيقتها فباقيةٌ، وأما طبيعتها فواحدة، وذلك على الرغم من أن العالم كله كان يطاردهم من جهة إلى جهة، ومن قرن إلى قرن، فلا يجدون لهم صـــــدراً حنوناً إلا العالم الإســـلامي المفتوح الذي ينكر الاضـــطهادات الدينية والعنصـــرية، ويفتح أبوابه لكل مسالم لا يؤذي الإسلام، ولا يكيد للمسلمين.

---

(145)التفسير المنير، (٧٢/١).

(146)المصدر نفسه، (٧٣/١).

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة، ويؤمن بالرسول الجديد، مذ كان القرآن يصدق ما جاء في التوراة في عمومه، ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول، وعندهم أوصافُه في البشارات التي يتضمَّنُها كتابهم. وهذا الدرس هو الشطر الأول في هذه الجولة الواسعة مع بني إسرائيل، بل هذه الحملة الشاملة لكشف موقفهم وفضح كيدهم بعد استنفاد كل وسائل الدعوة معهم لترغيبهم في الإسلام والانضمام إلى موكب الإيمان بالدين الجديد (147).

يبدأ هذا الدرس بنداء علوي جليل إلى بني إسرائيل، يذكّرهم بنعمته تعالى عليهم، ويدعوهم إلى الوفاء بعهدهم معه ليوفي بعهده معهم، وإلى تقواه وخشيته يمهد بها لدعوتهم إلى الإيمان بما أنزله مصدّقاً لما معهم، ويندد بموقفهم منه وكفر به أول من يكفر، كما يندد بتلبيسهم الحق بالبطل وكتمان الحق؛ ليوهموا على الناس -وعلى المسلمين خاصة- ويشيعوا الفتنة والبلبلة في الصف الإسلامي، والشك والارتياب في نفوس الداخلين في الإسلام الجديد، ويأمرهم أن يدخلوا في الصفِّ، فيقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويركعوا مع الراكعين، مستعينين على قهر نفوسهم وتطويعها للاندماج في الدين الجديد بالصبر والصلاة وينكر عليهم أن يكونوا يدعون المشركين إلى الإيمان وهم في الوقت نفسه يأبون أن يدخلوا في دين الله مسلمين.

ثم يبدأ في تذكيرهم بنعم الله التي أسبغها عليهم في تاريخهم الطويل مخاطباً الحاضرين منهم كما لو كانوا هم الذين تلقوا هذه النعم على عهد موسى -عليه السلام- وذلك باعتبار أنهم أمة واحدة متضامنة الأجيال، متحدة الجبلة، كما هم في حقيقة الأمر وفق ما بدا من صفاتهم وموقفهم في جميع العصور ويعاود تخويفهم باليوم الذي

---

(147)في ظلال القرآن، (١/٦٤).

يُخاف، حيث لا تجزى نفس عن نفس شيئاً، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها فدية ولا يجدون من ينصرهم ويعصمهم من العذاب [148].

ويستحضر أمام خيالهم مشهد نجاتهم مع فرعون وملئه كأنه حاضر ومشهد النعم الأخرى التي ظلت تتوالى عليهم من تظليل الغمام إلى المن والسلوى إلى تفجير الصخر بالماء ثم يذكرهم بما كان منهم بعد ذلك من انحرافات متوالية ما يكاد يردهم عن واحدة منها حتى يعود إلى أخرى، وما يكاد يعفو عنهم من معصية حتى يقعوا في خطيئة، وما يكادون ينجون من عثرة حتى يقعوا في حفرة.

ونفوسهم هيَ هيَ في التوائها وعنادها وإصرارها على الالتواء والعناد، كما هيَ هيَ في ضعفها عن حمل التكاليف و... عن الأمانة ونكثها للعهد، ونقضها للعهد والمواثيق مع ربها ومع نبيها، حتى لتبلغ أن تقتل أنبياءها بغير الحق، وتكفر بآيات ربها وتعبد سواه، وتجحَدُ في حق الله، فترفض الإيمان لنبيها حتى ترى الله جهرة، وتخالف عما أوصاها الله به وهي تدخل القرية فتفعل وتقول غير ما أمرت به وتعتدي في السَّبْتِ، وتنسى ميثاق الطور، بل وتجادل في ذبح البقرة التي أمر الله بذبحها لحكمة خاصة وهذا كله يُبطِلُ الادّعاء العريض بأنها وحدها المهتدية وأن الله لا يرضى إلا عنها، وأن جميع الأديان باطلة وجميع الأمم ضالة عداها، مما يبطله القرآن في هذه الجولة ويقرر أن كل من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من جميع الملل، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون [149].

ونلاحظ من جانب التناسق الفني والنفسي في الأداء القرآني أن بدء هذه الجولة يلتحم بختام قصة آدم، وبالإيحاءات التي أشرنا إليها في كتاب بدي الخلق وقصة آدم

(148)المصدر السابق، (٦٤/١).

(149)المصدر السابق، (٦٥/١).

عليه السلام- وهذا جانب التكامل في السياق القرآني بين القصص والوسط الذي تعرض فيه، لقد مضى السياق قبل ذلك بتقرير أن الله خلق ما في الأرض جميعاً للإنسان، ثم بقصة استخلاف آدم في الأرض بعهد الله الصريح الدقيق وتكريمه على الملائكة والوصية والنسيان، والندم والتوبة، والهداية والمغفرة، وتزويده بالتجربة الأولى في الصراع الطويل في الأرض بين قوى الشر والفساد والهدم ممثلة في إبليس، وقوى الخير والصلاح والبناء ممثلة في الإنسان المعتصم بالإيمان.

مضى السياق بهذا كله في السورة ثم أعقبه بهذه الجولة مع بني إسرائيل، فذكر عهد الله معهم ونكثهم له ونعمته عليهم وجحودهم بها، ورتب على هذا حرمانهم من الخلافة وكتب عليهم الذلة وحذر المؤمنين كيدهم كما حذرهم مزالقهم، فكانت هناك صلة ظاهرة بين استخلاف آدم وقصة استخلاف بني إسرائيل واتساق في السياق واضح في الأداء، والقرآن لا يعرض هنا قصة بني إسرائيل، إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب وقد وردت القصة في السورة المكية التي نزلت قبل هذا ولكنها هناك كانت تذكر -مع غيرها- لتثبيت القلة المؤمنة في مكة بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة، فأما هنا فالقصد هو ما أسلفنا من كشف حقيقة نوايا اليهود ووسائلهم وتحذير الجماعة المسلمة منها، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبلها يهود.

ومن مراجعة المواضع التي وردت فيها قصة بني إسرائيل هنا وهناك يتبين أنها متفقة مع السياق الذي عرضت فيه متممة لأهدافه وتوجيهاته، وهي هنا متّسقة مع السياق قبلها سياق تكريم الإنسان والعهد إليه والنسيان متضمنة إشارات إلى وحدة الإنسانية ووحدة دين الله المنزل إليها ووحدت رسالاته مع لفتات ولمسات للنفس البشرية ومقوماتها وإلى عواقب الانحراف عن هذه المقومات التي نِيطت بها خلافة

الإنسان في الأرض، فمن كفر بها كفر بإنسانيته، وفقد أسباب خلافته، وارتكس في عالم الحيوان.

وقصة بني إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم والعناية بعرض مواقفها وعبرتها عناية ظاهرة، توحي بحكمة الله في علاج هذه الأمة المسلمة وتربيتها للخلافة الكبرى، فلننظر بعد هذا الإجمال في استعراض النص القرآني (150).

سابعاً: قصة بني إسرائيل وموسى (عليه السلام) في سورة النساء:

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)﴾ [االنساء:١٥٣-١٦١].

---

(150)المصدر السابق، (٦٦/١).

وقف اليهود في الجزيرة من الإسـلام ونبي الإسـلام ذلك الموقف العدائي المتعنّت المكشوف، وكادوا له ذلك الكيد المبيت العنيد المستمر، الذي وصفه القرآن الكريم تفصيلاً.

وفي هذه السـورة تتحدث الآيات عن تعنتهم وطلبهم إلى رسـول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السـماء كتاب مخطوط، ينزله عليهم من السـماء مجسـماً، يلمسـونه بأيديهم ويتولى الله عز وجل سـبحانه الإجابة عن نبيّه ويقصّ عليه وعلى الناس صفحة من تاريخهم مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السلام الذي يزعمون أنهم يؤمنون به، ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمد ﷺ.

إن هذه الجملة ليست جديدة عليهم، وليس طابع هذا الجيل وحده منهم، إنما هي في جبلتهم من قديم وهم هم تعنتاً وإعناتاً؛ فلا يسـلمون إلا تحت القهر والضـغط وهم هم كفراً وغدراً؛ فسرعان ما ينقلبون فينقضـون عهدهم -لا مع الناس وحدهم ولكن مع ربهم كذلك- وهم فيهم قِحَةٌ وافتراء؛ فلا يعنيهم أن يتثبتوا من قول، ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالمنكر، وهم هم طمعاً في عرَض الدنيا وأكلاً لأموال الناس بالباطل وإعراضـاً عن أمر الله وعما عنده من ثواب، إنها حملة تفضـحهم، وتكشفهم، وتدل قوتها وتنوع اتجاهاتها، على ماكان يقتضيه الموقف لمواجهة خُبْث الكيد اليهوديِّ للإسلام وبني الإسلام في ذلك الأوان، وهو هو خبث الكيد الذي ما يزالون يزاولونه ضد هذا الدين وأهله حتى الآن[151].

ثامناً: قصة موسى (عليه السلام) مع قومه في سورة المائدة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا

(151)في ظلال القران، (١/٨٠٠).

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾[المائدة: ٢٠-٢٦].

هذه القصة التي بين موسى عليه السلام وقومه والتي جاءت في سورة المائدة، ونزلت في الفترة المدنية تتحدث عن مرحلة متقدمة في حياة موسى مع قومه وهم على أبواب الأرض المقدسة التي وعدهم الله وموقفهم كذلك من ميثاق ربهم معهم، وكيف نقضوه وكيف كان جزاؤهم على نقض الميثاق(152).

إنها حلقة من قصة بني إسرائيل التي فصّلها القرآن أوسع تفصيل ذلك لحكمة متشعبة الجوانب:

من جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوه الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة وفي الجزيرة العربية كلها؛ فقد كانوا حرباً على الإسلام منذ اليوم الأول وهم الذين احتضنوا النفاق والمنافقين في المدينة، وأمدّوهم بوسائل الكيد للعقيدة والمسلمين معاً، وهم الذين حرّضوا المشركين وواعدوهم وتآمروا معهم على الإسلام، وهم الذين تولوا حرب الإشاعات والدس والكيد في الصف المسلم،كما توّلوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول العقيدة وحول القيادة.

(152)في ظلال القرآن، (٨٦٨/٢).

وذلك كله قبل أن يســـفروا بوجوههم في الحرب المعلنة الصـــريحة، فلم يكن بدٌّ من كشـــفهم للمســـلمين؛ ليعرفوا من هم أعداؤهم ما طبيعتهم؟ وما تاريخهم؟ وما وسائلهم؟ وما حقيقة المعركة التي يخوضونها معهم؟

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إســـرائيل قد امتد تاريخهم قبل الإســـلام فترة من التاريخ طويلة، ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، وقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم ،ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف كما وقع في أخلاقهم وتقاليدهم فاقتضى هذا أن تُلم الأمة المسلمة -وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها -بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ- وتعرف مزالق الطريق، وعواقبها ممثلة في حياة بني إسرائيل وأخلاقهم، لتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصـــيلة تجاربها، وتنتفع بهذا الرصـــيد، وتنفع على مدار القرون ولِتَقي- بصـــفة خاصـــة- مزالق الطريق، ومداخل الشـــيطان وبوادر الانحراف، على هدي التَّجارب الأولى.

ومن جوانب هذه الحكمة أن تجربة بني إســـرائيل ذات صـــحائف شـــتى في المدى الطويل، وقد علم الله أن الأمد حين يطول على الأمم تقسو قلوبها، وتنحرف أجيال منها وأن الأمة المسلمة التي سيمتد تاريخها حتى تقوم الساعة ستصادفها فترات، تمثل فيها فترات من حياة بني إسرائيل، فجعل أمام أئمة هذه الأمة وقادتها ومجددي الدعوة في أجيالها الكثيرة، نماذج من العَقابيل التي تُلِمُّ بالأمم، يعرفون منها كيف يعالجون الداء بعد معرفة طبيعته ذلك أن أشـــد القلوب اســـتعصـــاء على الهدى والاســـتقامة هي القلوب التي عرفت، ثمَّ انحرفت، فالقلوب الغفل الخام أقرب إلى الاســـتجابة؛ لأنها تُفاجأ من الدعوة بجديد يهزها وينفض عنها الركام لجدّته عليها وانبهارها بهذا الجديد الذي يطرق فطرتها لأول مرة، فأما القلوب التي نوديت من

قبل، فالنداء الثاني لا تكون له جدته ولا تكون له هزته، ولا يقع فيها الإحساس بضخامته وجدّيته، ومن ثَمَّ تحتاج إلى الجهد المضاعف وإلى الصبر الطويل.

وهناك جوانب شتّى لحكمة الله في تفصيل قصة بني إسرائيل، وعرضها مفصّلة على الأمة المسلمة وارثة العقيدة والدين ... وهذه إشارات سريعة لجوانب الحكمة من قصة بني اسرائيل في القرآن الكريم.

ونعود إلى هذه الحلقة، في هذا الدرس وفي هذه السورة(153) التي تبين موقف بني إسرائيل من نبي الله موسى عليه السلام الذي أرسله الله إليهم، وخلّصهم على يديه من ظلم فرعون الذي كان يذبح أبناءهم، ويستحيي نساء هم وطغيانه، وأنعم الله عليهم إكراماً لموسى – عليه السلام – نعماً جليّة جليلة، كتظليل الغمام، ونبع الماء من الحجر وإنزال المن والسلوى، وفوق كل ذلك أنزل عليهم التوراة نوراً وهداية ومع كل هذه النعم وقفوا مع نبي الله موسى موقف الجحود والخذلان عندما طلب إليهم موسى أن يجاهدوا في سبيل الله، و يدخلوا الأرض المقدسة وقبل أن يطلب إليهم ذلك ذكَّرهم ببعض نعم الله عليهم(154).

(153) في ظلال القران، (٢/٨٦٩).

(154) التفسير الموضوعي، (٢/٢٨٣).

المبحثُ الثالث: أسبابُ هلاكِ فرعونَ وقومِه:

إن موسى – عليه السلام – جاء في عهد الظلام والفساد والإجرام الفرعوني، وكانت نهاية الحضـــارة الفرعونية على يديه، فقد انحرف الفراعنة عن هدايات الســـماء وعن توحيد الله عزَّ وجَلَّ وإفراد الخالق العظيم بالعبادة، فأرســل الله لفرعون وقومه موســى – عليه السلام – فأقام على الفراعنة الحجة، ومضت سنة الله في زوالهم واستئصالهم، وقد ذكر الله عزَّ وجَلَّ أسباب زوال الفراعنة والتي من أهمها:

1. الكفر بالله عز وجل.
2. الشرك في الربوبية.
3. الشرك في الألوهية.
4. الظلم.
5. الاستكبار.
6. بطر الحق.
7. انتهاك الحرمات.
8. الاعتداء على الناس.
9. الفخر بالملك والسلطان والمال.
10. تكذيب الرسل.
11. التكذيب بالبعث والنشور.
12. كفران النعم.
13. الترف.
14. الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة.

المبحث الرابع: أهمُّ صفات موسى (عليه السلام) وفضائله ووفاته:

كان موسى – عليه السلام – من أولي العزم من الرسل الذين حققوا التوحيد وإفراد الله بالعبادة، وحارب فرعون ونظامه الظالم بالعقل والحكمة والحجج والبراهين، وجعله الله سبباً في إنقاذ بني إسرائيل من النظام الاستبداديّ الفرعوني، وقد تميزت شخصيته العظيمة بصفات حميدة وأخلاق كريمة، كان كثير الدعاء لله عزَّ وجَلَّ، والتضرع بين يديه وشديد الخوف منه، ومتوكلاً عليه، صابراً على تكاليف الدعوة ومشاقّها، صادقاً مع ربه، شجاعاً لا يخاف إلا الله، عالماً وحكيماً وأميناً وقوياً ورحيماً ومعيناً للمستضعفين، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة التي عاش بها وسط الناس، ودعا إليها وعلّمها لمن استجاب لدعوته، وقد أسهمت تلك المنظومة الأخلاقية المتينة في التأسيس الأخلاقي والمنهج الرباني الذي سار عليه الموحدون لله عزَّ وجَلَّ في عهده وبعد وفاته، ومن أهم تلك الأخلاق والصفات:

1. الإخلاص.
2. الصبر.
3. العبودية.
4. التوكل.
5. الشكر.
6. الإحسان.
7. العلم.

استمر بنو إسرائيل في التيه بسيناء وواصل موسى – عليه السلام – مسيرته الدعوية والتربوية والعلمية، واختار من بينهم من كان مؤهلاً لحمل الرسالة ودخول الأرض

المقدســــة لتربيتهم على قيم الجهاد، وخلال هذه الفترة توفي نبي الله هارون عليه السلام.

فقد كان هارون – عليه السلام – حياً مع بداية التيه، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾[المائدة:٢٥-٢٦].ولم يرد له ذكر في القرآن ولا في الحديث الصحيح بعد ذلك.

إن الإسرائيليات تحدّثت كثيراً عن وفاة هارون – عليه السلام — وفصَّلت في ذلك، فذكرت اتهام بني إسرائيل لموسى – عليه السلام – في قتل هارون ودفاع موسى عن نفسه، وحدَّدَت المكان الذي دفن فيه هارون.

لكننا لا نذهب إلى تلك الإسرائيليات، ونبقى مع الآيات والأحاديث الصحيحة. وبعد وفاة هارون استمرَّ موسى – عليه السلام – يربي الجيل الجديد من بني إسرائيل، ويساعده في ذلك فتاه الصالح يوشع بن نون.

وأخيراً حان أجل موسى – عليه السلام – وقدّر الله أن ينهي حياته التي عاشها في الابتلاءات والمحن، وواجهها بالصبر والثبات والاحتمال، وبذل جهده في تربية بني إسرائيل والارتقاء بهممهم وعزائمهم، وجاءه الأجلُ، وهو يربي الجيل الجديد من قومه، ويُعِدُّهم لدخول الأرض المقدسة [155].

---

(155) القصص القرآني، (٣٣٢/٣).

الخلاصة: دروس وعِبر:

القرآن الكريم كتاب الله الـــــمُحكَم، أنزله الله تعالى على نبيّه محمّد؛ ليكون خاتم الكتب السّماويّة ودستوراً ومنهاجاً لأتباع الدِّين الّذي ارتضاه الله للعالمين، وهو روح الوجود الإســلامي جعله الله هدى للعالمين من الإنس والجن، وهو معجزة دائمة مســتمرّة من معجزات خاتم أنبيائه، غير أنَّ إعجاز هذا الكتاب العظيم لم يقتصــر على الجانب البلاغيّ والبيانيّ، إنما فيه وجوه إعجاز أخرى لا تنتهي. ومن وجوه إعجازه العظيم الإخبار عن الأمم السّــابقة والإنباء بقصــص الأنبياء والمرســلين السّابقين، وقد عرض ذلك كُلّه بأساليب متنوِّعة، كان منها أسلوب القصّة القرآنيّة. وإن كل شيءٍ فيها لحكمة، فقد قص الله تعالى علينا في كتابه أحسن القصص، في قوله سبحانه: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (سورة يوسف: 3).

ومن هنا تأتي أهميّة دراسة القَصَص القرآنيّ، فمثل هذه الدّراسات مجال لبيان وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومنها الإعجاز الإنبائيّ التَّاريخِيّ، كما أنّها مجال لاستنباط العديد من الأحكام والإرشادات والاستفادة منها في واقعنا الـــمعاصر. فالقصص القرآني فيه تحريك للمشــاعر في القلوب وإثارة الوجدان ودلائل على حقيقة الرســالة الرَّبانيَّة وإثبات حقيقة الوحي ووحدته، فالدِّين كلُّه خرج من مشــكاة واحدة، وبعث الله أولي العزم من الرُّســل والنَّبيّين لتبليغ رســالة الإســلام من أبينا آدم حتّى خاتم الأنبياء والمرسلين محمَّد (ﷺ)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: 52).

ويمكن تلخيص النّتائج الّتي وصل إليها هذا الكتاب "موسى كليم الله، وداعية التَّوحيد، وعدوُّ الفراعنة، وقائدُ المستضعفين"، أحداث دروس وعِبَر ومواقف نقف عليها فيما يلي:

1. ذُكِر موسى – عليه السَّلام – في القرآن مائة وستّاً وثلاثين مرّة، وذُكِر هارون – عليه السَّلام – في القرآن الكريم تسعَ عشرةَ مرّة، وأمّا بنو إسرائيل فذكروا في القرآن إحدى وأربعين مرّة. وكلمة (اليهود) وردت في القرآن تسع مرّات فقط، وبهذه الإحصائية القرآنيّة نُدرك أنَّ أكثر السُّور حديثاً عن موسى كليم الله – عليه السّلام – هي سورة البقرة والأعراف ويونس وطه والشُّعراء والنَّمل والقَصَص وغافر والنَّازعات على نحوٍ مُطَوَّل، وذكر باسمه وبمواقفه في سور أخرى كثيرة.

2. هيَّأ الله تعالى لنبيِّه ورسوله موسى – عليه السَّلام – أسباب تبليغ الرِّسالة الرَّبانيّة في الدَّعوة إلى عبادة الله وحده ورعاية الله لرسوله، جعلته يعيش وسط الطُّغيان آمناً مطمئنّاً داعياً إلى الحقّ مهما كان بطش أعدائه ومكرهم، فهو في يُسر وحفظ ورعاية من الخالق تبارك وتعالى.

3. أخذ موسى – عليه السَّلام – مكانته العظيمة في موكب الأنبياء والمرسلين والرَّهط الكرام الذين قادوا مواكب المؤمنين وجموعهم على مرِّ الأزمان، وكان موسى – عليه السَّلام – من الدُّعاة إلى الإيمان بالله، وحظي بالمكانة البالغة في قلوب العصبة المسلمة حتّى يومنا هذا.

4. في قصّة موسى دروس إيمانيّة، أهمُّها أنَّ الإيمان إذا دخل قلب إنسان، يطمئنُّ قلبه، وينشرح صدره، ولا يخشى أحداً سوى مولاه تبارك وتعالى، وأنَّ الدَّعوة إلى الله أساسها اللُّطف واللِّين والرِّفق والإحسان والحُجّة الدّامغة والبشارات بأنَّ خير نهاية للمؤمن والخاتمة الحسنة في لقاء ربه، وهو راضٍ عنه.

5. تكررت قصّة كليم الله موسى – عليه السلام – في سورٍ وآيات كثيرة لحكمةٍ أرادها الله، وذلك لما احتوته من قصص ودروس وعِبَر وعِظاتٍ لأهل الحقّ، ولما فيها من تسلية ومصابرة وتثبيت من الله تعالى لخاتم الأنبياء والمرسلين ورسول

العالمين محمَّد (ﷺ)، في دعوته إلى الإسلام، ومواجهة الكفر والضّلال، والصَّبر على أذى المشركين، ونحن نجد بين قصّة موسى - عليه السّلام - وقصّة رسول الله محمَّد (ﷺ) مواقفَ وأحداثاً وحوارات متقاربة ومتماثلة.

6. من أهداف القصص القرآنيّ تثبيت قلب النّبيّ محمّد خاتم الأنبياء (ﷺ)، ولا تخرج قصّة موسى عن هذا الهدف العامّ، فهي تبدأ وتختِمُ بخطاب الرّسول (ﷺ)، ببيان وظيفته وحدود تكاليفه؛ كيلا يتأثّر بما يلقاه من أذى قومه وما فيهم من سفاهة وعناد وتكذيب لرسالته، وتنطوي على إرشاداتٍ للنّبيّ وتذكير بوظيفتِهِ الأساسيّة الّتي هي البلاغ المُبين.

7. طلب العلم هو من صفات العقلاء وأهل الصّلاح والتّقوى، وتخبرنا قصّة موسى والخضر كم تجشّم كليم الله من مشاقّ ومتاعب؛ ليزداد علماً ومعرفة من عبد الله الصّالح، ولعلّ من دروس هذا المشهد القصصيّ القرآنيّ أنَّ الإنسان عليه أن يستمرَّ في طلب العلم النّافع مهما كلَّفه الأمر، فلا بدَّ من الاجتهاد لتحصيل العلم، والله هو الوهَّاب العليم.

8. المؤمن الرّاسخ في الإيمان يتحمّل العذاب في سبيل اختياره للإيمان، ويطلب إلى الله أن يفرغ عليهم الصّبر، ولهذا يُظهِرُ المؤمنون الحقيقة الّتي في نفوسهم، وهي إيمانهم بآيات الله، وتتوجَّهُ قلوبهم إلى الّذين آمنوا بآياتِه، ولا يجدون لهم ملاذاً إلا الله، فيطلبون إليه التّثبيت وأن يُفرِغَ عليهم الصّبر، حتى كأنّه يُصَبّ عليهم صبّاً؛ ليتحمّلوا ما يسومهم الطُّغاةُ منَ العذاب، فيُكرِمهم الله بحُسن الخاتمة، ويتوفَّاهم على الإيمان، وينالون الجزاء الأوفى في الآخرة الّتي هي دار البقاء والخلود.

9. لم يكن هارون - عليه السّلام – وصيّاً لموسى عليه السلام، بل كان نبيّاً ووزيراً بنصِّ القرآنِ الكريم، ومن ثَمَّ لا يجوز قياس حال أمير المؤمنين عليّ - رضي

الله عنه – بحال هارون _ عليه السّلام – لأنّ هذا القياس قياس مع الفارق، فلا يصحّ الاستدلال بكون هارون – عليه السّلام – وزيراً لموسى على وزارة أمير المؤمنين عليّ لرسول الله (ﷺ)، وذلك لأنّ الله تعالى جعل هارون عليه السلام وزيراً لنبيِّه موسى، وأشرَكَهُ في أمره، كما يظهر بصريح القرآن، وعليّ – رضي الله عنه – لم يكن مشاركاً لرسول الله (ﷺ) في نبوّتِهِ كما كانَ هارون مُشاركاً لموسى، ومن يعتقد هذه الشّراكة فلا شكّ في كفره وخروجه من ملّة الإسلام.

10. (القسوة) من أخطر أمراض القلوب، وسببها كثرة المعاصي والإصرار عليها، ودواء قسوة القلب التَّوبة من المعاصي والخشوع لله تعالى واستغفاره والإكثار من ذكره، وكان لقلوب بني إسرائيل قسوة شديدة خاصّة، فهيَ قلوبٌ لا تلين حتّى وصفَها الله عزَّ وجَلَّ بأنَّها كالحجارةِ أو أشَدَّ قسوة.

11. من فضائل موسى – عليه السّلام – إمساكه بقائمة العرش؛ وبعد أن نهى رسول الله ﷺ عن تخييره على موسى – عليه السَّلام – تخييراً يقوم على إنقاص قدر موسى، قدّم لنا صورة لفضله عند الله يوم القيامة، فعندما يبعث الله النّاس من قبورهم يوم القيامة، يكون رسول الله ﷺ أوّل من تنشقّ عنه الأرض، وعندما يرفع رأسه ﷺ ينظر فإذا نبيُّ الله موسى – عليه السَّلام – قائم ممسك بقائمة من قوائم عرش الله، فيتعجَّب رسولنا ﷺ من ذلك، ولا يدري هل أفاق موسى قبله، وأمسك بقائمة العرش، أو كان ممّن استثناهم الله من الصَّعق، واكتفى بصعقته الأولى. ويشير رسولنا ﷺ في قوله: "أم حوسب بطريقته الأولى" إلى الصَّعقة التي أصابت موسى – عليه السَّلام – عند جبل الطُّور لمّا طلب أن يرى الله، فلمّا تجلّى الله للجبل دكّه، وصُعق موسى عليه السَّلام، وهذه الحادثة هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:١٤٣].

12. يبدو لنا التَّشابه بين أمّة موسى وأمّة محمّد عليهم الصّلاة والسّلام من الموحِّدين، إذ قال رسول الله ﷺ عُرضت عليّ الأمم، فرأيت النَّبيَّ ومعه الرُّهَيْط، والنَّبيّ ومعه الرَّجل والرَّجلان، والنَّبيّ وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمّتي، فقيل لي: هذا موسى – عليه السَّلام – وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم.. فقيل هذه أمّتك. والسّواد هم المجموعة من النّاس، فإذا كانت أمّة موسى – عليه السَّلام – قد شكّلت سواداً عظيماً ومجموعة كبيرة من النّاس، فإنَّ أمة محمّد ﷺ –أمّة الخلافة والرِّسالة والشّهادة حتّى قيام السّاعة– قد ملأت الأفق عن اليمين والشِّمال، فمحمَّد ﷺ هو أكثر النَّاس أتباعاً يوم القيامة.

13. قصّة موسى – عليه السّلام – هي معركة تاريخيّة فاصلة بين الحقّ والباطل؛ أيّ: بين جنود الرّحمن وأتباع الشّيطان وعبدة الطّاغوت، انتصر فيها عبد الله الواحد على جموع الطّاغية وحشوده من الوزراء والجنود والسَّحَرة بإيمانه ويقينه واعتزازه بالله تعالى وركونه إليه وتوكُّله عليه، وبحقّ تعتبر من أكبر المعارك في تاريخ الإنسانيّة، وكانت حاسمة في إحقاق الحقّ وكشف الباطل، حتّى قال سبحانه تأكيداً لتلك المعركة وأهميّتها: ﴿فَوَقَعَ الحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 118).

14. تنطوي قصّة موسى في سُور القرآن الكريم على أحكام كثيرة اشتملت عليها التّوراة، وأهمُّها: عبادة الله وحده، والإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، والتّعامل مع النّاس بالحسنى، وإيتاء الزّكاة للفقراء والمساكين، والمحافظة على الدِّماء وعدم الإقدام على الانتحار وقتل النّفس

وسفك الدِّماء، وعدم الاعتداء على الآخرين أو قتالهم، أو إخراجهم من ديارهم أو مساعدة أعدائهم في قتالهم لهم، ومساعدة الإخوان الّذين اعتدى عليهم الأعداء.

15. لما جاء موسى – عليه السّلام – الأجل وحانت وفاته، أراد الله تخييره، فبعث إليه ملك الموت في صورة بشريّة، وجرت بينه وبين ملك الموت حادثة مثيرة، أخبرنا عنها رسول الله ﷺ؛ فملك الموت جاء موسى – عليه السّلام – في صورته البشريّة، وخيّره بأمر الله بين الموت الآن أو بعد سنين، فطلب موسى – عليه السلام – التَّعجيل بموته، ودعا ربَّه أن يجعل قبره قريباً من بيت المقدس؛ لأنَّ تلك الأرض كانت محرّمة على بني إسرائيل عند موته، واستجاب الله دعوة نبيّه موسى، وقبضه في المكان الذي أراد، وجاء هذا الخبر من رسول الله محمد ﷺ. وهكذا انتهت حياة موسى – عليه السّلام – وبقيّة سيرته وقصّته التي عاشها في سبيل الدَّعوة إلى التَّوحيد وإنقاذ المستضعفين ومقارعة المستبدِّين مثالاً في كلِّ زمان.

الفصل الخامس:
المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام)
"الحقيقة الكاملة"

تمهيد

إن ما بيَّنه القرآن الكريم حول سيدنا عيسى عليه السلام وأمه مريم يقوم على الموازين القرآنية المتعلقة بالخالق والمخلوق، والكاشفة عن الحقائق التي تتفق مع الفِطر السليمة والعقول المستقيمة فميزان فقه الخالق أنه واجب الوجود وأنه ليس مخلوقاً ولا محدثاً ولا مولوداً ولا محتاجاً إلى أحد، وأنه لا يأكل الطعام ولا الشراب، ولا يحتاج إلى قضاء الحاجة ونحو ذلك، في حين أن ميزان المخلوق يقوم أنه مخلوق محدث قد خلقه الله تعالى من العدم أصلاً ثم وضع له نظاماً دقيقاً، وأنه مولود، ومحتاج إلخ.

ولذلك نرى أن القرآن الكريم ركَّز على هذه الموازين وفصَّل في كيفية خلق عيسى (عليه السلام) من البداية إلى النهاية، فذكر البداية من حين نذر امرأة عمرانِ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35] حيث تدل هذه الآية على أن سيدنا عيسى (عليه السلام) هو مولود مخلوق من أمه مريم، وأنها مولودة من أمها كل ذلك للتأكيد على أنه عليه السلام لا يختلف عن أي إنسان إلا بأمرين:

أحدهما: أن الله تعالى خلقه دون أب، وإنما بنفخة من عند الله.

والثاني: أنه رسول الله، وكلمته وأنه أكرمه بمعجزات مادية عظيمة، وأن الله تعالى وصفه بصفات عظيمة وحتى داخل الآية السابقة الآيات التي تتحدث عن مريم فإن كل كلمة فيها تدل على أن مريم مخلوقة محتاجة، وقد أعاذتها أمها وذريتها من الشيطان الرجيم، ثم كفالة زكريا لها وما رزقها الله تعالى ومنحها من الكرامات، ثم كفالة زكريا لها، ونحو ذلك. كل ذلك لأجل التأكيد على مخلوقية مريم وأنها ليست بإله، إذن فالأم ليست إلهاً قطعاً، فيأتي القرآن ليبين بالبراهين العقلية القطعية أن ابنها أيضاً ليس بإله، وهنا يأتي تأكيد القرآن الكريم على ذكر عيسى بأنه ابن مريم أي مولود لم يكن

موجوداً، وأنه مخلوق وليس خالقاً ولا الهاً ولا رباً بأي معنى من معاني الخلق والألوهية، وهنا تأتي الأدلة القرآنية على ذلك بوضوح في ضوء ما يأتي، وأن عيسى (عليه السلام) وجد ببشارة الملائكة لمريم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45] والخالق واجب الوجود أزلي قديم ليس قبله شيء.

إذا كان هناك غرابة في أن لا يكون لعيسى (عليه السلام) والد فقد بين الله تعالى بأن ذلك يعود إلى قدرة الله تعالى وكلمته الكونية القادرة على أكثر من ذلك، بحيث إذا أراد شيئاً أن يكون ليقول له كن فيكون.

فكون عيسى عليه السلام خلق بدون أب وأنه كلمة الله لا يترتب عليه أبداً القول بأنه إله لأن ذلك لا ينفي عنه كونه مخلوقاً كما أن وصفه بأنه «كلمة الله» أو «كلمة منه» يراد به أن الله تعالى خلقه بكلمة منه دون توافر الأسباب الطبيعية لخلقه من وجود النطفة الأمشاج المكونة من مني الرجل وبويضة المرأة ولذلك كان خلقه مثل خلق آدم الذي خلقه الله تعالى من تراب دون أب وأم، فقال تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59] فالله قادر على الخلق من العدم، وبالتالي فَخَلْقُ إنسانٍ دون أب أهون عليه تعالى، فقال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]، ثم إن عيسى كان جنيناً في بطن أمه، وطفلاً في المهد ثم شاباً ثم كهلاً، وقد تعرض للأذى والتعذيب من اليهود وغيرهم، فهو عاش حياة إنسان يتقلب في الأحداث ويتأثر بها وتتغير أحواله بتغير الأزمان، ويتحول من صغر إلى كبر ومن حال إلى حال، كل ذلك برهان قطعي عقلاً ومشاهدة على أنه مخلوق يطبق عليه ميزانه وليس إلهاً كما تدعي ذلك جماهير النصارى.

وبناءً على ما سبق فإن دعوى جماهير النصارى بأن عيسى إله أو ابن إله ضمن الآلهة الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة [156] دعوى متناقضة مع العقل والمشاهدة، ودعوى يتعارض بعضها مع بعض، فهم يعترفون بكل ما حدث لعيسى (عليه السلام) من الحمل والطفولة والتعذيب، بل إنهم يعترفون بأنه صلب وقتل. ونفاهما القرآن الكريم عنه.، فكيف يكون إلهاً؟

يعتقد معظم النصارى باستثناء الموحدين منهم أن الإله واحد ذو أقانيم ثلاثة. الأب الخالق لكل شيء، والمالك له، وأقنوم الابن المولود منه، والمساوي له في الجوهر، والأقنوم الثالث أقنوم الروح القدس، وهذه الأقانيم الثلاثة متحدة في الجوهر والإرادة والمشيئة، لكنهم لا يشكلون ذاتاً واحدة، بل هم أشخاص وأقانيم ثلاثة، كل واحد منهم إله كامل مستقل بذاته، فالمسيح إله تجسد بشراً وهو إله أيضاً، وهنا اختلَّت الموازين بشكل فظيع وتناقض لا مثيل له.

وقد ردَّ عليهم كثير من العلماء المفكرين، وقالوا: إن هذه الفكرة جاءت من الحضارة الرومانية، وأن الأناجيل المعترف بها لا تدل بالقطع على التثليث بدليل أن فيها بعض النصوص تدل على أن يسوع المسيح عندما يقوم بمعجزة، وعمل خارق، يتوجه إلى الله أولاً بالصلاة والدعاء متضرعاً بين يديه، وحين ينتهي يتوجه إليه (سبحانه) بالشكر، فقد جاء في إنجيل (مرقس2:28) أن يسوع المسيح إنسان وابن إنسان، وفي إنجيل (لوقا 2:52): أنه ولد وترعرع، ونما، وفي إنجيل لوقا (35:7.34

(156) جاء التثليث حسبما أقرته كنيسة روما بموجب قرار مجمع (نيقية) الذي انعقد سنة 325م حيث جاء فيه «يسوع المسيح (عليه السلام) ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من اجلنا ــ نحن البشر ومن أجل خلاصنا. نزل من السماء وتجسد من الروح القدس».

و 12:6، ومرقس 35:1) أنه يأكل ويشرب كسائر البشر ويصلي ويكثر من الدعاء متضرعاً ومناجياً جُلَّ الليل والنهار، وفي إنجيل لوقا (43.42:4) أنه أرسل نبياً ورسولاً ومعلماً إلى بني إسرائيل.

وفي هذا الصدد يقول كلايد تارنز(157): «إن الاسم الذي أطلقه المسيح على نفسه أنه (ابن الإنسان) وكل ما رواه لنا عنه الإنجيل يقدمه كإنسان عاش واتصف بكل صفات الإنسان، كبر، ونما جسدياً...، كما تألم الاماً جسدية، بكى، ونام، ومات، كل هذه الاختبارات تشهد بكون يسوع إنساناً».

وأما أسفار العهد القديم (التوراة) فتدل بوضوح على أن الأنبياء ليسوا الهة، وليس لهم قدرة على المعجزة إلا بقدرة الله(158)

ويظهر من الآيات التي تتحدث عن السيدة مريم وعن عيسى عليه السلام ميزان المعجزات القائم على خرق السنن والأسباب بقدرة الله.

كما يظهر ميزان الوحي الإلهي الذي لا يتأثر بما يحدث في نفسية الرسول، ومن معه، فمع وجود صراع بينهم وبين النصرانيين أتباع سيدنا المسيح (عليه السلام) وما تلقاه الرسول من معظمهم من العنت والجدل وإثارة الشبهات والتشكيك لكن القرآن

---

(157) كلايد تارنز: هذه عقائدنا ص 83 نقلاً عن أحمد علي عجيبة : تأثر المسيحية بالأديان الوثنية، ط1، درا لأفاق العربية، القاهرة 2006م، ص350.

(158) انظر سفر حزقيال (1:37 ـ 10) وسفر الملوك الأول 17: 12 ـ 22، ويراجع إبراهيم لوقا: المسيحية في الإسلام ، ط1، دار النشر القبطية، القاهرة ص 129، هيم ماكي: بولس وتحريف المسيحية، ترجمة سميرة عزمي الزين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، الكتاب الثالث، وشارل جبيرو: المسيحية نشأتها وتطورها، ترجمة: الدكتور عبد الحميد محمود ، ط10، المكتبة العصرية، بيروت ص39، وعلي زلماط: نفي الوهية عيسى عليه السلام من خلال الانجيل، مقالة في مجلة البيان بتاريخ 2017/2/16م.

الكريم أولى كل هذه العناية بسيدنا عيسى (عليه السلام) وبأمه، وجدَّته ووصفه مع أمه بأوصاف عظيمة، فهذا من الأدلة الواضحات على أن القرآن نزل من لدن الحكيم الحميد ربِّ العالمين، وليس من الرسول، وإلا فهو بشر قد تظهر اثار انفعالاته على كلامه.

قصة الفكرة الأولى لكتابتي عن المسيح عليه السلام:

كان من أقدار الله العجيبة زيارتي إلى إيطاليا بتاريخ 2015/4/29م، بدعوة من منظمة سانت أجيديو (منظمة مجتمع مدني)، وكان يرافقني الأخوان الكريمان عاطف بوكره ووليد اللافي الفرجاني الترهوني، وكان هدف الزيارة الحديث عن إحلال السلام والمصالحة بين الفرقاء في ليبيا، وقد حضر من طرف المنظمة كلاً من:

. الأب أنجيلو رومانو.

. السيد أندريا ترينتيني.

. المترجمة السيدة أنجيلا الريس.

وحدث اللقاء في إحدى كنائس روما التابعة للفاتيكان، وقد تحدثت فيه عن مفهوم السلام في الإسلام، وتطرقتُ للحديث عن أسماء الله الحسنى ومنها اسم السلام، وأن صلاتنا تبدأ بـ (الله أكبر) وتنتهي بالسلام، وأنَّ من أسماء الجنة دار السلام.

وكانت طبيعة الحديث تدعو إلى بيان موقف السلام عند سيدنا عيسى عليه السلام وأمه الصديقة العذراء البتول عليها السلام، وبدأت في ذكر الآيات ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا *﴾ [مريم: 16].

وعندما وصلت في شرحي لهمَ ﴿يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي

عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 28 ـ 31].

وإذ بالمترجمة تبكي وتفيض عيناها بالدموع، ومن ذلك الموقف جاءتني فكرة ـ واعتقد أنها ربانية ـــ لماذا لا نخرّج الآيات التي تحدثت عن سيرة عيسى وأمه عليهما السلام من القرآن الكريم، ونصوغها في كتاب منهجي فكري (حضاري) يتماشى مع روح العصر والحوار الإنساني، يعتمد على قول الله عز وجل قبل كل شيء في بيان حقيقة عيسى عليه السلام مصحوباً بخطابٍ عقلاني وأساسٍ منطقيّ، يستهدف الوجدان الإنساني المتعطش لمعرفة حقيقة المسيح عيسى ابن مريم.

فبدأتُ بجمع المادة وشراء الكتب المتعلقة بسيدنا عيسى عليه السلام، وكل ما له صلة بذلك، وطالعتُ بنهمٍ عجيبٍ ما يتعلَّق بالعقائد النصرانية وجذورها، وتاريخ المجامع الكنسيّة والعهد القديم والجديد من كتبهم المقدسة، وإنجيل لوقا ومتّى ويوحنّا ومرقس وبرنابا، بالإضافة إلى الرسائل الجامعية حول هذه المواضيع، والاضطهاد الذي تعرَّض له الموحِّدون من النصارى على مرِّ التاريخ، وكذلك الحوارات والمجادلات بين علماء المسلمين والنصارى قديماً وحديثاً.

وعكفتُ على الآيات القرآنية بمنهجية التفسير الموضوعي، وهو في الأصل تخصُّصي حيث إن رسالتي للماجستير كانت حول «الوسطية في القرآن الكريم»، وأما رسالة الدكتوراه فكانت في «التمكين في القرآن الكريم».

المبحث الأول: الجذور التاريخية للوطن الذي ولد فيه عيسى عليه السلام:

ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو «جليل الأمم» كما سمّاها الإسرائيليون(159) فيما بعد؛ لأنّها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية، أيّ في مدينة بيت لحم، والتي تبعد قرابة 100كم جنوبي القدس.

ولذا من المهم التعريف بجغرافية هذه المنطقة والأحداث التي مرّت بها قبل بعثة عيسى عليه السلام. ومعنى الجليل بالعبرية «الدائرة»، ويعنون بها الإحاطة؛ لأنّها اتسعت

---

(159) الإسرائيليون: ولد يعقوب عليه السلام بأرض كنعان، ورزق باثني عشر ولداً، هم أبناء إسرائيل، لهذا يقال لنسلهم بنو إسرائيل، وكان منهم أربعة أنبياء، هم: لأوي ويوسف وبنيامين ويهوذا، وموسى عليه السلام من نسل لأوي. وكان يعقوب عليه السلام كما وصفه القران الكريم صاحب حكمة وذكاء، كان هو وأبناؤه يسكنون جنوب بلاد الشام، وكان عددهم سبعة وستون رجلاً عدا النساء. (انظر: د. عبد الناصر قاسم الفرا، الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، مجلة علوم سياسية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ص 8.

وفي ديوان العبر عند ابن خلدون: «الخبر عن بني إسرائيل وما كان لهم من النبوة والملك وتغلبهم على الأرض المقدسة بالشام وكيف تجددت دولتهم بعد الانقراض وما اكتنف ذلك من الأحوال قد ذكرنا عند ذكر إبراهيم وبنيه صلوات الله وسلامه عليهم ما كان من شأن يعقوب بن إسحاق واستقراره بمصر مع بنيه الأسباط، وفي التوراة أن الله سماه إسرائيل، و«إيل» عندهم كلمة مرادفة لعبد، وما قبلها من أسماء الله عز وجل وصفاته، والمضاف أبداً متأخر في لسان العجم، فلذلك كان «إيل» هو اخر الكلمة وهو المضاف، ثم قبض الله نبيه يعقوب بمصر لمئة وسبعة وثمانين سنة من عمره وأوصى أن يدفن عند أبيه، فطلب يوسف من فرعون (حاكم مصر) أن يطلقه لذلك فأذن له، وأمر أهل دولته بالانطلاق معه، فانطلقوا وحملوه إلى فلسطين فدفنوه بمقبرة ابائه، فهي التي اشتراها إبراهيم من الكنعانيين، ورجع يوسف إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي لمئة وعشرين سنة من عمره، ودفن بمصر وأوصى أن يحملوا شِلْوه معهم إذا خرجوا إلى أرض الميعاد وهي الأرض المقدسة». ينظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، المقدمة الأولى، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1408هـ 1988م، ج2/ص 58.

للكثير ممن يحال بينهم وبين الإقامة في بلاد أخرى من فلسطين، ولا سيما الجنوب حيث اليهودية[160].

وتقع الجليل في الجزء الشمالي من فلسطين بين البحر الأبيض المتوسط وبحيرة طبرية، جنوب ما يعرف بلبنان، وكانت طبرية هي العاصمة السياسية لهذه المنطقة، أما قراها التي اشتهرت في الإنجيل فهي كفر ناحوم والناصرة ـ حيث نشأ عيسى عليه السلام ـ ونايين، ومجدل[161].

المبحث الثاني: حديث القرآن الكريم عن عيسى عليه السلام:

إنّ عيسى عليه السلام نبي الله هو من أولي العزم من الأنبياء، كما ذكره القرآن الكريم، معجزة بحد ذاته، منذ أن حملت به والدته البتول مريم إلى ولادته وفي حياته كاملة، حيث كان مولده آية ربانيّة ورحمة إلهيّة للبشر أجمعين، وقد ضلّ أقوام عن الهدى وانحرفوا عن منهج الله تعالى وعقيدة التّوحيد، فظنّوا بعيسى عليه السّلام ما ليس فيه ولا يليق به من الصّفات الإلهيّة، فتارة يقولون أنّ الله هو المسيح ابن مريم، وتارة يقولون أنّه ابن الله عز وجل، وتارة أخرى أنّه ثالث ثلاثة، تعالى الله وتنزّه عما يقولون ويفترون، لذلك تناول القرآن الكريم وفي مواطن كثيرة الحديث عن عيسى عليه السّلام.

---

(160) تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ أسبابه ونتائجه، بسمة أحمد جستنية، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، ص21.

(161) المرجع السابق، ص21. وانظر: هنري. س عبودي، معجم الحضارات السامية، لبنان، جروس برس، ط2، 1411هـ، 1990م، ص320 . 835.

أولاً: ذكر عيسى وأمه في القرآن الكريم:

1. إن أصـــدق كتاب موجود لدينا اليوم هو كتاب الله عز وجل، ولذلك اعتمدته في حديثي عن المسيح عيسى عليه السلام، فهو محفوظ بحفظ الله له، وهو ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ **[فصـــلت: 42]** ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾، وهو مصـــدِّق لما قبله من الكتب السماوية ومهيمن عليها.

2. ومن الناحية التاريخية نجد أن التاريخ لا يسعفنا بالمعلومات الأساسية المؤكدة عن دعوة المسيح عليه السلام، وذلك لأسباب عدّة منها: بُعد العهد واضطراب الروايات التاريخية، بل من المؤكد أن لتدخّل العنصر البشري دوراً في هذا حتى اختلط الحابل بالنابل، وتعسّـــر وتمييز الطيب من الخبيث والحق من الباطل.

3. إن القرآن الكريم مع السنة النبوية الصحيحة في الحقيقة وحدهما المصدران -علميّاً وتاريخيّاً- اللذان صورا لنا بدقة عالية تاريخ الرسالات الإلهية كلها، من أول الأنبياء آدم عليه السلام حتى اخرهم وخيرهم محمد (ﷺ).

4. إن القرآن الكريم له مكانته العلمية حتى في الأوساط النصرانية فنجدهم يقرُّون ـ مع كفرهم به ـ بجودة مصدريته، ودقة أخباره وبتواتره المنقطع النظير، وخلوّه مما اتسمت به كتبهم من التناقض والأخطاء والتعبير والتبديل والإضافة والحذف.

5. لا يوجد كتاب على وجه الأرض منح السيد المسيح عليه السلام وأمه البتول وعائلته الكريمة، تكريماً وتبجيلاً أعظم من القرآن الكريم.

6. إن تكريم القرآن الكريم للمسـيح وأمه وعائلته يفوق بلا ريب تكريم كل من التوراة والإنجيل الموجودين حالياً، وكان القرآن الكريم بالإضـافة إلى هذا التكريم هو المصـحح للأخطاء والاتهامات والافتراءات الباطلة التي كانت توجّه إلى السيد المسيح وأمه الطاهرة على ألسنة اليهود والمسيحيين أنفسهم.

7. في القرآن الكريم توجد سـورة آل عمران، وهي اسـم عائلة المسـيح عليه السلام، ولفظة (آل) كلمة تخاطب بها العائلات الكريمة الطيبة، وهذه السورة هي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم، وهناك سورة باسم سورة (مريم)، وهو اسم السـيدة مريم العذراء والدة المسيح عليهما السـلام، على حين لا يوجد في القرآن الكريم اسـم لعائلة نبي الإسـلام محمد (ﷺ)، إذ لا توجد سـورة تحمل اسـم (بني هاشـم) أو (بني عبد المطلب)، ولا توجد سـورة تحمل اسـم (امنة بنت وهب) والدة الرسول (ﷺ).

8. إن الوثيقة التاريخية الوحيدة الصـادقة التي لا يعتريها اللُّبس ولا الغموض ولا التحريف، وتتمتع بمصداقية مطلقة (100%) ما جاء من حديث واضح وقصة صادقة عن عيسى عليه السلام وأمه وعائلته وعقيدته ودعوته وأنصاره وقومه، وحقيقته في القرآن الكريم.

9. إن حديث القرآن الكريم عن سـيرة عيسـى عليه السـلام دليل على الإعجاز التاريخي والتي يشـهد أنه لا يمكن أن يكون القرآن الكريم صـناعة بشـرية، بل هو كلام الله الخالق، كما يشـهد لرسـول الله (ﷺ) بأنه لا يمكن أن يكون قد اسـتقى هذه الحقائق من كتب العهدين القديم والجديد، وذلك للاختلاف الكبير بين ما جاء عن حقيقة هذا العبد الصالح في تلك المصادر، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هناك من الوقائع القرآنية ما لم يرد له ذكر في

أي من كتب العهدين القديم والجديد، وذلك من مثل معجزة كلام المسيح عليه السلام وهو في المهد ونطقه للعبودية الكاملة لله تعالى، وتنزيهه للخالق العظيم عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله وغير ذلك.

10. ورد اسم عيسى عليه السلام خمساً وعشرين مرة في القرآن، وورد اسم أمه مريم عليها السلام أربعاً وثلاثين مرة في القرآن، وثلاثاً وعشرين مرة مقرونة باسم عيسى ابن مريم، وإحدى عشر مرة مجردة عن عيسى.

11. تحدث القرآن الكريم عن أسرة عيسى عليه السلام من ناحية أمه عن جده من أمه، وجدَّته من أمه، وبيَّن عظمة هذه الأسرة في الصلاح والتقوى والعبادة.

12. ذكر الله عز وجل نشأة عيسى عليه السلام ببيان نشأة أمه بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك ـ، فعيسى له أم، وأمُّ عيسى لها أم وأب، ولهما أمهات واباء إلى آدم.

13. ذكر الله الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم، وولادتها وتربيتها، ويلاحظ القارئ أن العبادة والنسك أظلاها وهي جنين في بطن أمها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفاها الله لأمرٍ جليل خطير، فأمها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لما تحرك الحمل في أحشائها أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس، والمحرر هو الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله.

ثانياً: عائلة المسيح عليه السلام في القرآن الكريم:

عيسى هو ابن مريم، ومريم هي ابنة عمران بنص آيات القرآن الكريم:﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: 12]، هناك شخصان من بني إسرائيل، كل منهما اسمه (عمران)، وبينهما فترة زمنية طويلة تمتد عدة قرون.

عمران الأول: هو عمران والد نبي الله موسى ونبي الله هارون عليهما السلام.

عمران الثاني: هو والد مريم رضي الله عنها. حيث أشار القرآن إلى حمل امرأته بمريم ونذرها لله، كما أشار إلى شقيق لمريم اسمه (هارون) وهو غير هارون النبي شقيق موسى عليه السلام وسنتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وقد اصطفى الله تعالى آل عمران على العالمين فهل هم آل عمران الأول والد موسى أم هم آل عمران الثاني والد مريم؟

ذهب بعض العلماء إلى أن (آل عمران) هم ذرية موسى وهارون ابني عمران الأول عليهما السلام، اللذين ظهر منهما معظم أنبياء بني إسرائيل.

وذهب آخرون إلى أن (آل عمران) هم مريم وابنها عليه السلام وأمها وأخوها رضي الله عنهم.

ـــ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدم وَنُوحًا وَآل إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33-34].

ثالثاً: عيسى يكلم الناس في المهد:

قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 27-33]**.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾

أتت مريم رضي الله عنها قومها وأهلها المقربين، وكانت تحمل ابنها عيسى عليه السلام، وكانت في غاية القوة والشجاعة والثقة والطمأنينة؛ لأنها توقن أن الله معها، وتعلم أنها لم ترتكب خطأً، والله هو الذي خلق في رحمها عيسى فلماذا تخشى مواجهتهم، وقد وصلت مريم أهلها، ونظروا إليها وقد سيطرت الدهشة عليهم، إن ابنتهم طاهرة عذراء عفيفة، وهم يعلمون هذا عن يقين، فماذا الذي يرونه منها؟ لقد أنطقتهم الدهشة والمفاجأة بعبارة ساخرة مُتَّهِمِيْنَها(162).

﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾؛ كان في عبارتهم اتهام غير صريح لمريم، والذي دفعهم إلى عدم اتهامها بصراحة ــ فلم يقولوا لها: لقد ارتكبت فاحشة الزنا ـ هو إيمانهم بالله وتقواهم لله، وتحرّجهم من قذف الصالحة بالفاحشة، ثم ما عرفت به مريم من صلاح وعبادة وعفاف وطهارة، مما يجعلها بعيدة عن الفاحشة، لكنهم رأوا وليداً على حضنها، وهو أمر غريب مريب يدعو إلى الريبة، فكيف يوفقون بين ما يعرفونه عنها من عفة وطهارة وبين ما يشاهدونه بين يديها؟

---

(162) المعجم الوسيط، ص 30. وانظر: الخالدي، القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، 265/4.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ **[مريم: 28]**، فأبوها رجل صالح عفيف ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، ما كان سيئاً يأتي بالفواحش، وأمها امرأة صالحة عفيفة : ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ كانت بغية زانية. ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾: أشارت إلى وليدها ، وكأنها تقول لهم لا تسألوني أنا، بل اسألوه وكلموه. ولم ترد الإشارة في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع من القرآن، والإشارة قد تكون باليد أو العين أو الرأس أو غيرها، لتدل على معنى من المعاني. فزاد استغرابهم وتعجبهم وغيظهم، إنهم يسألونها مستنكرين، وهي تسخر منهم وتقابل سؤالهم بصمت، وتشير إلى وليد لم تمض على ولادته إلا ساعات ليتولى هو الكلام معهم، ولهذا سألوها مستنكرين؟ كيف نسأل طفلاً وهل يفهم سؤالنا؟ وإذا فهم سؤالنا هل يقدر أن يجيبنا؟ ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ **[مريم: 29]** عُهِدَ عن طفل في المهد وُلِد قبل ساعات أو أيام الكلامُ الواضح المفهم. و(كان) هنا تامة بمعنى (وجد) وفاعلها: ضمير مستتر يعود على ابنها (صبياً) حال. وهذه البداية الإيمانية لعيسى عليه السلام التي بدأ بها وهو طفل في المهد يقرر فيها أنه عبد الله، وأن الله وحده هو الرب، تكذيب مبكر لما سيقوم به . بعض الناس . فيما بعد عندما ادّعوا أنه ابن الله، وبعدما نصَّ على عبوديته لله تحدث عما سيعطيه الله في المستقبل فقال: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]** ، وهذا على تقدير المستقبل: سيؤتيني الكتاب، ويجعلني نبياً، والمراد بالكتاب هنا الإنجيل، الذي سيؤتيه الله إياه ويجعله مصدقاً للتوراة قبله. تابع عيسى عليه السلام تقديم نفسه بكلامه الواضح المبين: الله بارك وأفاض بركته ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾، فصرت مباركاً أين ما كنت ووجدت، و(كنت) هنا: فعل ماض تام، بمعنى (وجدت)، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. و(كنت) فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. والتقدير: أين ما كنت ووجدت فقد جعلني الله

مباركاً. ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا *﴾. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ **[مريم: 32]**، وتشير الآية إلى جانبين من شخصية عيسى، الجانب الإيجابي في شخصية عيسى السوية عليه السلام، وهو برُّه بوالدته، والجانب السلبي الذي نزَّه الله شخصيته السويّة، فلم يجعله جباراً شقياً. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ **[مريم: 33]**. وقد أخبر عيسى عليه السلام قوم مريم أن الله أضفى عليه السلام والأمان في المواضع الثلاثة الحرجة الخطيرة في حياته: يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حياً يوم القيامة.

وقد عقَّبت آيات سورة مريم على ذلك بتقرير الحقيقة الإيمانية بشأن عيسى عليه السلام، وتقرير وحدانية الله، وتكذيب النصارى في مزاعمهم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ **[مريم: 34-40]**.

رابعاً: عيسى (عليه السلام) رسولاً إلى بني إسرائيل:

شبَّ عيسى عليه السلام وعاش صباه وشبابه طاهراً تقياً، يحفظه الله ويحميه، ويرعاه ويبعد عنه الشيطان ووساوسه، حتى أنزل عليه الوحي وجعله نبيّاً رسولاً، وبعثه إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتابه الإنجيل.

وكانت بعثة عيسى عليه السلام وإنزال الإنجيل تحقيقاً للبشرى التي قدَّمها الله إلى أمه قبل حملها به ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 48–49]** ، وهي تحقيق لما أخبر هو عن نفسه عندما كلَّم قومه وهو في المهد قائلاً ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**

لقد بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل فقط، وورد هذا في صريح آيات القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ **[آل عمران: 49]**.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ **[الصف: 6]**.

خاطب عيسى عليه السلام بني إسرائيل وصارحهم بقوله . وأخبرهم أنه مصدقاً لما سبقه من ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾، وأنه يبشّرهم بالنبي الخاتم الذي سيبعث من بعده وهو (محمد بن عبد الله) (ﷺ).

وبعثة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل فقط؛ لأن كل نبيّ كان يبعث إلى قومه خاصَّة إلا رسولنا محمد (ﷺ) الذي بعثه الله إلى الناس كافَّة، فكل نبي كان يقول لقومه ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾، أما رسولنا (ﷺ) فقد قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ **[الأعراف: 158]**.

وهذا ما ورد في صريح حديث رسول الله (ﷺ)، حيث روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «أعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحدٌ قبلي، كان كل نبيٍّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيُّما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة»(163). والشاهد فيه قوله: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

ومن لطائف التعبير القرآني أن عيسى بلَّغ رسالته إلى بني إسرائيل بقوله ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولم يقل (يا قوم)، بينما أخبر القرآن في الآية السابقة من سورة الصف أن موسى عليه السلام قال لهم: (يا قوم).

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ **[الصف: 5]**.

موسى عليه السلام يقول لبني إسرائيل: (يا قوم)، وعيسى عليه السلام يقول لهم: (يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم)، ولم يقل: (يا قوم).

والحكمة في هذا أن الرجل ينسب إلى قوم أبيه، فيقال: هو من بني فلان ويخاطبهم هو قائلاً يا قوم. وهذا متحقق في موسى عليه السلام خلافاً للمسيح عيسى عليه السلام؛ لأنه ابن عمران وأبوه عمران من بني إسرائيل، وأما عيسى فليسوا قومه، بل لا قوم له من البشر، لأنه ليس له أب(164).

---

(163) صحيح مسلم، رقم 521.

(164) القصص القرآني: الخالدي، عرض وقائع وتحليل أحداث، 286/4.

والخلاصة: أن عيسى عليه السلام كان مرسلاً ومكلفاً بتبليغ رسالة ربه إلى بني إسرائيل، وقد قام عيسى بواجب الدعوة إلى الله على الوجه الأكمل في مدن بني إسرائيل وقراهم.

خامساً: دعوة عيسى عليه السلام إلى التوحيد:

بعث الله عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل نبياً ورسولاً، وقامت رسالته على توحيد الله وإفراد الألوهية والربوبية، ودعوة بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، ومطالبتهم بالإيمان بأنه عبد الله ورسوله، وأنه ابن مريم، فهو رسول بشر عليه الصلاة والسلام.

هذه هي خلاصة دعوة عيسى عليه السلام ورسالته، وهذه هي النصرانية الموحِّدة التي دعا إليها عيسى عليه السلام، وعلى هذا الأساس آمن به الحواريون، واتَّبعه النصارى الموحدون(165).

وبما أن نبوّة عيسى عليه السلام جاءت متممة مكمِّلة لنبوة موسى عليه السلام، فمن البديهي أن تكون قائمة على التوحيد، فالنصرانية الحقَّة لا تقول بوجود إله اخر غير الواحد الأحد، وما يناقض ذلك إنما هو انحراف عن حقيقة دعوة المسيح عليه السلام التي بيَّنها القرآن الكريم(166).

إن توحيد الله عزَّ وجل كان غاية الأنبياء العظمى، كما كان الركيزة الأولى في دعوة عيسى عليه السلام، وقد نصَّ القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح عليه السلام هي

---

(165) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 387/4.

(166) ، إنصاف غير المسلمين ومن أسلم من أهل الكتاب للإسلام وعقيدته وأثره على المجتمعات الغربية، سرين محمد صعيدي دار الفتح للنشر، عمان. الأردن، ط1، 2017م، ص 117.

التوحيد الكامل، فلا يعبد إلا الله، فالله خالق السماء والأرض وما بينهما فلا شريك له، هذا ما أعلنه المسيح منذ اللحظة الأولى لولادته، فلم يشذَّ عيسى عليه السلام عن القاعدة العامة التي جاء بها الأنبياء ومن أجلها. فقد دعا قومه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وكان ذلك أول ما نطق به وهو في المهد قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ **[مريم: 30]**.

وفي هذا القول من عيسى إشارة واضحة إلى أن الذات الوحيدة التي تستحق العبادة هي ذات الله تعالى وإلا ما اعترف بعبوديته له، ولما كان البعض قد يتوهم من قول عيسى عليه السلام أن هذا الإله مخصوص له لا لأحد سواه، نفى القرآن ذلك وأخبر عمَّا جاء على لسانه قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ **[مريم: 36]**.

كما أكّد القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام كان دائم القول والتكرار لهذه الحقيقة بين قومه والتذكير بها فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ **[المائدة: 72]**

ويذكر الشيخ رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية أن المسيح عليه السلام أمرهم بالتوحيد الخالص ودعاهم إليه، وحذَّر من الوقوع في الشرك، وتوعَّدهم عليه ببيان أن الحال والشأن الثابت عند الله تعالى هو أن كل من يشرك بالله شيئاً من ملك أو بشر أو كوكب، أو شجر، أو حجر، أو غير ذلك، فإن الله يحرِّم عليه الجنة في

الاخرة، فلا يكون له مأوى ولا ملجأ يأوي إليه إلا النار(167).

ومن النظر في الآيات الكريمة الســـابقة المتعلقة بدعوة عيســـى عليه الســـلام ورسالته، تتبيَّن لنا الأمور الاتية:

. أنَّه رسول الله إلى بني إسرائيل.

. دعاهم إلى عبادة الله وحذَّرهم من الشرك وبين لهم أن الجنة محرمة على المشركين.

. جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة.

. اتاه الله الإنجيل، وفيه الهدى والنور والحكمة.

. اتاه الله البينات على صدقه وأيَّده بروح القدس.

. بيَّن لبني إسرائيل بعض الذي اختلفوا فيه.

. أحلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم.

. بشَّر بمحمد (ﷺ).

سادساً: عيسى عليه السلام في موكب الأنبياء والمرسلين:

عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل يقوده ذلك الرهط من الرسل؛ من نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين صـــلوات الله وســـلامه عليهم أجمعين، يعرض الســـياق هذا الموكب ممتداً موصـــولاً، وبخاصـــة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين، ولا يراعي التســـلســـل

---

(167) تفسير المنار تفسير القران الكريم، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1990م، 400/4.

التاريخي في هذا العرض ـــ كما يلاحظ في مواضع أخرى ـــ لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخي.

ومن جملة من ذكر في هذا الموكب من الأنبياء والمرسلين عيسى عليه السلام حتى يعلم أنه نبي كباقي الأنبياء، وليس هو الله، أو ثالث ثلاثة، فهو نبي مرسل.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام: 84-90]**.

وكانت التعقيبات على هذا الموكب المبارك:

- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *﴾
- ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *﴾
- ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *﴾

وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفائه من الله وهدايته إلى الطريق المستقيم.

وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة كله تمهيد للتقريرات التي تليه:

- ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهذا تقرير لينابيع الهدى في الأرض، فهدي الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل، وينحصر المستيقن منه والذي يجب اتباعه في هذا المصدر الواحد، الذي يقرر الله سبحانه أنه هو هدى الله، وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده.

ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذين يستمدون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم: أي أن يذهب ضياعاً، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً، فتنتفخ ثم تموت، وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط.

وهذا التقرير ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ *﴾، فقرَّر في الأول مصدر الهدى وقَصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل، وقرَّر في الثَّاني أن الرُّسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوَّة.

(والحكم) يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك ـ وكلا المعنيين محتمل في الآية ـ فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى والزبور مع داود والإنجيل مع عيسى وبعضهم آتاهم الله الحكمة كداود وسليمان، وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله، وأن الدين الذي جاؤوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا، وما

أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلُّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوَّة، وأولئك هم الذين وكَّلهم الله بدينه، يحملونه إلى الناس، ويقومون عليه ويؤمنون به ويحفظونه، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوَّة مشركو العرب: (هؤلاء)، فإن دين الله غنيٌّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين(168).

إنها حقيقة قديمة امتدَّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول وآمن بها، ويؤمن من يقسم الله له الهداية، لما يعلمه من استحقاقه للهداية، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن وفي قلوب العصبة المسلمة ــ أياً كان عددها ــ إن هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنها فرع منبثقٌ من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه... إن المؤمن الفرد، في أيِّ أرض وفي أيِّ جبل قويٌّ قويٌّ، وكبيرٌ كبيرٌ، إنه من تلك الشجرة المتينة السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنسانيّ، وعضوٌ في ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور(169).

- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ*﴾

وهو التقرير الثالث: فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله، وهُداهم الذي جاءهم من عند الله فيه القدوة لرسول الله تعالى ومن آمن

(168) في ظلال القران، 1144/2.
(169) المرجع نفسه، 1144/2.

به.

فهذا الهدى وحده هو الذي يسـير عليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشـر به قائلاً لمن يدعوهم: ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ *﴾، للعالمين: لا يختصُّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنه هدى الله لتذكير البشر كافَّة، ومن ثمَّ فلا أجر عليه يتقاضاه وإنما أجره على الله[170].

سابعاً: تصديق عيسى عليه السلام لما بين يديه من التوراة:

أخبر الله بأن عيسى عليه السلام مصدِّقٌ لما بين يديه من التوراة في مواضع مختلفة من كتابه العزيز، ومنها قوله تعالى:﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ **[المائدة: 46]**، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ **[الزخرف: 63]**.

إذن فدعوة عيسى مكمِّلة لشريعة موسى عليه السلام، وموضِّحة لها وامتداد لها ومصحِّحة لما طرأ عليها من انحرافات وضلالات مع توالي الحقب والأزمان، كما أنه عليه السلام قد أتى ببعض التخفيفات والتسهيلات لبني إسرائيل، قال تعالى حكاية لقول عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ **[آل عمران: 50]**، ولهذا كان المفهوم الطبيعي للنصرانية أن تحكم بشريعة التوراة مع مراعاة التعديلات الواردة في الإنجيل[171].

---

(170) في ظلال القران، 1145/2.

(171) مصادر النصرانية، عبد الرزاق بن عبد المجيد، دار التوحيد، الرياض، 1428هـ، 2007م، 61/1.

ثامناً: عيسى عليه السلام يبشر برسول الله محمد (ﷺ):

محمد رسول الله (ﷺ) هو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأخبر الله سبحانه وتعالى الأنبياء والرسل بهذه الحقيقة، وأخذ عليهم الميثاق والعهد أن يؤمنوا به.

ـ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[آل عمران: 81-82]**.

وقد بيّن سبحانه وتعالى وحدة الشرائع السماوية، وأنها يكمِّل بعضها بعضاً، وأنها كالقصر المشيد، كل لبنةٍ منه جزء من كيانه، وهو جماع لبناته وأركانه وأشكاله، وأكّد سبحانه تلك الوحدة ببيان ميثاق الله على الأنبياء، وأن الله سبحانه أخذ عليهم ليصدِّق بعضهم بعضاً... وكل نبيٍّ متمِّم ما بدأ به النبي الذي سبقه، أو بالأحرى يؤكد ما جاء به ويوثّقه ويقويه حتى ختم الله أنبياءه بمحمد (ﷺ)، فكان خاتم النبيين، ولذلك كان حقاً على كل نبيٍّ أن يصدِّق ويؤمن بما يجيء به النبي الذي بعده، والذي أعلمه الله به، وإذا كان حقاً على النبي المبعوث أن يؤمن بمن سبقه ومن يجيئون بعده ممن أخبره الله تعالى بمجيئهم، فإنه بلا ريب حق على الذين يتَّبعونه أن يصدِّقوا ذلك النبي الذي يجيء بعده، لأنهم يتبعونه في كل ما يؤمن به، فحقَّ على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذي أخذه الله على النبيين، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين، وتنفيذاً لهذا العهد، أن يؤمنوا بالنبي (ﷺ) وإلا لما كانوا متَّبِعين لموسى وعيسى عليهما السلام(172)، إنما يكونون متبعين لأهوائهم وشهواتهم، ولذا

(172) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، 1293/3.

يقول النبي (ﷺ) فيما رواه جابر: (لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتَّبعني)(173).

وقد صرَّح القرآن الكريم بأن عيسى ـ عليه السلام ـ قد بشَّر بالنبي الخاتم (ﷺ). قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ **[الصف: 6–7]**.

المبحث الثالث: معجزات عيسى عليه السلام والحواريون ورفعه إلى السماء:

أولاً: معجزات عيسى عليه السلام:

شاء الله الحكيم أن يجعل عيسى عليه السلام آية، ولذلك جعل معجزاته عديدة في حياته، فقد كان حمل أمه به من غير زوج آية، وإنزال عيسى عليه السلام من بطن أمه متكلماً آية، وإنطاق عيسى أمام أهلها، وتقديم نفسه إليهم آية، وهذه آيات ومعجزات رافقت خَلْقَه وميلاده وطفولته(174).

ولما صار شاباً وبعثه الله نبياً ورسولاً، قدم الله له عدداً من الآيات والمعجزات لبني إسرائيل، أقام عليهم فيها الحجَّة، وكذلك لما صمّم اليهود على صلبه وقتله حماه الله

(173) رواه أحمد، رقم 14104.

(174) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، 295/4.

منهم، ورفعه إلى السماء، وجعل هذا آية، وهو الان حيٌّ في السماء بروحه وبدنه، حياة غيبية لا نعرف كيفيتها، وجعل الله هذه آية، وسينزله الله في آخر الزمان إلى الأرض، فسيكون إنزاله آية.

وهكذا صاحبت الآيات والمعجزات عيسى عليه السلام منذ خلقه إلى موته قبل قيام الساعة، ولهذا قال الله عنه وعن أمّه ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ **[الأنبياء: 91]**.

حيث نصَّ على أنّه جعلها آية للعالمين، والعالمون هنا هم الناس أجمعون، جعلها الله آية من آياته الدالَّة على وحدانيَّته وقدرته وحكمته، واللطيف هو التعبير القرآنيّ أنه عبّر عن الاثنين عيسى وأمّه بالمفرد، وذلك في قوله ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ وحكمة الإفراد (آية) أنهما متلازمان لا ينفصلان، فلا يذكر عيسى عليه السلام إلا تُذكر أمّه معه، ولا تذكر مريم رضي الله عنها إلا بذكر ابنها معها، فهما (آية) معاً.

وإن الآيات التي جعلها الله في مريم هي تمهيدٌ لآيات عيسى عليه السلام، فقصة مريم هي قصة عيسى باعتبارها أمُّه، فالمقصود من الآيات هو عيسى، ولذلك عبّر بالمفرد (آية). وعيسى هو الآية، وأمه جزء منه، وايتها هي آيته، ويهمُّنا في هذا الموضوع الحديث عن آيات عيسى عليه السلام التي قدمها لبني إسرائيل، فهو رسول بعثه الله إليهم، وجعل الله معه آيات معجزات دالّة على صدقه ونبوَّته[175].

هذا وقد أيَّد الله عيسى عليه السلام بالروح القدس، وهو جبريل عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ **[البقرة: 87]** وامتنَّ

---

(175) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 297/4.

الله عليه بتأييده بروح القدس، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ **[المائدة: 110]**.

وأُطلق على جبريل روح القدس؛ لأن أساس معنى الروح هو ما به حياة الإنسان سواء كانت حقيقة أو معنوية، فالروح الحقيقية هي التي يجعلها الله في الإنسان، وهي سرٌّ من أسراره سبحانه، لا يعلم حقيقتها أحد من خلقه، وهي أساس حياة الإنسان، فإن خرجت الروح منه مات.

والروح المعنوية هي التي بها حياة القلوب والنفوس والأرواح، وبهذا الاعتبار أطلق على جبريل كما أطلق على القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ **[الشورى: 52]**، وأضاف الروح إلى القدس في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾، أي: هو الطاهر المطهر المبارك(176).

وقد خلق الله تعالى: جبريل عليه السلام من طهارة محضة، فهو ملك خلقه الله من النور، وقيل: سمي بذلك من حيث أنه ينزل من الله بالقدس، أي: بما يطهّر به نفوس عباده من القرآن والحكمة والفيض الإلهي(177).

و(روح القدس) ــ جبريل عليه السلام ــ ليس خاصّاً بعيسى ابن مريم عليه السلام، فقد ورد في القرآن الكريم في سياق إنزال كتاب الله على عبده ورسوله محمد (ﷺ).

---

(176) الجدول في إعراب القران وصرفه وبيانه، محمود صافي، دار الرشيد، بيروت، ط1، 1411هـ، 1990م، 192/1.

(177) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 298/4.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 101-102]** ، والشاهد في الآية الثانية أي: نزَّل عليك القرآن من ربك بواسطة جبريل وهو روح ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾.

والخلاصة: أن الله تعالى اتى عيسى عليه السلام الآيات والمعجزات البينات، وأيَّده بجبريل تأييداً ﴿وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهذا معناه أن الله كان ينزل عليه روح القدس جبريل وهو يقوم بالدعوة ويواجه بني إسرائيل، وكان جبريل عليه السلام يؤيده ويقوِّيه ويشجعه، وليس هذا خاصّا بعيسى عليه السلام، فكل أنبياء الله ورسله أيدهم الله وقوّاهم ونصرهم بروح القدس جبريل عليه السلام، وكان لرسولنا (ﷺ) نصيب كبيرٌ من تأييده به، حيث كان ينزل عليه معلماً موجهاً، وفي المعارك مع الكفار كان ينزل يقود الملائكة مدداً مساعداً معيناً، بأمر الله، كما حصل في بدرٍ وأُحد والأحزاب[178].

ثانياً: عيسى عليه السلام والحواريون:

وردت كلمة الحواريون في القرآن خمس مرات، وكلها وصف لأتباع عيسى عليه السلام المؤمنين به وكلها واردة بصيغة الجمع، وتعددت الأقوال في سبب تسمية أنصار عيسى عليه السلام بالحواريين: والحواريون أنصار عيسى عليه السلام: كانوا قصّارين وقيل صيادين، وقال بعض أهل العلم: إنما سمّوا حواريين لأنهم كانوا يُطهرون نفوس الناس، بإفادتهم الدين والعلم ــ وحرصهم على تربية النفوس وتزكيتها ــ، وقال

(178) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 299/4.

بعض العلماء: إنما كانوا صـيادين لاصـطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقيادتهم إلى الحق[179].

وأورد الإمام الطبري ثلاثة أقوال في سـبب تسـميتهم بالحواريين ورجَّحَ الأول منها: اختلف أهل التأويل في سبب تسميتهم (الحواريين):

. فقال بعضهم: سُمّو بذلك لبياض ثيابهم.

. وقال آخرون: كانوا قصّارين يبيضون الثياب.

ـــ قال آخرون: هم خاصة أتباع الأنبياء وصفوتهم، والراجح هو القول الأول عند الطبري[180].

وأما الإمام ابن كثير فقد رجَّحَ أنهم سُمّوا حواريين لأنهم آمنوا بعيسـى عليه السـلام وأيّدوه ونصروه، وبين أن الحواري هو الناصر[181].

والراجح ما رجحه ابن كثير، ودليل ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال النبي (ﷺ): من يأتيني بخبر القوم يوم الأحزاب؟ فقال الزبير رضـي الله عنه: أنا ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ قال الزبير: أنا، فقال النبي (ﷺ): إن لكلّ نبيّ حواريًا وحواريّ الزبير[182].

---

(179) المفردات في غريب القران، الراغب الأصفهاني، ص263؛ صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 313/4.

(180) تفسير الطبري، 279/2 . 280.

(181) تفسير ابن كثير، 345/1.

(182) البخاري، رقم 2847، مسلم رقم 2415.

فقد أراد الرسـول (ﷺ) أن يقوم واحد من أصـحابه لينظر ما يفعل المشـركون يوم الأحزاب، فندبهم وخبرهم وكان الزبير بن العوام رضـي الله عنه هو الذي يقوم في المرات الثلاث، وعلق رسول الله (ﷺ) على قيام الزبير في المرات الثلاثة بأن الله جعل لكل نبي حواريًا يؤيده وينصـره، وإن حواريّه هو الزبير بن العوام رضـي الله عنه، أي أن الزبير هو ناصـر رسـول الله (ﷺ) من البشـر، ومؤيده ومتابعه وليس معنى هذا قصر النصرة على الزبير وحده ونفيها عمن سواه من المهاجرين والأنصار، وإنما معناه أنه كان أبرز حواري وناصـر لرسـول الله (ﷺ) في تلك الحادثة، وإلا فإن الصـحابة كانوا جميعاً حواريّين لرسـول الله (ﷺ) ونصـروه واتّبعوه وأيدوه، وكانوا أفضـل من الحواريين أتباع عيسى عليه السلام.

إن هذا الحديث الصـحيح يدل على أن (الحواريين) ليسـوا خاصـين بعيسـى عليه السلام، وأن لقب (الحواريين) ليس مقصورًا عليهم.

إن (الحوارين) هم أتباع كل نبي وإن هـذا اللقب يطلق على كـل من أيّـدوا نبيًا ونصروه، فأتباع موسى عليه السلام حواريون، وأتباع عيسى عليه السلام حواريون، وأتباع محمد (ﷺ) حواريون وهكذا[183]، والحديث صـريح في هذا المعنى، وذلك في قوله: (إن لكلّ نبيّ حواريًا...)[184].

وإذا كان أتباع وأنصـار كل نبي حواريّين له، فإن هذا يدلنا على أن سـبب تسـمية أنصار عيسى عليه السلام حواريون، ليس لأنهم كانوا قصّارين أو صيادين، أو ذوي

---

(183) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 315/4.

(184) البخاري، رقم 2847.

ملابس بيضاء وإنما لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وأيدوه ونصروه[185].

- ﴿وَمَكَرُوا﴾: اليهود الكافرون، مكروا بعيسى عليه السلام مكرًا خبيثًا وتامروا عليه وأرادوا قتله.
- ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أبطل الله مكر اليهود، وأفشل كيدهم وحمى عيسى عليه السلام منهم.
- ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾: الله خير من ينصر أولياءه ضد، وخير من يبطل كيد أعدائه ويُحبط مؤامراتهم[186].

لقد أسندت الآية إلى اليهود مكرًا خبيثًا مذمومًا ضد عيسى عليه السلام وأرادوا قتله، ورسموا لذلك خطة دقيقة ومكروا به مكرًا شيطانيًا خبيثًا، وأسندت الآية إلى الله مكرًا طيبًا محمودًا وهو إبطال مكرهم السيء، وإنجاء عيسى عليه السلام من كيدهم، فأنقذه من بين أيديهم بأن ألقى شبهه على غيره فأخذوا شبهه وقتلوه، ظانين أنهم قتلوا عيسى، وبهذا مكر الله بهم وسخر منهم، وأخرجه الله من وسطهم حيًا وحفظه بحفظه وحماه بحمايته[187].

ـ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ **[المائدة: 110]** ، وهذه الآية تحدثت عن حماية الله له بإجمال، فلما أراد اليهود إيذاءه وقتله كف الله أيديهم عنه[188].

---

(185) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 315/4.
(186) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 347/4.
(187) المرجع السابق، 347/4.
(188) المرجع نفسه، 348/4.

1. المكر بعيسى عليه السلام:

لم ترق تعاليم المسيح عليه السلام لكثير من اليهود الذين حقَّ عليهم قول الله تعالى في كتابه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ **[المائدة: 78–79]**.

ورأوا فيها خطرًا على مصالحهم وثرواتهم، ولقد ضاق الكهنة والفرسيون من دعوته. التوحيد والإيمان الصحيح، وعبادة الله عز وجل كما ينبغي ــــ ودعوته إلى القناعة والعفة والزهد، ومن نهيه عن الربا والرشوة والفساد والظلم، فتمالؤوا عليه ووشوا به إلى الحاكم(189).

لقد خافوا على مصالحهم واتخذوا من تدينهم المزعوم بدين موسى والأنبياء من بعده، وزعموا أن لهم منزلة دينية لا يساميهم فيها أحد ـ اتخذوا من هذا ما يصح أن يسمى ارستقراطية دينية؟ فزعموا أن لهم المكانة السامية، ولغيرهم المنزل الدون، ولو اعتنقوا الديانة اليهودية وآمنوا برسالة موسى، فكانت هناك طائفة يقال لها السامرة، وكان الإسرائيليون يعاملون احادها كأنهم المنبوذون، فلما جاء عيسى عليه السلام وسوى بين بني البشر في دعايته أنكروا عليه ذلك وناصبوه العداوة.

ولقد كانوا يجعلون لأحبارهم وعلماء الدين فيهم المنزلة السامية والمكانة العالية بين الناس، فجاء المسيح وجعل الناس جميعًا سواء أمام الخالق العظيم ولا فرق بينهم إلا بالتقوى وحسن العبادة وتحقيق الإيمان بالله، لكل هذا تقدم اليهود لمناوأة المسيح، وقليل منهم من اعتنق دينه وآمن به، وأخذوا يعملون على منع الناس من سماع

---

(189) رسائل الأنبياء، عمر أحمد عمر، 311/2.

دعوته، فلما أعيتهم الحيلة، ورأوا أن الضعاف والفقراء يجيبون نداءه، ويلتفون حوله مقتنعين بقوله أخذوا يكيدون له ويوسوسون للحكام بشأنه ويحرضون الرومان عليه[190].

وقالوا للحاكم: إن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، وإنه ولد زنية، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، حتى تمكنوا من حمل الحاكم على أن يصدر الأمر بالقبض والحكم عليه بالإعدام صلبًا، وأرسل جندًا ليقبضوا عليه، فلما عثروا عليه وأحاطوا به واقتحموا بيته نجاه الله منهم ورفعه إليه، وألقى شبهه على من تقدمهم إليه، فلما دخلوا وراءه قبضوا عليه وهم يحسبون أنه عيسى، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه، ورفعه من بين أظهرهم وتركهم في ضلالهم يعمهون ويعتقدون أنهم قد ظفروا به[191].

قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ **[آل عمران: 54-58]**.

---

(190) محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص53.

(191) ، رسائل الأنبياء، عمر أحمد عمر311/2.

- ﴿وَمَكَرُوا﴾: اليهود الكافرون، مكروا بعيسى عليه السلام مكرًا خبيثًا وتامروا عليه وأرادوا قتله.
- ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أبطل الله مكر اليهود، وأفشل كيدهم وحمى عيسى عليه السلام منهم.
- ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *﴾: الله خير من ينصر أولياءه ضد، وخير من يبطل كيد أعدائه ويُحبط مؤامراتهم(192).

2. وما قتلوه وما صلبوه:

إنَّ القرآن الكريم تحدث عن محاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام في ثلاث مواضع بثلاث سور:

– إشارة سريعة إلى كفِّ بني إسرائيل عنه لما جاءهم بالبينات، وذلك في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ **[المائدة: 110]**.

– حديث مجمل في حماية عيسى عليه السلام منهم، بأن ألقى عليه النوم في رفعه إليه وذلك في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ **[آل عمران: 55]**.

والحديث أكثر تفصيلاً ــ لكنه ما زال مجملاً ــ عن نفي قتل اليهود وصلبهم لعيسى عليه السلام، لأن الله رفعه إليه وقيامهم بقتل وصلب شبيه له.

ـــ قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا

---

(192) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 347/4.

الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۝ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 153–159]**.

ثالثاً: نزول عيسى في آخر الزمان:

إنَّ الله عزَّ وجل رفع عيسى عليه السلام إليه، وأنه الان حيٌّ في السماء حياة طيبة، وقد التقى به رسولنا (ﷺ) في رحلة الإسراء والمعراج، التقى به أولاً في المسجد الأقصى، عندما صلى رسول الله (ﷺ) بالأنبياء إمامًا، وكان عيسى عليه السلام مأمومًا خلفه، ثم التقى به ثانيًا لما عُرج به إلى السماء، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية، ففي حديث الإسراء والمعراج: «فأتينا السماء الثانية، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قال: محمد (ﷺ)، قيل: أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، ولنعم المجيء جاء، فأتيت على عيسى ويحيى فقالا: مرحبًا بك من أخ ونبي»[193].

---

(193) البخاري، رقم 3207، وانظر: مسلم رقم 164. وانظر: صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، 399/4.

أدلّة نزول عيسى عليه السلام:

ـــ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ **[الزخرف: 57-62]**، والشاهد في الآيات قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾، والهاء في (إنه) تعود على عيسى عليه السلام، لأن الآيات تتحدث عنه، والمعنى: إن عيسى عليه السلام علم تُعلم به الساعة، أي: أن نزوله في اخر الزمان سيكون علامة من علامات الساعة، دالّة على قرب قيامها(194).

ـــ قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ **[النساء: 159]**. والهاء في (موته) تعود على عيسى عليه السلام، والمعنى: كل واحد من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى عليه السلام أنه عبد الله ورسوله وهذا يكون عند نزوله في اخر الزمان حيث يقتل الدجال ويكسر الصليب ولا يقبل من الناس إلا الإسلام. والمعنى: أهل الكتاب يؤمنون بعيسى عند نزوله في اخر الزمان ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدًا، يشهد على من كذّبه بالكفر، ويشهد لمن صدَّقه بالإيمان، وعلى هذا القول الراجح تكون الآية خبرًا عن نزول عيسى عليه السلام في اخر الزمان(195).

---

(194) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، الخالدي، 403/4.

(195) المرجع نفسه، 405/4.

الخلاصة: دروس وعِبر:

1. ولد عيسى عليه السلام بأرض الجليل من مناطق فلسطين أو (جليل الأمم)، كما سمّاها الإسرائيليون فيما بعد؛ لأنها كانت إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقية والغربية ــــ في مدينة بيت لحم ــــ والتي تبعد قرابة 10 كم جنوبي مدينة القدس.

2. إنَّ التعاليم الإلهية التي جاء بها عيسى عليه السلام كانت مناسبة لهذه البيئة، وجاءت علاجاً لمشكلاتها، فبينما كانت تسيطر الأجواء المادية في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى عليه السلام روحية سامية لتعالج ذلك الاستغراق المادي.

3. عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريا عليه السلام، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر، واستفادت منه الخلق والسلوك فنشأت نشأة إسلامية صالحة، وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مقبلة على الله متصلة به.

4. إن الله اصطفى مريم على نساء العالمين، وانتقاها من بين النساء ونشّاها نشأة حسنة، وأنبتها نباتاً حسناً، وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته، وألهم أمها أن تنذرها له وهي في بطنها ليجعلها خالصة محررة له، وهيأ لها الحياة والعيش تحت كنف ورعاية نبي كريم هو زكريا عليه السلام وقدَّم لها الرزق المنوّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها، ولم تتوفر هذه الأمور لأي امرأة غيرها، مهما بلغت من الصلاح والتقوى، وهذا هو الاصطفاء الأول لها القائم على الانتقاء والاجتباء، وبما أن الله اصطفاها وانتقاها، فقد صفّاها وخلّصها من الشوائب، وطهرها من الأدناس والأرجاس ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، واصطفاها الله على نساء العالمين، وفضلها عليهنَّ جميعاً في إنجابها الولد بدون أب، حيث خصّها وحدها بهذه الآية الباهرة والمعجزة الخارقة.

5. إن الآيات التي تحدثت عن آل عمران والسيدة مريم وزكريا عليهم السلام في سورة آل عمران من أنباء الغيب، ودلالة واضحة على نبوة النبي(ﷺ)، وأن تلك الأخبار من وحي الله إليه، لأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن محمداً(ﷺ) أميّ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا معناه أنه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب ولم يصاحب أحبار ورهبان أهل الكتاب فكيف علم بهذه الأخبار الخفية التي لا يعلمها إلا عدد قليل من الأحبار والرهبان، ولذلك لا شك بأن الله هو الذي أوحى إليه بها، فهو رسول الله.

6. جاءت تفاصيل مولد عيسى عليه السلام في سورة مريم، بدقة متناهية، وأوصافٍ محكمة للمكان والحالة النفسية التي مرت بها مريم عليها السلام، ابتداء من أخذها للمكان البعيد ومجيء المخاض وآلامها عند الوضع وتمنيها الموت ومناداة ابنها لها من تحتها، وما صاحب ذلك من نفحات وبركات.

7. إن القرآن الكريم ذكر قصة عبد الله ورسوله المسيح عيسى ابن مريم بقدر هائل من الدقة المتناهية بعد أن كانت كل من سيرته الشريفة ودعوته الكريمة قد شابها الكثير من التحريف والتشويه، ويعتبر ذلك بحق وجهاً من أوجه الإعجاز التاريخي في هذا الكتاب العزيز، يشهد له بأنه كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة والرسالة.

8. اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل؛ لأنها تتحدث عن مقررات ثابتة لا يقوم الإيمان إلا بها فهي حقائق ثابتة لا تتطور ولا تتغير، ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة.

9. اتصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل، وفي مقدمتها الصدق والأمانة والفطانة والبيان وغيرها، وقد تحدث القرآن الكريم عن أصول الدين وأخلاقه الجامعة التي اتفقت عليها الرسل في كل الديانات السماوية والمقررة في كل الشرائع العادلة كالوصايا العشرة المذكورة في سورة الأنعام.

10. أرسل الله تعالى المسيح عيسى ابن مريم برسالة الإسلام، فكان يدعو بني إسرائيل إلى اعتناق هذا الدين المؤسَّس على الاعتراف بالخالق ووحدانيته.

11. بشّر عيسى عليه السلام برسول الله (ﷺ)، وذكرت صفاته في التوراة والإنجيل، وسطعت بشارته في كتب أهل الكتاب، وأثبت ذلك علماء من أهل الكتاب من أشهرهم عبد الأحد داود في كتابه (محمد في الكتاب المقدس).

12. الحواريون هم أنصار عيسى عليه السلام، فقد استجابوا لدعوة عيسى عليه السلام وأصبحوا أنصار الله، آمنوا بالله، وبما أنزل، واتبعوا رسوله.

13. إن تنزه المسيح عما جاء في كتب النصارى من الصّلب والإهانات التي تعرض لها قد استدل النصارى على قولهم بالصّلب على الأناجيل، وقد بيّنا أنها محرّفة ومبدلة ومتناقضة بالدليل والبرهان.

14. إن الله عز وجل رفع عيسى عليه السلام إليه، وإنه الان حيٌّ في السماء حياة طيبة قد التقى به رسولنا (ﷺ) في رحلة الإسراء والمعراج، التقى به أولاً في المسجد الأقصى عندما صلى رسول الله (ﷺ) بالأنبياء إماماً وكان عيسى مأموماً خلفه، ثم التقى به ثانياً لما عرج به إلى السماء، حيث أخبرنا أنه قابل عيسى عليه السلام في السماء الثانية.

15. حدثت مجادلة عظيمة خلدت في القرآن الكريم في سورة آل عمران بين نصارى نجران والنبي (ﷺ) وكانت من أهم موضوعات الجدل بيان القرآن الكريم

من خلال رسول الله (ﷺ) بطلان ألوهية المسيح.

16. إن الخطاب القرآني هو الأقرب للعقل الأوروبي المتحرر ووجدانه المتلهف للحقائق الإيمانية ومنطقه الذي ضاع في عالم الماديات والشهوات وغاب عن عوالم المعاني والقيم الروحية.

17. إن القرآن الكريم بيّن حقيقة عيسى عليه السلام وكونه لا يعدو إلا أن يكون عبداً ورسولاً لله تعالى من أولى العزم.

الفصل السادس:

سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وسلم)

تمهيد

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ؛ من أهمِّها: الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيَّته صلى الله عليه وسلم ، وأعماله، وأقواله، وتقريراته، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وتُنمِّيها، وتُباركها، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام، الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم، والسَّير على نهجهم، واتباع سبيلهم، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بدقائقها، وتفاصيلها منذ ولادته؛ وحتى موته، مروراً بطفولته، وشبابه، ودعوته، وجهاده، وصبره، وانتصاره على عدوِّه وتُظهِر بوضوحٍ: أنَّه كان زَوْجاً، وأباً، وقائداً، ومحارباً، وحاكماً، وسياسيا، ومُرَبِّياً، وداعيةً، وزاهداً، وقاضياً، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[196].

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أساليب الدَّعوة، ومراحلها المتسلسلة، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالنَّاس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق، والعقبات، والصعوبات، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد، والفتن.

ويجد المربِّي في سيرته صلى الله عليه وسلم دروساً نبويَّةً في التَّربية، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده، وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف،

(196) السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1418هـ 1997م، ص (50).

وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولةً نشـــرت العدل في مشـــارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحارب في سيرته صلى الله عليه وسلم نظاماً محكماً، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش، والقبائل، والشعوب، والأمَّة، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء، والرَّاعي والرَّعيَّة.

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل مع أشدِّ خصومه السـياسـيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيِّ بن سـلول، الذي أظهر الإسـلام، وأبطن الكفر، والبغض لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وكيف كان يحيك المؤامرات، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لإضعافه، وتنفير النَّاس منه، وكيف عامله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصبر عليه، وعلى حقده، حتَّى ظهرت حقيقته للناس؛ فنبذوه جميعاً، حتى أقرب الناس إليه، وكرهوه، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنَّها هي المفسِّـرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسيرٌ لكثير من الآيات، فتعينهم على فهمها، والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسـخ، والمنسـوخ، وغير ذلك من العلوم، وبذلك يتذوَّقون روح الإسـلام، ومقاصـده السـامية. ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد، وحقيقته، ومقصده، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة، وأنظمتها، وطرقها، ويتعلَّم منها

المبتلوْن أسمى درجات الصَّـــبر والثَّبات، فتقوى عزائمهم على الســـير في طريق دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله – عزَّ وجل – ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[197].

وتتعلَّم منها الأمَّة الآداب الرَّفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السَّـــليمة، والعبادة الصحيحة، وسموَّ الرُّوح، وطهارة القلب، وحبَّ الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهاد في سبيله، ولهذا قال عليُّ بن الحسن: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي صلى الله عليه وسلم كما نُعَلَّم السُّـــورة من القرآن»، وقال الواقديُّ: سمعت محمَّد بن عبد الله يقول: سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدُّنيا».

المبحث الأول: نزول الوحي والدعوة السرية:

أولاً: نزول الوحي:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون، وخالقه، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته، فتزوَّد لليالٍ أخرى[198]، وفي نهار يوم الإثنين من شـــهر رمضـــان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[199]، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح، وكتب السُّنن، والمسانيد، وكتب التاريخ»، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم، فكان لا يرى

---

(197) مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحي اليحيى ، ص (14).

(198) صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي، دار النفائس، الطَّبعة الثَّالثة، 1408هـــ 1998م. ص 67.

(199) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، أكرم ضياء العمري، (125/1).

رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّــبح، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يخلو بغار حراء، فَيَتَحَنَّثُ فيه – وهو التَّعبُّد – الليالي ذواتِ العددِ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ، فجاءه المِلكُ، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثالثة، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ **[العلق: 1 – 5]**» .

فرجع بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زَمِّلُوني، زَمِّلُوني، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكَلَّ(200)، وتُكسبُ المعدومَ(201)، وتقري الضَّيفَ، وتعين على نوائب الحقِّ(202). فانطلقت به خديجة، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانِيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له

(200) تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء.

(201) وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.

(202) نوائب الحقِّ: الكوارث ، والحوادث.

ورقة: هذا هو النَّاموس[203] الَّذي نزَّل الله على موســـى، يا ليتني فيها جَذَعاً[204]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رســول الله صــلى الله عليه وســلم : أوَ مُخْرِجِيَّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[205]، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ، وفَـــتَـــرَ الوحي[206]» **[سبق تخريجه]** .

عندما نتأمل في حديث السَّـيدة عائشــة؛ يمكن للباحث أن يســتنتج قضــايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرؤيا الصالحة.

ثانياً: حبب إليه الخلاء فكان يخلو في غار حراء الليالي ذوات العدد.

ثالثاً: جاء الحق (الملك) وهو في غار حراء.

رابعاً: تعرض النبي ﷺ لشدة بالغة فترة نزول الوحي.

خامساً: نجد أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة.

سادساً: سنة تكذيب المرسلين.

---

(203) النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.

(204) جَذعاً: شاباً قوياً.

(205) مؤزَّراً: قوياً بالغاً.

(206) فتر الوحي: تأخَّر نزوله.

ثانياً: الدعوة السرية:

1. الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ صــلى الله عليه وســلم معرفة اليقين: أنَّه أصــبح نبياً لله الرَّحيم الكريم، وجاءه جبريل عليه الســـلام للمرَّة الثَّانية، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ **[المدثر: 1 – 4]**.

2. بدء الدعوة السرية:

بعد نزول آيات المدثر، قام رســول الله صــلى الله عليه وســلم يدعو إلى الله، وإلى الإسلام سراً، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب النَّاس إليه.

وكان أول من أسلم:

- السيدة خديجة رضي الله عنها، أول من أسلم من النساء.
- علي بن أبي طالب. أول من أسلم من الشباب.
- زيد بن حارثة؛ أول من أسلم من الموالي.
- أبو بكر الصديق، أول من أسلم من الرجال.
- بنات النبي صلى الله ﷺ.

الدفعة الثانية:

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إســلام الدُّفعة الأولى، فأوَّل من أســلم من هذه الدُّفعة: أبو عبيدة بن الجراح، وأبو ســلمة عبد الله بن عبد الأســد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم (برَّة بنت عبد المطلب)، وأخوه من الرَّضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وســـعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ، وفاطمة

بنت الخطَّاب بن نفيل، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سـعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصِّـدِّيق، وعائشـة بنت أبي بكرٍ الصـدِّيق، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة[207].

الدفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقَّاصٍ، وعبد الله بن مسعودٍ، ومسعود بن القاري، وهو مسـعود بن ربيعة بن عمرٍو، وسـليط بن عمرٍو، وأخوه حاطب بن عمرٍو، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخُنَيس بن حُذافة السَّهميُّ، وعامر بن ربيعة حليف ال الخطَّاب، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عُمَيس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وأخوه حطَّاب بن الحارث، وامرأته فُكَيهة بنت يســـار، وأخوهما معمَر بن الحارث، والسَّـــائب بن عثمان بن مظعون، والمطَّلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَـيْد، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ، وفهيرة: أمُّه، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَـخْبَرة، فاشـتراه الصِّـدِّيق، وأعتقه، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ، وامرأته أمينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالدٌ، وعامرٌ، وعاقلٌ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل، وعمَّار بن ياســرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة، وقال ابن هشام: عَنْسيٌّ من مَذْحج.وصُهيب بن سنان، هو (سابق الرُّوم).

---

(207) دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، من التكوين إلى التمكين ، ص 212.

3. أهم خصائص الجماعة الأولى التي تربت على يدي رسول الله ﷺ:

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم ، قد برزت فيها خصـائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة، وتصنع الحضارة الرَّائعة، ومن أبرز هذه الخصائص:

أ. الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد، والشَّرائع، والآداب وغيرها، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل - قرآناً وسـنَّةً - وذلك بالعلم بالله، وأسمائه، وصـفاته، وأفعاله، ومعرفة ما يجب له، وما ينزَّه عنه - سـبحانه وتعالى - والعلم بالملائكة، والكتاب، والنَّبيِّين، والعلم بالآخرة، والجنَّة، والنَّار، والعلم بالشَّرائع المجملة والمفصَّلة، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين، والعلم بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا، في القصد والغنى، في الأمن والخوف، في الخير والشَّرِّ، في الهدنة والفتنة، والتزام الدَّليل الشَّـرعيّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّـحيح[208]. قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ **[الأعراف: 181]** .

ب. التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان:

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسـب، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله - محبَّته، والتألُّه إليه، والشَّوق إلى لقائه، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ، وأورثهم تعظيمه، والخوف منه، والحذر من بأسـه،

(208) صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص 83.

وعقابه، وبطشـــه، ونقمته، وأورثهم رجاء ما عنده، والطَّمع في جنَّته، ورضـــوانه، وحســـن الظَّنِّ به، فاكتملت لديهم - بذلك - آثار العلم بالله، والإيمان به، وهي الحبُّ، والخوف، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديّ السَّرمديّ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه، وتخشـــى فوته، وعذابٍ تحذره، وتخشـــى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالآخرة - فكرةً، وخوفاً، ورجاءً - حتَّى كأنَّهم يرون البعث، والقيامة، والميزان، والصِّـــراط، والجنَّة، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه - التَّوكُّل على الله، وعدم التَّوكلِ على الأسباب، وعدم الفرح بما أوتوا، ولا الأسَى على ما مُنعوا، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرء ما قدِّر له، ولن يأتيه ما لم يقدَّر، كما غرس في نفوســهم الشَّـجاعة، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت، وإيمانُهم به - العزوفَ عن الدُّنيا، والإقبال على الآخرة، والدَّوام على العمل الصَّالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ، بل هو ضررٌ في العاجل، والاجل[209].

4. المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدراسية الَّتي قام بتدريسـها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم، القرآن الكريمَ، فهو مصـدر التَّلقِّي الوحيد، فقد حَرَصَ الحبيب المصـطفى صـلى الله عليه وسلم على توحيد مصـدر التَّلقِّي، وتفرُّده، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المســلم، والأسـرة المسـلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القُدُس ينزل بالآيات غضَّةً طريَّةً على رسول الله صلى الله عليه

(209) صفة الغرباء ، ص 97.

وسلم ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرةً، فَتُسْكَب في قلوبهم، وتتســـرَّب في أرواحهم، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم، وكانت قلوبهم، وأرواحهم تتفاعل مع القرآن، وتنفعل به، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنســـانٍ جديدٍ؛ بقيمه، ومشاعره، وأهدافه، وسلوكه، وتطلُّعاته. لقد حرص الرَّسول صلى الله عليه وسلم حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادَّة الدراسية، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القرآن(210).

5. أسباب اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

- أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإســـلامه، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

- أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضـــي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لـــواء الحرب ضدَّ بني هاشم، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه، ولن يخطر في البال أن يكون اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

- أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إســـلامه؛ فلقد كان في حدود السَّـــادســـة عشرة من عمره، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ بل يتَّجه نظرها، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه صلى الله عليه وسلم .

---

(210) دولة الرَّسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين ، ص 225.

المبحث الثاني: البناء العقديُّ في العهد المكِّيّ:

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم لله قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ، ونقصٌ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه، وصفاته: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ **[الأعراف: 180]**، فينكرون بعض صفاته، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق فيها، أو بما يوهم معنىً فاسداً، وينسبون إليه النَّقائص، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ **[الأنعام: 100]**، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ **[النحل: 57]** .

فجاء القرآن الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين، وإيضاحها للنَّاس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة، وتوحيد الألوهيَّة، وتوحيد الأسماء، والصِّفات، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب، والنَّبيِّين، والقدر خيره وشرِّه، واليوم الآخر، وإثبات الرِّسالة للرُّسل – عليهم السَّلام – والإيمان بكلِّ ما أخبروا به(211).

فقد عَرَّف القرآن المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يربِّيهم على تلك الآيات العظيمة؛ فقد حرص صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم،

---

(211) أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، لعلي العلياني ، ص 47.

واستقامت فطرتُهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القرآن الكريم قائماً على عدَّة جوانب، منها:

1 – أنَّ الله منزّهٌ عن النَّقائص، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له، لم يتَّخذ صاحبةً، ولا ولداً.

2 – وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ، ومالكه، ومدبّر أمره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الأعراف:54]** .

3 – وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ – دَقَّت أو عظمت، ظهرت أو خفيت – في هذا الوجود ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ **[النحل: 53]** .

4 – وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض، ولا في السَّماء، ولا ما يُخفي الإنسان، وما يُعلن: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ **[الطلاق: 12]** .

5 – وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتابٍ لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللَّحظة المناسبة، والوقت المناسب: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ **[ق: 18]** .

6 – وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون، وما يهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم، ومن منهم يرضى بقضاء الله، وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة، والإمامة، والسيادة، ومن منهم يغضب، ويسخط، فيكون جزاؤه غضبَ

الله، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ **[الملك: 2]**، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

7 – وأنَّه سبحانه يوفِّق، ويؤيِّد، وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي، وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ **[الأعراف: 196]** .

8 – وأنَّه – سبحانه وتعالى – حقُّه على العباد أن يعبدوه، ويوحِّدوه، فلا يشركوا به شيئاً: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ **[الزمر: 66]** .

9 – وأنَّه – سبحانه – حدَّد مضمون هذه العبوديَّة، وهذا التَّوحيد في القرآن العظيم[212].

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم، على فهم صفات الله، وأسمائه الحسنى، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم، وسعيهم، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها، وتطهَّر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشِّرك بجميع أنواعه، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله – عزَّ وجلَّ – في أيِّ شيءٍ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ، أو إعدامٍ، أو إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو طلب خير، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، وكالعظمة، والكبرياء، وكالحاكميَّة المطلقة، وكالطَّاعة المطلقة، ونحو ذلك[213].

---

(212) منهج الرَّسول صلى الله عليه وسلم في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص 10 . 16.
(213) أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص 53.

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشـــيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأســـاس الَّذي قام عليه البناء الإسـلاميُّ، وهي المنهجيَّة الصَّـحيحة الَّتي سـار عليها الأنبياء والمرسـلون من قبل، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود: 25 - 26].

المبحث الثالث: البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي:

قال تعالى: ﴿وَيَسْـــأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ **[الإسراء: 85]**، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـــاجِدِينَ ﴾ **[ص: 72]**، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَـــوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّـــمْعَ وَالأَبْصَـارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْـكُرُونَ ﴾ **[السـجدة: 9]**، وقد رَبَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشـدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمِّها:

1ــــ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق، وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَـــخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ **[الأعراف: 54]**.

2 - التأمُّل في علم الله الشَّامل، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّـــهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح، والقلب بعظمة الله، ويطهِّر النَّفس من الشكوك، والأمراض. قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ

مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْــقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَـى أَجَلٌ مُسَــمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ **[الأنعام: 59 – 60]** .

3 – عبادة الله – عزَّ وجلَّ – وهي من أعظم الوسـائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّلِ لله سبحانه، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ **[الإسراء: 23]**.

وإنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ، وقد ربَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعةٍ، وكان صـلى الله عليه وسـلم يتلو عليهم ما ينزل من قرآن، فإذا سمعوه، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقرآن المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق، وعلى تنقية الرُّوح، وتصـفيتها، من كلِّ ما يعوق سـيرها إلى الله تعالى، ورسـول الهدى صـلى الله عليه وسلم القدوة الكاملة، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ(214)؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ **[القلم: 4]** ومعنى الآية واضـحٌ، أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي اثرك الله به في القرآن(215).

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِـيِّ الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن » **[مسلم (746)**

---

(214) منهج الإسلام في تزكية النَّفس (331/1).
(215) فقه التَّمكين في القران الكريم ، للصلاَّبي ، (ص 354).

وأحمد (54/6) وأبو داود (1342)] . وقد جمع الله تعالى لنبيّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ **[الأعراف: 199]** .

وقد تربى جيل الصحابة على يد النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذوا من أنوار علمه وحكمته لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة، والرُّوحيَّة، والعقليَّة، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، فكانوا هم حداة الرَّكب، وهداةُ الأمَّة[216]، فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يزكِّيهم، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو مرَّةً واحدةً في حياته، وامن به، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له، ويتلقَّى منه، ويعبق من نوره، ويتغذَّى من كلامه، ويتربَّى على عينه[217]؟!!

المبحث الرابع: الجهر بالدَّعوة واعتراضات المشركين:

أولاً: الجهر بالدعوة:

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ، وتعبُّديَّةٍ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة، بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

(216) المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص 425.

(217) المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص 433.

*وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ **[الشعراء: 214 – 216]** .

فجمع قبيلته صلى الله عليه وسلم ، وعشيرته، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه[218].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت صَعِدَ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ صلى الله عليه وسلم على الصَّفا، فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ – لبُطونِ قريش – حتَّى اجتمعوا، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهبٍ، وقريشٌ، فقال: أرأيتَكم لو أخبرتُكم: أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مُصَدِّقيَّ؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً، قال: فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ **[المسد: 1 – 2] [البخاري (4971) ومسلم (208)]** وفي روايةٍ: ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكلِّ بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار.......»، ثمَّ قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّها بِبَلالِهَا» **[البخاري (4771) ومسلم (204)]** كان القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين، فلمَّا رأوا محمَّداً صلى الله عليه وسلم ، – وهو الصَّادق الأمين – قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصافهم، وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

(218) رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (46/3).

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة، والعلوم الوهبيَّة، وموعظةً، وإنذاراً، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات، والنُّبوَّات، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[219]، ولكنَّ أبا لهب قال: تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قد وضع للأمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً - وهو الجبل - ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس، فيصل صوته إلى الجميع، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعيِّ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق، وبهذا يكون صلى الله عليه وسلم قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم، أو دعوتهم يجب أن يعتمد - وبصفةٍ أساسية - على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل، والمستقبِل، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[220].

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول صلى الله عليه وسلم دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة، فبدء الدَّعوة بالعشيرة، قد يعين على نصرته، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ، فَجَلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل؛ لأنَّ الإسلام - كما يتجلَّى من القرآن الكريم - اتَّخذ الدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالية»**[(487)]**، فقد جاءت

---

(219) السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، ص 138.

(220) الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص 121.

الآيات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ **[الفرقان: 1]**، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ **[الأنبياء: 107]**، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ **[سبأ: 28]**.

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع النَّاس في أنديتهم، ومجامعهم، ومحافلهم، وفي المواسم، ومواقف الحجِّ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍ، وقويٍّ، وضعيفٍ، وغنيٍّ، وفقير[221]؛ حين نزول قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ *إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ *الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ **[الحجر: 94 – 97]** .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ، والإعراض، والسُّخرية، والإيذاء، والتَّكذيب، والكيد المدبَّر المدروس، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة، ساهم فيه فّأشدُّ، وألدُّ أعدائها، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر، والشِّرك.

كانت الوسيلة الإعلاميَّة في ذلك العصر، تناقل النَّاس للأخبار مشافهةً، وسمع القاصي، والدَّاني بنبوَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، وصار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس، ونوادي القبائل، وفي بيوت النَّاس[222].

---

(221) دراسة في السيرة ، لعماد الدين خليل ، ص 66.

(222) الغرباء الأولون، ص 167.

ثانياً: اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، والقرآن الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها:

1. الإشراك بالله:

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون: أنَّ الله خلقهم، وخلق كلَّ شيءٍ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ **[لقمان: 25]**، لكنَّهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون: أنَّها تقرّبهم إلى الله، قال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى(223) إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفارٌ﴾ **[الزمر: 3]**.

2. كفرهم بالآخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ﴾ **[سبأ: 7 – 8]**.

---

(223) زُلْفَى: قُربَى

3. اعتراضهم على الرَّسول صلى الله عليه وسلم :

اعترضوا على شخص الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً، أو مصحوباً بالملائكة: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً ﴾ **[الإسراء: 94]**.

رابعاً: موقفهم من القرآن الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القرآن الكريم منزلٌ من عند الله، واعتبروه ضرباً من الشِّعر، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القرآن، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقرآن مُبِينٌ *لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ **[يس: 69 – 70]**.

المبحث الخامس: محنة الطَّائف، ومنحة الإسراء وطوافه على القبائل:

أولاً: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف:

فكان النبي صلى الله عليه وسلم ينوّع، ويبتكر في أساليب الدَّعوة، فدعا سرّاً وجهراً، وسلماً وحرباً، وجمعاً وفرداً، وسفراً وحضراً، كما أنَّه صلى الله عليه وسلم قصَّ القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض، وغيره، كما رغَّب وبشَّر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كلِّ انٍ، وعلى كلِّ حالٍ، وبكلِّ أسلوبٍ

موثّرٍ فعَّالٍ[224]، فها هو صـــلى الله عليه وســـلم ينتقل إلى الطَّائف، ثمَّ يتردَّد على القبائل، ثمَّ يهاجر، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يسـعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ، لكنَّها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها، فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصـرانيّاً، فأسـلم، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شـوَّال سـنة عشـر من المبعث بعد موت أبي طالب، وخديجة، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف، كانت عشرة أيام[225].

ثانياً: رحلة الإسراء ذروة التكريم:

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، سـياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش؛ لأنَّ قريشـاً ما كانت تريد أن تخسـر أبا طالبٍ، ولـــمَّا تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ، ونال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من الضَّرر الجسديِّ الشيءُ الكثير.

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون، ولـمَّا توفيت فَقَدَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا البلسمَ.

وخرج رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى الطَّائف بعدما اشـتدَّ عليه أذى قريش، وأمعنوا في التَّضـييق عليه، يطلب من زعمائها نصـرة الحقِّ الذي يدعو إليه، وحمايته،

(224) مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية ، بادحدح ، ص 123.

(225) طبقات ابن سعد (221/1) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (185/1).

حتى يبلِّغ دين الله، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتجهَّمت له قريش، وأضمرت له الشَّرَّ، فلم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر، لقد تجهَّمت له قريش، وأحدقت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادتْ حزنَه، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بـ(عام الحزن)(226).

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ اللهِ لرسوله، ألاَ وهي: الإسراء والمعراج.

أمَّا هدف هذه المعجزة، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها:

أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – أراد أن يتيح لرسوله صلى الله عليه وسلم فرصة الاطّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته. قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ۝ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى ۝ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى ۝ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أخرى﴾ **[طه: 17 – 22]** فلمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى، قال له بعد ذلك: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آياتنَا الْكُبْرَى﴾ **[طه: 23]**.

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على هذه الآيات الكبرى، توطئةً للهجرة، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر، والضَّلال،

---

(226) دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ص 128.

والفسوق. والآيات التي راها رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس، والعروج إلى السَّــماء، ورؤية الأنبياء، والمرســلين، والملائكة، والسَّموات، والجنَّة، والنار، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القرآن الكريم عن الإســراء في ســورة الإســراء، وعن المعراج في ســورة النَّجم، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنَا﴾ **[الإسراء: 1]** وفي ســورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيات رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ **[النجم: 18]**. وفي الإسراء والمعراج علومٌ، وأسرارٌ، ودقائق،ودروسٌ، وَعِبَرٌ[227].

يقول الأستاذ أبو الحسن النَّدوي: «لم يكن الإسراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الكبرى، وتجلَّى له ملكوت السَّموات، والأرض مشاهدةً، عياناً؛ بل - زيادةً إلى ذلك - اشتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمَّت قصَّةُ الإسراء، وأعلنت السُّورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النَّجم»: أنَّ محمّداً صلى الله عليه وسلم هو نبيُّ القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شــخصــه، وفي إســرائه مكةُ بالقدس، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى، وصلَّى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته، وخلود إمامته، وإنســانيَّة تعاليمه، وصــلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النَّبي صلى الله عليه وسلم ، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها، وامنت به، وبيان رسالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم، ومن بين الشُّعوب، والأمم»[228].

---

(227) الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (291/1 ، 292).

(228) الأساس في السُّنَّة (292/1).

ثالثاً: الطواف على القبائل:

بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء، والنُّصرة، حتَّى يبلِّغ كلام الله – عزَّ وجلَّ – وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرَّك في المواسم التِّجارية، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم، ومحدَّدة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ويعرض دعوته»[229].

يقول المقريزي: «ثمَّ عرض صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل أيَّام المواسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسَّان، وبنو فَزَارة، وبنو مرَّة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً، ويقال: إنَّه صلى الله عليه وسلم بدأ بكندة، فدعاهم إلى الإسلام، ثمَّ أتى كلباً، ثمَّ بني حنيفة، ثمَّ بني عامر، وجعل يقول: «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه، فيمنعني؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه؛ فإنَّه كذاب» **[أحمد (492/3، 493) وابن هشام (64/2 – 65]**[230].

---

(229) الأنساب ، للسَّمعاني (36/1).

(230) إمتاع الأسماع ، للمقريزي (30/1 ، 31).

وقد تعرَّض صلى الله عليه وسلم للأذى العظيم، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» **[أبو داود (4734) والترمذي (2925) وابن ماجه (201) وأحمد (390/3)]** وظلَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم في تردُّده على القبائل يدعوهم، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ، ويؤذونه، ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[231] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً، وقبولاً؛ مثل: الصابئ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم: أنَّه رسول، وغير ذلك، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول صلى الله عليه وسلم ، ويضاعف ألم التَّكذيب، وعدم الاستجابة[232].

ولم يقتصر الأذى على ذلك، بل واجه الرَّسول صلى الله عليه وسلم ما هو أشدُّ، وأقسى، فقد روى البخاريُّ في تاريخه، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك ابن منيب أيضاً، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهليَّة، وهو يقول: «يا أيها النَّاس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»، فمنهم من تفلَ في وجهه، ومنهم من حثا عليه التُّراب، ومنهم من سبَّه؛ حتَّى انتصف النَّهار، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ، فغسل وجهه، ويديه، وقال: «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً، ولا ذلَّةً !» فقلت: من هذه ؟ قالوا: زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ. **[البخاري في التاريخ الكبير (14/2/4) والطبراني في المعجم الكبير (342/20) ومجمع الزوائد (21/6)]**[233] .

---

(231) الدُّرر ، لابن عبد البرّ ، ص 35 ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (185/2).

(232) المحنة في العهد المكّيِّ ، ص 53.

(233) المصدر السابق نفسه.

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب – لعنهما الله – يتناوبان على أذيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يدعو في الأسواق، والمواسم، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم(234).

المبحث السادس: هجرة النبي ﷺ إلى المدينة:

أولاً: عزم النبي ﷺ على الخروج من مكة وتوجهه نحو المدينة:

عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار، إمَّا بُكرةً، وإمَّا عشيَّةً، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة(235)، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها، قالت: فلمَّا رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أخْرِجْ عنِّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنَّما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي

(234) المحنة في العهد المكّيّ ، ص 53.

(235) الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.

يومئذٍ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هاتين راحلتان، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأْجَرَا عبد الله بن أريقط - رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً - يدلُّهما على الطَّريق، فدفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. **[ابن هشام (2/128 - 129)]**[236] .

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل، وفيه: «... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متقنِّعاً[237]؛ في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «أخْرِجْ من عندك»، فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك. قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نعم»، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بالثَّمن»، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإسراع)، وصنعنا لهم سُفرةً في جِرابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين، ثمَّ لحق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور، فكمنا[238] فيه ثلاث ليالٍ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله

---

(236) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (2/233 ـ 234).

(237) متقنعاً: مغطِّياً رأسه.

(238) كمنا فيه: أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (4/201).

عنهما، وهو غلامٌ، شـابٌّ، ثَقِفٌ[239]، لَقِنٌ[240]، فيُدلجُ[241] من عندهما بسَـحَرٍ، فيصـــبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ، فلا يســـمع أمراً يُكتادانِ[242] به إلا وَعَاهُ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظَّلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء، فيبتان في رسْلٍ – وهو لَبَنُ مِنْحتِهِما ورَضِيفهما[243] – حتى ينعق[244] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[245] يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث، واســـتأجر رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل، وهو من بني عبد بن عديٍّ – هادياً خِرِّيتاً – والخِرِّيت: الماهر بالهداية، قد غمس حلفاً[246] في ال العاص بن وائل السَّـــهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمِناهُ، فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُـــبْحَ ثلاثٍ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدَّليل، فأخذ بهم طريق السَّـــواحل» **[البخاري (3905)، وأحمد (198/6 – 199)، والبيهقي في دلائل النبوة (473/2 – 475)، وعبد الرزاق في المصنف (388/5)، والطبري في تاريخه (375/2 – 378)]** .

---

(239) ثقف: ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (216/1).

(240) لقن: فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (266/4).

(241) يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج . بالتشديد .: إذا سار اخره.

(242) يُكتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد.

(243) الرَّضـيف: اللَّبن المرضـوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّـمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته.

(244) ينعق: نعق بغنمه ، أي: صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (295/3).

(245) الغلس: ظلمة اخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (377/3).

(246) غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به.

ثانياً: الدروس والفوائد من هجرة النبي ﷺ:

استنبط العلماء كثيراً من الفوائد والدروس من هجرة البي ﷺ إلى المدينة، وتفاصيلها المبثوثة في كتب السيرة، وهي كثيرة جدا، منها:

1. الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ نافذةٌ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[الحج: 40]** .

2. مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس، أو القتل، أو النَّفي، والإخراج من الأرض، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه، وأن يثق به، ويتوكَّل عليه، ويعلم: أنَّ المكر السَّيئ لا يحيق إلا بأهله[247]، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ **[الآنفال: 30]** .

3. دقَّة التَّخطيط، والأخذ بالأسباب.

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويَّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كل ما طولب به المسلم، وأنَّ الَّذين

(247) الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص 199.

يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين(248).

المبحث السابع: دعائم دولة الإسلام في المدينة:

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة، على قواعد متينةٍ، وأسسٍ راسخةٍ، فكانت أولى خطواته المباركة، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله، وإصدار الوثيقة، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة كافَّةً، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القرآن الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والتَّرغيب في الجنَّة، والتَّرهيب من النَّار، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة، ودعم مقوِّمات الدَّولة، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة، والتَّربويَّة، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة، وبناء المجتمع، وتأسيس الدَّولة. وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة، من خلال المنهج الربَّانيّ، واستمرَّ البناء التربويُّ، ففُرِض الصِّيامُ، وفُرضتِ الزَّكاة، وأخذ المجتمع يزدهر، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ، وقويَّة.

ومن هذه الدعائم:

---

(248) الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (357/1).

1. بناء المسجد الأعظم في المدينة.
2. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
3. الوثيقة أو الصحيفة المدنية، وتشمل سن قوانين عيش المسلمين بعضهم مع بعض، وتعاملات المسلمين مع غيرهم من أهل الكتاب.

المبحث الثامن: غزوة بدر الكبرى:

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام، تحمل أموالاً عظيمة[249]لقريش، يقودها أبو سفيان، ويقوم على حراستها بين ثلاثين، وأربعين رجلاً[250]، فأرسل الرَّسول صلى الله عليه وسلم بَسْبَسَ بنَ عمرو[251]؛ لجمع المعلومات عن القافلة[252]، فلَّما عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين، ندب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج، وقال لهم: «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[253]، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر، من شهر رمضان المبارك، من السَّنة الثانية للهجرة، ومن المؤكَّد: أنَّه حين خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة، لم يكن في نيَّته قتالٌ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ، ودماؤهم

(249) قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي 50 ألف دينار ، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(286/1).
(250) جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص 107.
(251) ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (1901) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس)... قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والاخر لقباً».
(252) مسلمٌ ، رقم (1901).
(253) سيرة ابن هشام (61/2) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

مباحةً، فكيف إذا علمنا: أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشـــيَّة، كانت للمهاجرين المســـلمين من أهل مكَّة، قد اســـتولى عليها المشـــركون ظلماً، وعدواناً[254].

كلَّف رســولُ الله صــلى الله عليه وســلم عبدَ الله بن أمِّ مكتومٍ بالصَّــلاة بالنَّاس في المدين[255].

أرسـل النَّبيُّ صـلى الله عليه وسـلم اثنين من أصـحابه[256] إلى بدرٍ طليعةً، للتَّعرُّف على أخبار القافلة فرجعا إليه بخبرها[257]: وقد حصـــل خلاف بين المصـــادر الصَّـحيحة حول عدد الصَّـحابة، الذين رافقوا النَّبيَّ صـلى الله عليه وسـلم في غزوته هذه إلى بدرٍ، ففي حين جعلهم البخاري «بضـــعة عشـــر وثلاثمئةٍ» **[البخاري (3957) و(3958)]**؛ يذكر مســـلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتســـعة عَشَـــرَ رجلاً» **[مســلم (1763)]**، في حين ذكرت المصـادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّـحابة البدريين[258].

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ، واحتوائها، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم ســـوف يواجهون قوَّات قريشٍ، وأحلافها مجتمعةً للحرب، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً **[مســـلم (1763)]**، معهم مئتا فرسٍ، يقودونها إلى جانب جمالهم، ومعهم القِيانُ[259]

(254) حديث القران عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم، د. محمَّد ال عابد (43/1).

(255) البداية والنِّهاية (260/3) ، والمستدرك للحاكم (632/3).

(256) هما عديُّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، الطَّبقات ، لابن سعد (24/2).

(257) الطَّبقات ، لابن سعد (42/2) بإسناد صحيح.

(258) البداية والنِّهاية (314/3) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط.

(259) القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان.

يضربن بالدُّفوف، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه[260]، في حين لم يكن مع القوات الإسـلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَان، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبَها. **[الطبراني في المعجم الكبير (12105) والهيثمي في مجمع الزوائد (69/6)]**.

وقد ذكر العلماء كثيراً من الدروس والعبر حول غزوة بدر الكبرى وتفاصيلها، نذكر بعضها:

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى، فقد بيَّن - سبحانه وتعالى -: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ **[آل عمران: 126]**.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **[الأنفال: 10]**.

ثانياً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء، والبراء، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل، فكانت الفرقان النَّفسيَّ، والماديَّ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام، والكفر، وفيها تجسَّدت هذه المعاني، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً، وحقيقةً نفسيَّةً، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة، فالتقى الابن بأبيه، والأخ بأخيه:

---

(260) البداية والنِّهاية (260/3).

1 - كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صـفِّ المسـلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

2 - كان أبو بكر الصِّـدِّيق في صـفِّ المسـلمين، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صـفِّ المشركين.

3 - كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار، فقال مصعب للأنصاريِّ: شُدَّ يدك به؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصـيَّتك بي؟! فقال مصـعب: إنَّه أخي دونك، تلك كانت حقائق، وليس مجرَّد كلمات: إنَّه أخي دونك(261)!. إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسـانيَّة على أسـاسـها، فإذا العقيدة هي اصرةُ النَّسب والقرابة، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ(262).

ثالثاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها:

من ذلك لـمَّا طلب رسول الله(ﷺ) من عمِّه دفع الفداء، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت، وأمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقُثم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل.

---

(261) البداية والنِّهاية (307/3).

(262) من مَعِين السِّيرة ، ص 213.

وما حدَّث به عمير بن وهب لـمَّا جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النَّبيّ(ﷺ) باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه، وصدق إيمانه. **[سبق تخريجه]**(263).

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النَّبيُّ(ﷺ) جِذْلاً من حطبٍ، فقال: (دونك هذا)، فلـمَّا أخذه عُكَّاشة، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الرِّدَّة أيام أبي بكرٍ(264). وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ، ففُقِئت عيني، فبصق فيها رسول الله(ﷺ) ودعا لي، فما اذاني منها شيءٌ(265).

رابعاً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين، وطلب من النَّبيّ(ﷺ) الموافقة على قبوله معهم، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه، فقال(ﷺ) : «ارجع، فلن أستعين بمشرك». **[أحمد (149/6)، ومسلم (1817)، وأبو داود (2732)، والترمذي (1558)، وابن ماجه (2832)]**.

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ، وهي: تحقُّق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة

---

(263) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (178/2).

(264) زاد المعاد (186/3). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.

(265) زاد المعاد (186/3). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.

ومعانيها، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة، لا متبوعاً، ومقوداً فيها لا قائداً لها، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط؛ جازت الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقَّق؛ لم تَجُزِ الاستعانة، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله(ﷺ) اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

خامساً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ:

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّرايا قُبيل بدر، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدرٍ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهِمّاً من أهداف الفريقين، ويظهر: أنَّ القصائد سَرعان[266]ما تطير بها الرُّكبان بين يثربَ، ومكَّةَ، فيأتي الردُّ من الطَّرف الآخر، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثَّاني، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين؛ أمثال: كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[267].

(266) سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ: تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة.

(267) المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 354 ـ 355.

المبحث التاسع: غزوة أحد:

رغبة قريش في الانتقام لأنفسهم وأخذ الثأر لقتلاهم في بدر، خرج أبو سفيان على ثلاث آلاف مقاتل فعسكروا قريباً من جبل أحد. فاستشار النبي صحبه، فأشار أكثرهم بالخروج، فخرج في ألف مقاتل، وأثناء الطريق انخذل المنافق ابن أبي سلول بثلث الجيش بحجة أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عصاه وخرج، ولم يأخذ رأيه. فعسكر الرسول – صلى الله عليه وسلم – عند جبل أحد (شمال المدينة) وجعله خلفه، وجعل عليه خمسين رامياً بقيادة عبد الله بن جبير، وأمرهم بعدم النزول مهما حصل، ثم نظم الجيش، وأعطى اللواء لمصعب بن عمير.

قاتل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بشجاعة، وأبلى أبو دجانة (الذي أعطاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – سيفه)، وطلحة، وحمزة، وعليٌّ وغيرهم، فانتصر المسلمون في أول النهار مظهرين بطولة رائعة، وانهزم الأعداء. فنزل أكثر الرماة مخالفين أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – لجمع الغنائم، فالتف خالد بن الوليد مع فرقة الخيالة من خلفهما فكانت مفاجأة مفجعة حيث اضطرب المسلمون وعمهم الذعر، فأثخن الكفار فيهم، فاستشهد عدد منهم (أكثر من 70) وولى البعض، وجرح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكسرت رباعيته. وممن استشهد مصعب (حامل اللواء)، وحمزة بن عبد المطلب الذي قتله العبد وحشي بحربة، وحنظلة بن أبي عامر، وكان جنباً، فأخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن الملائكة تغسله.

انسحب المسلمون بأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – نحو الجبل انسحاباً منظماً. ثم تحصنوا بهضبة عالية فعجز عنهم المشركون، فقال أبو سفيان: إن موعدكم بدر للعام المقبل. فقالوا له بأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم –: هو بيننا وبينكم

موعد. فكان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص اختبر الله المؤمنين، وفضح المنافقين، وأكرم من أراد بالشهادة[268].

الدروس والعبر من معركة أحد:

إنَّ حركة النَّبيّ(ﷺ) في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، والتَّمكين لدين الله، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه(ﷺ) ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيّ(ﷺ) في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرآنيِّ الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج:

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۝ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ **[آل عمران:-137-139]**.

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يجد: أنَّ الله - سبحانه وتعالى - لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ، بل خاطبهم بهذه الآيات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم، ويثبِّتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفِّف عنهم الامهم[269].

---

(268) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص: 77)

(269) حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول صلى الله عليه وسلم(190/1).

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ **[آل عمران: 140 – 143]**.

بيَّن لهم: أنَّ الجروح، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْلُه من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة، والتمسُّك بالحقِّ أولى(270). وقال صاحب الكشَّاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحدٍ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا(271).

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القرآن الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ)، على عكس ما نزل في بدرٍ من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه، أشدَّ من حساب المنكسر، فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝

---

(270) تفسير الرَّازي (14/9).

(271) تفسير الكشَّاف (465/1).

لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **[الأنفال: 67 – 68]**.

وقال في أُحدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ **[آل عمران: 152]** وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ، وتربية قرآنيَّةٌ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية، والقائمون على التَّوجيه(272).

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ **[آل عمران: 146 – 148]**.

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيّ(ﷺ) ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين، وأدَّى إلى الخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسلمين، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد الله بن أُبيّ، ومن معه من المنافقين، لم يؤثِّر على المسلمين، بينما الخطأ الَّذي ارتكبه الرُّماة؛ الَّذين أحسن الرَّسولُ(ﷺ) ترتيبَهُمْ، وأسند لكلِّ واحدٍ منهم عملاً، ثمَّ خالفوا أمره(ﷺ) كان ضرره على المسلمين عامَّةً،

(272) المصدر السابق نفسه.

حيث سلَّط الله عليهم عدوَّهم، وذلك بسبب عصيان الأوامر، ثمَّ اختلطت أمورهم، وتفرَّقت كلمتُهم، وكاد يُقْضى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها.

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الآخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من آيات، وأحاديث، تبيِّن منزلة الدُّنيا عند الله، وتصف زخارفها، وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ **[آل عمران: 14]**، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ **[لقمان: 33]**.

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لـمَّا انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله(ﷺ) فشجَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من الناس، واعتقدوا: أنَّ رسول الله(ﷺ) قد قُتِل، وجَوَّزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء - عليهم السَّلام - فحصل ضعفٌ، ووهنٌ، وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ **[آل عمران: 144]** أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة، وفي جواز القتل عليه[273].

---

(273) المستفاد من قصص القران (197/2).

المبحث العاشر: غزوة الأحزاب:

خرجت قريش وغطفان والأحزاب إلى المدينة في أكثر من عشرة آلاف بتحريض من اليهود (خيبر وبنو النضير)، فاستشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصحابه. فأشار سلمان الفارسي بحفر خندق حول المدينة لحمايتها. فنفذوا (كان عدد المسلمين 3000) استمر الحصار شهراً. ونقضت بنو قريظة العهد واتفقت مع الأحزاب. أسلم حينها نعيم بن مسعود الغطفاني، واتفق مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – على تفريق الأحزاب. فخرب بين قريظة وقريش وغطفان بحيلة بارعة فبين لكل فريق أن الآخر ضده، فتفرقوا، فأرسل الله على المشركين جنداً من الريح فقوضت خيامهما وأكفأت قدورهم ففروا. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: 9].

وكانت هذه آخر غارة على المدينة. إذ أصبح المسلمون بعدها هم الأقوياء والأسياد[274].

الدروس والعبر من غزوة الأحزاب:

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله(ﷺ):

مثل قصة تكثير الطعام التي حدثت مع جابر بن عبد الله لما دعا النبي ﷺ لطعام يكفي بضعة أشخاص فدعا النبيُ ﷺ أهلَ الخندق وبارك النبي على الطعام فأكلوا وشبعوا والطعام كما هو.

(274) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص: 81)

ثانياً: سلمان منا أهل البيت[275]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منَّا، وقالت الأنصار: سلمان منَّا، فقال رسول الله(ﷺ) : «سلمان منَّا أهل البيت» **[الحاكم (598/3)، والطبراني في المعجم الكبير (261/6)، وابن هشام (235/3) ومجمع الزوائد (130/6)]**، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[276].

ثالثاً: الصَّلاة الوسطى:

قال(ﷺ) : «ملأ الله عليهم بيوتهم، وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى حتَّى غابت الشَّمس» **[سبق تخريجه]**.

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوصٌ عليه، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشَّافعي بهذا لصحَّة الحديث، وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّنيع على جواز تأخير الصَّلاة لعذر القتال، كما هو مذهب مكحولٍ، والأوزاعيِّ[277].

رابعاً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ، فقال(ﷺ) : «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية، فلم يقبل منهم شيئاً». **[أحمد (248/1)، وابن هشام (265/3)]**.

---

(275) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (247/3).

(276) التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (108/6).

(277) الأساس في السُّنَّة (682/2).

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ، إنَّها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرِّرات لأكل الرِّبا، وما شابهه؟![278].

خامساً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر(ﷺ) أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويِّ الحربيِّ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام[279]، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان(ﷺ) قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين، وكان(ﷺ) قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» **[ابن هشام (250/3)، والطبري في تفسيره (152/21)]**.

سادساً: المسلم يقع في الإثم، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر - وكانوا حلفاءه - فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله(ﷺ) ، فأشار إلى حلقه - يعني الذَّبح - ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيِّ(ﷺ) ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في

---

(278) من معين السِّيرة ، ص 294.

(279) المستشفيات الإسلاميَّة ، للدُّكتور عبد الله السَّعيد ، ص 43.ك

المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة، ثمَّ يعود، فيرتبط في الجِذْع[280].

المبحث الحادي عشر: غزوة فتح مكة:

"تعدت قبيلة بكر (حليفة قريش) على قبيلة خزاعة (كانت حليفة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ثم أسلمت كاملة)، فأعانت قريش حليفتها، فنقضت بذلك صلح الحديبية، فاستنجدت خزاعة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – فخافت قريش، وأرسلت زعيمها أبي سفيان ليعتذر ويطيل مدة الهدنة ففشل وعاد خائباً. وأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسلمين بالجهاز لفتح مكة.

كتب الصحابي حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يعلمها وأرسل الرسالة مع امرأة فأخبر الله رسوله بذلك. فكلف عليًا والزبير فعادا بالكتاب. فبكى حاطب، وأخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه فعل ذلك ليتخذ عندهم يدًا فلا يأذوا أهله، فسامحه، وحاطب من أهل بدر.

فمضى المسلمون (وهم أكثر من 10.000 مقاتل) وعسكروا قرب مكة، وقدم أبو سفيان زعيم قريش إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأسلم فدعا له الرسول – صلى الله عليه وسلم – قائلاً: " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل في المسجد فهو آمن " ولم يسمح له بالمغادرة حتى رأى مواكب الجيوش الإسلامية.

ثم دخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – في مكة من أعلاها وهو واضعاً رأسه تواضعاً لله بما أكرمه.

---

(280) المستفاد من قصص القران (286/2).

ولم يلق المسلمون مقاومة تذكر. واستسلمت مكة فدخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسجد، حوله المسلمون، فطاف وفي يده قوس، وحول البيت أكثر من 360 صنم فجعل يطعنها ويقول: " جاء الحق وزهق الباطل " والأصنام تتساقط على وجوهها، فالتفت إلى أهل مكة وقال: " يا معشر قريش. ما ترون أني فاعل بكم " قالوا: خيرًا. أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء (وهذا منتهي العفو والتسامح والكرم من الرسول – صلى الله عليه وسلم –) ثم بايعته قريش، وأسلمت كلها. وأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقتل نفر ولو تعلقوا بأستار الكعبة، فقتل بعضهم وأسلم البعض، ثم أرسل الصحابة لهدم الأصنام في مكة وحولها"[281].

دروس وعبر وفوائد من غزو فتح مكة:

أولاً: تفسير سورة النَّصر، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله(ﷺ) :

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله(ﷺ) يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ **[النصر: 1 – 3]**». **[مسلم (220/484)]**.

(281) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص: 88)

ثانياً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله(ﷺ) في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه، قال عروة: فلـمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله(ﷺ) فلمَّا كان العشيُّ؛ قام رسول الله(ﷺ) خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه، ثمَّ قال: «أمَّا بعد، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه، وإذا سرق فيهم الضَّعيف، أقاموا عليه الحدَّ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها»، ثمَّ أمر رسول الله(ﷺ) بتلك المرأة فقُطِعَتْ يدُها، فحسنت توبتُها بعد ذلك وتزوَّجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله(ﷺ) . **[البخاري (4304)، ومسلم (9/1688)]**.

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء.

ثالثاً: من النتائج الَّتي تؤخذ من الغزوة:

1. دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين.
2. أصبح المسلمون قوة عظمى.
3. كان لهذا الفتح آثار دينية وسياسية، واجتماعية عظيمة جداً.
4. تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين.

المبحث الثاني عشر: حجة الوداع:

الحجُّ أحد الأركان الخمسة، وقد فُرض في العام العاشر، وهذا ما ذهب إليه ابن القيّم[282]، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ، وهو الَّلائق بهديه(ﷺ) في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ **[آل عمران: 97]**، وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تِسْعٍ[283].

لم يحجَّ النَّبيُّ(ﷺ) من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ، وحجَّة الإسلام، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه(ﷺ) ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه(ﷺ) بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً، وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ، ووضَّحه، وشرحه، أنزل الله عليه، وهو واقفٌ بعرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ **[المائدة: 3]**. **[البخاري (4407)، ومسلم (3017)]**.

حج الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالمسلمين في هذه السنة (وهي حجته الوحيدة) وخرج معه قريباً من مائة ألف حاج، فعلم الناس مناسكهم وسنن حجهم وهو يقول: " خذوا عني مناسككم فلعلكم لا تلقوني بعد عامكم هذا " وخطب خطبته التي بين فيها منهاج المسلمين.

ومنها: " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم "، ومنها: " إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي "، ومنها: " أيها

---

(282) زاد المعاد (595/3).

(283) السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص 680 ، وزاد المعاد (595/3).

الناس إن ربكم واحد. وأباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "، وعاد بعدها للمدينة وبدأ به مرض الموت[284].

الدروس والفوائد من حجة الوداع:

1 – مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً، فوسَّع(ﷺ) في العام التَّاسع، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر، من خلال استقباله الوفود، ومن خلال رحلة الحجِّ، فأوجد قاعدةً عريضةً تحمل دعوته، وقد تلقَّت عنه مباشرة، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً، وإلى الأبد[(285)]، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله(ﷺ) .

2 – تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة، والابتعاد عن الذُّنوب:

أ – فقد أشار(ﷺ) إلى أهمِّيَّة قطع المسلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها، وثاراتها، وربِاها، وغير ذلك، ولم يكن حديثُه(ﷺ) مجرَّد توصيةٍ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ...

---

(284) موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر (ص: 92)

(285) الأساس في السُّنة (1054/2).

وربا الجاهليَّة موضوعٌ[286]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها بِرِجْسِ الماضي، وأدرانه[287].

ب – وقد حذَّر(ﷺ) من الذُّنوب، والخطايا، والاثام، ما ظهر منها، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ **[الشورى: 30]** فتُرْدِيه في نار جهنَّم في الآخرة، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسولُ الله(ﷺ) : أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد طريقه إليها من ثغرات الخطايا، والذُّنوب، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[288].

3 – تربية المجتمع على مبادئ أساسيَّة:

أ – الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ **[الحجرات: 10]**، فقد قال(ﷺ) : «أيُّها النَّاس! اسمعوا قولي، واعقلوه، تَعَلَّمُنَّ: أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم، وأنَّ المسلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم». وقال: «إنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، حتَّى تلقَوا

---

(286) فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص331.

(287) قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص 303.

(288) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 303.

ربَّكم فيسـألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُـلاَّلاً يضـرب بعضُـكم رقاب بعض». **[سبق تخريجه]**.

ب – الوقوف بجانب الضَّـعيف، حتَّى لا يكون هـذا الضَّـعف ثغرةً في البناء الاجتماعيّ، فأوصى(ﷺ) في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[289]، فقد شدَّد(ﷺ) في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[290]، وأوصى خيراً بالنِّساء، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة، وتثبيت ضمانات حقوقها، وكرامتها الإنسانيَّة، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[291].

ج – التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله، ولو كان الحاكم عبداً حبشـيّاً؛ فإنَّ في ذلك الصَّـلاحَ، والفلاحَ، والنَّجاةَ في الدُّنيا، والآخرة[292]، فقد بيَّن(ﷺ) العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله(ﷺ) ، فإذا مال عنهما؛ فلا سمع، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[293].

د – المساواة بين البشـر: فقد قال(ﷺ) : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى.

---

(289) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص 304.

(290) دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 575.

(291) فقه السِّيرة للبوطي ، ص 332.

(292) دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص 576.

(293) فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص 333.

النَّاس من ادم، وادم من تراب» **[رواه أحمد (411/5) عن رجل من أصــــحاب النبيّ(ﷺ) ، والبزار (2044) عن أبي ســعيد، والطبراني في الكبير (12/18 – 13)، وانظره في مجمع الزوائد (272/3)]**؛ حيث حدَّد: أن أسـاس التَّفاضـل لا عبرة فيه لجنسٍ، ولا لون، ولا وطن، ولا قوميَّة، ... إلخ، وإنَّما أسـاس التَّفاضـل قيمةٌ خلقيَّةٌ راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[294].

4 – بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع:

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّرعية، وخاصَّةً ما يتعلَّق بالحجِّ، وبالوصايا، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً، واسـتنبطوا منها الكثير من أحكام المناسـك، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه، وكتبُ شروح الحديث، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[295].

المبحث الثالث عشر: مرض النبي ﷺ ووفاته:

إنَّ الأرواح الشَّـفافة الصَّـافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صـاحبها بما عسـى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشــارات، وتلميحات، ولنبيِّنا محمَّد(ﷺ) من هذه الصِّــفات الحظ الأوفر، وهو منها بالمحلِّ الأرفع؛ الذي لا يُسامَى، ولا يُطاوَل[296].

---

(294) الموسوعة في سماحة الإسلام ، لعرجون (876/2).

(295) السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (549/2) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي (ص) ».

(296) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (587/2).

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ(ﷺ) ، وأنَّه كغيره من البشــــر ســــوف يذوق الموت، ويعاني ســــكراته، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم(ﷺ) من بعض الآيات اقترابَ أجله، وقد أشــار(ﷺ) في طائفة من الأحاديث الصَّـحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صـريح الدَّلالة على الوفاة، ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشـــعر ذلك منها إلا الاحاد من كبار الصَّـــحابة الأجلاَّء؛ كأبي بكرٍ، والعباس، ومعاذٍ رضي الله عنهم(297).

أولاً: الآيات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته(ﷺ) :

1 – الآيات:

أ – قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُـولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُـلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُـرَّ اللَّهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ **[آل عمران: 144]**.

قال القرطبيُّ: فأعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الآية: أنَّ الرسـل ليسـت بباقيةٍ في قومها أبداً، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ، أو قَتْلٍ(298).

ب – قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ **[الزمر: 30]**.

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات الَّتي استشـهد بها الصِّـدِّيق رضـي الله عنه عند موت الرَّسول(ﷺ) حتَّى تحقَّق النَّاس موته(299).

---

(297) مرض النَّبيّ (ص) ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص 33.

(298) تفسير القرطبيِّ (222/4).

(299) تفسير ابن كثير (53/4).

ج – قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ **[الأنبياء: 34]**، ثمَّ أعقب ذلك ببيان: أنَّ الموت حتمٌ لازمٌ، وقدرٌ سابق، فقال الله – عزَّ وجلَّ –: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ **[الأنبياء: 35]**، فهذه الآيات صريحةٌ، ونصَّت على وفاته(ﷺ).

2 – أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك:

أ – قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيِّ(ﷺ) عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله(ﷺ) ، فلمَّا راها؛ رحَّبَ؛ قال: «مرحباً بابنتي». فأقعدها يمينه – أو شماله – ثمَّ سارَّها فبكت، ثمَّ سارَّها، فضحكت، فقلت لها: خصَّك رسول الله بالسِّرار، وأنت تبكين؟! فلمَّا أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله(ﷺ) ، فلمَّا توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني، قالت: أمَّا الان؛ فنعم، قالت: سارَّني في الأوَّل، قال لي: «إنَّ جبريل كان يعارضني في القرآن كلَّ سنةٍ مرَّةً، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله، واصبري، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت، ثمَّ سارَّني، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ. **[البخاري (6285 و6286)، ومسلم (2450/ 98 – 99)]**.

وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله(ﷺ) ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) قد اختصَّ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله(ﷺ) [300] .

---

(300) مرض النَّبيِّ (ص) ، ووفاته ، ص 35.

ب – قال جابر رضـــي الله عنه: رأيت النَّبيَّ(ﷺ) يرمي على راحلته يوم النَّحر، ويقول: «لتأخذوا مناســككم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!». **[سبق تخريجه]**.

قال النَّوويُّ: فيه إشـــارةٌ إلى توديعهم، وإعلامهم بقرب وفاته(ﷺ) ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه، وانتهاز الفرصـــة من ملازمته، وتعلُّم أمور الدِّين، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع[301].

ثانياً: مرض الرَّسول(ﷺ):

رجع رســـول الله(ﷺ) من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة، فأقام بالمدينة بقيَّته، والمحرَّم، وصفراً، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء، وفلســـطين، فتجهَّز النَّاس، وفيهم المهاجرون، والأنصـار، وكان منهم أبو بكر، وعمر، وكان أسـامة بن زيد ابن ثماني عشـرة سـنة، وتكلَّم البعض في تأميره [302]، وهو مولىً، وصـــغيرُ السِّـــنِّ على كبار المهاجرين، والأنصار، فلم يقبل الرَّسول(ﷺ) طعنهم في إمارة أسامة[303]، فقال(صلى الله عليه وســلم) : «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه، وايمُ الله! إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده». **[البخاري (3730)، ومسلم (2426)]**.

---

(301) شرح النَّووي على صحيح مسلم (45/9).

(302) ينظر الشكل (24) في الصفحة (768).

(303) السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (552/2).

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدئ رسول الله(ﷺ) بوجعه الَّذي قبضه الله فيه.

ثالثاً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى(ﷺ) :

1 – كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر، كشف النَّبيُّ(ﷺ) سِتْرَ الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته، وجهاده، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ، أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أنَّ صلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين، وعبادة الله تعالى صلةٌ دائمةٌ، لا تقطعها وفاة نبيِّها، فملئ من السُّرور ما الله به عليم، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ(304).

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ(ﷺ) سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ، ثمَّ تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ(ﷺ) خارجٌ إلى الصَّلاة، فأشار إلينا أن أتمُّوا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى السِّتْر. **[البخاري (4448)]**. وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة – إحدى زوجتيه، وكانت تسكن بالسُّنح(305) – فركب على فرسه، وذهب إلى منزله(306).

---

(304) السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص 401.

(305) السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه ، وبيت.

(306) السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (593/2).

2 – في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ(ﷺ) ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء، ثم يضعها على أسامة، فعرف أنَّه يدعو له، وأخذت السَّيدة عائشة رسول الله، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرها، ونحرها[307]، فدخل عبد الرَّحمن بن أبي بكر، وبيده سواكٌ، فجعل رسولُ الله (ﷺ) ينظر إليه، فقالت عائشة: اخذه لك؟ فأشار برأسه: أنْ نعم، فأخذته من أخيها، ثمَّ مضغته، وليَّنته، وناولته إيَّاه، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله: «في الرَّفيق الأعلى» **[البخاري (4437)، ومسلم (87/2444)]**.

وكان(ﷺ) يُدخل يده في رَكوة ماءٍ، أو علبةٍ فيها ماءٌ، فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده، فجعل يقول: «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ، ومالت يده. **[البخاري (4449)]**.

(307) السَّحْر: الرِّئة ، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

الخلاصة: دروس وعِبر:

إن الحديث عن الأنبياء والمرسلين حديث طويل مستفيض لا نستطيع أن نلم به، وقد اكتفينا بهذا الكتيب أن نذكر بعض الومضـــات ونقف على أهم أحداث حياتهم، واعتمدنا في بحثنا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأقوال الراسخين في العلم، ولقد اقتصر القرآن الكريم، والســنة الشــريفة – غالباً- على جوهر الأمور في هذا، وعلى ما فيه العبرة والعظة والتوجيه لبني الإنسانية.

بيد أن الكون سبق وجود الأنبياء ولرسل: متى؟ كيف؟ إن هذه الأسئلة دارت في كثير من الرؤوس منذ أن وجد الإنســان وأخذ الإنســان يحاول أن يجد لها حلاً، ولقد تحدثنا عن ذلك في الإطار الذي التزمناه، وهو إطار القرآن الكريم والســنة النبوية(308). لذلك قد خلا هذا الكتيب من الأساطير والإسرائيليات والأخبار الكاذبة والموضعة.

إن هذا الكتيب يحمل أنوار وقبسات من قصة نشأة حياة البشر وسيرة أبي البشرية وأولي العزم من الرســل، وأنبياء الله تعالى الذين هم قمة في الأخلاق: الإخلاص، الشــجاعة الأدبية، الرحمة، الحرص على الأخذ بيد الآخرين لإنقاذهم من الضــلال والحيرة والهموم، الدعوة إلى الأخوة العامة.

وهم قمة في الدعوة إلى الوحدة الإنســانية تحت شــعار الأخوة والدين. لقد جميع الأنبياء إلى التوحيد: ثمرة وأســاس لدعوة أخرى، هي إسـلام الوجه لله تعالى، وهي الإسـلام لله، إسـلام الجوارح له، إسلام الكيان الإنساني كله لله(309).

إنّ أنبياء الله ورسله المصطفون هم الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة، والمثل العليا التي جعلها الله للناس بسبيل الهداية، ومنار الرشـاد، يحتذونها، وينسـجون على منوالها، و يسـيرون في

(308) في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، ص 4.
(309) المصدر السابق نفسه.

ضوئها، لقد خصّ الله عزّ وجلّ أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام بالكمال البشري في الأخلاق والسلوك، فجاءوا قدوات لمن بعدهم، يُهتدَى بأخلاقهم، ويقتدى بسلوكهم، كما كان الشأنُ في توحيدهم وإيمانهم، ومعرفتهم بربهم، ولا غرابة فيما وصلوا إليه من أخلاق عالية، وصفات نبيلة، فما هي إلا من آثار التصوّر الصحيح، والإيمان العظيم، فالارتباطُ بين المعتقَد والسلوك ارتباطٌ قوي، وبينهما تناسَبٌ طردي، تشهدُ له الأدلة والتجارب، فكلّما صحَّ الاعتقاد وكان سليماً، فإنّ الأخلاق تعلو وتنمو، وتشرقُ، والعكس بالعكس. (310)

إن التأمل في رسالات المرسلين، والوقوف عند العظات والعبر منها لهو خير طريق لهداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الفلاح الدنيوي والأخروي، قد اشتركت التشريعات السماوية بأعظم قيمة من لدن آدم حتى سيدنا محمد ﷺ، ألا وهي (التوحيد)، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، ولا تكمل عقيدة المسلم إلا إذا آمن باليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والأنبياء جميعا، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، وتحلى بمكارم الأخلاق، وبهذا جاء الوحي، وإليه أرشد وعليه أكد، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. وقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.»

إنّ التوعية التي تبني العقول، وتضيء جوانب النفوس، وتزكي نواحي الأرواح لهي الغذاء الفكري، والعقلي، وتدعو إليها الحياة الرفيعة ويهيب بها الدين الحنيف(311) وكان هذا الكتاب تغذية لهذه المبادئ العظيمة ووقوف عندها من خلال عرض أهم الوقائع في حياة أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام فالأنبياءَ- عليهم الصلاة والسلام – صفوة البشر

(310) الإيمان بالرسل والرسلات، د. علي محمد الصلابي، ص 185.

(311) أولو العزم من الرسل، عبد المعطي إسماعيل عبادة، ص 15.

وسادتهم، وهم من بني آدم لهم خصائص البشر وصفاتهم لا يخرجون عن صفتهم البشرية، ولكنَّ الله عزّ وجل اصطفاهم وأنعم عليهم باختيارهم رسلاً إلى الناس، وجعلهم قدوة حسنة للبشر يقتدون بهم ويتخلقون بأخلاقهم ويسيرون على طريقهم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90].

وإذا كان الرسل جميعاً هم هداةُ البشرية وقادتها، وهم موضع القدوة والأسوة، فإنّ في حياة أولي العزم من الرسل عِبَراً خاصة، لطول جهادهم، وكثرة المواقف الصعبة التي تعرّضوا لها، وثباتهم في وجه العواصف المزلزلة، التي تنخلعُ لها القلوب، واطمئنانهم إلى قدر الله، ووعده بالنجاة والنصر... ثم فيما حلّ بالمكذّبين من أقوامهم من هلاكٍ وتدمير.

إنّ الدعاة بصفة خاصة هم أَوْلى الناسِ بأخذِ العبرة من سير الرسل جميعاً، ولكنّهم أجدر بأن يأخذوا العبرة من سير أولي العزم من الرسل، وعلى رأسهم محمد (ﷺ)، لأنّه ما مِنْ موقفٍ يتعرّضون له في دعوتهم إلا وله مثيلٌ أو شبيه في سيرهم.. ثم ينتصر الحق بعد الجهاد الطويل، والجهد الشاق، وتذهب قوى الباطل بدداً، ويبقى الحق راسخاً في الأرض، يظلل الناسَ بظلاله الوارفة، وينعَمَ الناسُ في ربوعه بالأمن، بعد أن يكون المجاهدون قد ضحّوا في سبيله بأمنهم وراحتهم، وأموالهم وأنفسهم، يذهبُ منهم مَنْ ذهب شهيداً في سبيل الله، ويبقى منهم من يبقى شهيداً للحق بصبره وثباته وتجرّده لله، قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *﴾ [الشورى: 23][312].

فهذا ما يسره الله لي من تلخيص واختصار وترتيب لهذه المادة فكمل بها هذا الكتاب يعرض ومضات من سير أولي العزم من الرسل وأبيهم آدم -عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- ويقتبس من نورها، ويقف مع أهم أحداثها مواقفها، فما كان فيه من صوابٍ فهو محض فضل

(312) ركائز الإيمان، محمد الغزالي، ص (284 . 285).

الله عليَّ، فله الحمد، والمنَّة، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى، وأتوب إليه، والله ورسولُه بريءٌ منه، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. الابتلاء وأثره في حياة المؤمنين كما جاء في القرآن الكريم، عبد الله ميرغني محمد صالح، دار الاعتصام.
3. إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط 1، 2012م.
4. إبراهيم أبو الأنبياء، عبد الحميد جودة السحار، من سلسلة السيرة النبوية "محمد رسول الله والذين معه"، مكتبة مصر، القاهرة، 1965م.
5. إبراهيم عليه السلام في أسفار اليهود "عرض ونقد"، فاطمة بنت خالد ردمان، رسالة ماجستير، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1421هـ، 2001م.
6. إبراهيم عليه السلام من وحي القرآن، عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 2010م.
7. إبراهيم عليه السلام ودعوته في القرآن الكريم، أحمد البراء الأميري، دار المنار، جدة، السعودية، 1406هـ.
8. إبراهيم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم دراسة موضوعية، محمد الأمين إسماعيل، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2000م.
9. الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط1، 1417هـ.
10. الإتقان في علوم القرآن لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ، المكتبة الثَّقافية، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.
11. الإتيان والمجيء فقه دلالتهما، واستعمالهما في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، 1998م.

12. إثبات علو الله على خلقه "مائة دليل من الكتاب والسُنة"، جمع وإعداد: أبي الحسن خوجلي إبراهيم عمر، 2015/12/6.
13. الإجابة القرآنية كيف أجاب القرآن عن أسئلتك الوجودية، مهاب السعيد، دار الكاتب للنشر والتوزيع، الإسماعيلية، مصر، ط1، 2016م.
14. اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط 1، 1988.
15. الأحاديث الصحيحة من أخبار وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إبراهيم محمد العلي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995م.
16. الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي، دار الخضيري – المدينة، الطَّبعة الثالثة، 1418 هـ.
17. أحكام الجنائز وبدعها للألباني، المكتب الإسلاميُّ – بيروت.
18. أحكام المقابر في الشرعية الإسلامية، عبد الله بن عمر السحيباني، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، ط3، 1433هـ.
19. أحكام أهل الذِّمّة، ابن قيّم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري وشاكر بن توفيق العاروري، رمادى للنشر، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ، 1997م.
20. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م.
21. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1414هـ، 1994م.
22. أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، جمال عبد الهادي ووفاء محمد رفعت، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، 2005م.

23. الإدارة الإســـلاميَّة في عصـــر عمر بن الخطَّاب، فاروق مجدلاوي، دار مجدلاوي – عمَّان، الطَّبعة الثَّانية 1418 هـ/1998م.
24. أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير).
25. الإصــابة في تمييز الصَّــحابة لأحمد بن عليٍّ بن حجر العســقلانيِّ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ، دار النَّهضة – مصر.
26. الاعتصام للإمام الشَّاطبي، دار الفكر، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض.
27. الإعلام في صدر الإسلام، عبد اللَّطيف حمزة، دار الفكر.
28. الأمُّ لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة 1410 هـ 1990 م، طبعة دار الفكر، بيروت – لبنان.
29. إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء، والأموال، والحفدة، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي، صــحَّحه وشــرحه محمود محمَّد شــاكر، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة، 1941 م.
30. أولو العزم من الرسل نوح عليه السلام، عبد الله محمد المعتاز، دار السلام، الرياض، السعودية.
31. أولو العزم من الرسل، محمد عبد الله السمان، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، طبعة 1401هـ- 1981م.
32. أولو العزم، طه وادي، دار النشر للجامعات، مصر، الطبعة الثانية، 1418هـ-1998م.
33. الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، الطبعة الرابعة، 1435هـ-2014م.
34. البحر المحيط، محمد يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي البحر المحيط في التفسير، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1420 هـ.

35. البخاري: صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة، 1422هـ- 2002م.
36. البداية والنهاية، ابن كثير، دار الريان للتراث، مصر، ط1، 1408هـ- 1990م، بعناية عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 1419هـ- 1998م.
37. تاج العروس في جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
38. تاريخ الرسل والملوك المعروف تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، دار سويدان، بيروت، لبنان، 1384هـ- 1964م.
39. تأصيل التاريخ في معرفة أصول بني إسرائيل، محمد رسمي الدكر، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2019م.
40. التحرير والتنوير، تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، 1983م.
41. تحقيق العبودية لمعرفة الأسماء والصفات، فوز بنت عبد اللطيف الكردي، دار طيبة، السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، 1421هـ.
42. التسهيل لتأويل التنزيل، تفسير الفرقان، مصطفى العدوي، أبو عبد الله مصطفى العدوي، مكتبة مكة، طنطا، مصر، الطبعة الأولى، 1428هـ- 2007م.
43. التصوير القرآني وسياقاته الدلالية، عقيد خالد الغراوي، عمر رغد البرزنجي، دار العصماء، دمشق، ط1، 1438هـ- 2008م.
44. تفسير ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، حققه يوسف علي بديوي، حسن سويدان، دار ابن كثير، 1434هـ- 2013م، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1434هـ- 2013م.
45. تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود

محمد العمادي الحنفي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة الرياض، مطبعة السعادة، القاهرة.

46. التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، 1991م.

47. تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل)، البغوي، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثالثة،1416هـ.

48. تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، ناصر الدين البيضاوي، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1402هـ- 1982م.

49. التفسير التوحيدي، حسن الترابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2011م.

50. تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل)، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت،

51. تفسير الرازي، التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1417هـ- 1997م.

52. تفسير السعدي، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، صححه وحققه محمد زهدي النجار، الدمام: دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.

53. تفسير القرآن، د عبد الله شحاته، دار غريب، مصر، طبعة 2000م.

54. تفسير القرطبي، أبو عبد الله القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965م.

55. تفسير الماوردي، النكت والعيون، أبو الحسن علي بن حبيب الماوردي، وزارة الشؤون الإسلامية والتراث، الكويت.

56. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، القاهرة، 1975م.

57. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1991م.

58. التفسير الموضوعي مجموعة باحثين، إشراف د. مصطفى مسلم، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، الإمارات، طبعة 1431هـ- 2010م.

59. تفسير النابلسي، محمد راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2017م- 1438هـ.

60. تفسير النسفي المسمى (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، الإمام النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت.

61. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م.

62. تفسير سورة هود، د أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1439هـ- 2018م.

63. تفسير سورة يونس، د أحمد نوفل، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1440هـ، 2019م.

64. التفكير الديني في العالم قبل الإسلام، د أورانج كاي، ترجمة عبد الرؤوف شلبي، دار الثقافة، الدوحة، قطر.

65. التفكير فريضة إسلامية، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، صيدا، الطبعة الأولى، 2008م.

66. التقوى الغاية المنشودة، أحمد فريد، دار الهيعي، الطبعة الأولى، 1414هـ- 1993م.

67. جامع الأصول لابن الأثير (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سنة 606هـ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني/سورية، عام 1392هـ.

68. جامع الرسائل، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار المدني للطباعة والنشر، جدة، السعودية، ط2، 1405هـ، 1984م.

69. جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبليِّ، دار الفكر، بيروت.

70. الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّـامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف بالرِّياض، 1403هـ/1983م.

71. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط2، 1407هـ، 1987م.

72. الجهاد والقتال في السِّـياسـة الشَّـرعية لمحمد خير هيكل، الطَّبعة الأولى، 1414هـ/ 1993م، دار البيارق – عمَّان – بيروت.

73. الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم، مطابع المجد.

74. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن بن ناصر وعبد العزيز بن إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، دار العاصمة للنشر، الرياض، السعودية، ط2، 1999.

75. جوامع السِّـير لابن حزمٍ عليِّ بن أحمد بن سـعيد، المتوفَّى 456هــــ، تحقيق الدُّكتور إحسـان عبَّاس، والدُّكتور ناصـر الدِّين الأسـد، طبع دار إحياء السُّـنَّة – باكسـتان، 1368هـ.

76. جيل النَّصـر المنشـود، يوسـف القرضـاوي، مكتبة وهبة. القاهرة – مصـر، الطَّبعة السَّادسة، 1405هـ/1985م.

77. حاشية السباعي على شرح الخريدة البهية في العقائد السنية، أبو السعود السباعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م، ١٤٢٧هـ.

78. حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، أحمد الصّاوي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

79. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، الماوردي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ، 1999م.

80. حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الهرري، دار المنهاج، دار طوق النجاة، ط5، 1434هـ-2013م.

81. حديث القرآن عن إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، د. سليمان إبراهيم الحصين، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، 2016م.

82. الحريات من القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1433هـ-2012م.

83. الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، توفيق يوسف الواعي، دار الوفاء، المنصورة، مصر، 1408هـ-1988م.

84. الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، حسين مؤنس، طبعة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، عالم المعرفة، 1 يناير 1970م.

85. الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار ابن القيم للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1407هـ، 1987م.

86. حقبة من التاريخ، عثمان الخميس، دار الإيمان، 1999م، ص 200.

87. حقوق الإنسان في ضوء الكتاب والسنة، يسرى السيد محمد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1427هـ-2006م.

88. حقيقة المسيح والتثليث، منصور تميم نتشة، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، قصص أولي العزم من الرسل، ليلى بلخير، دار طيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2014م.

89. الحكمة من إرسال الرّسل، عبد الرازق عفيفي، الرياض، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/ 1999م.

90. الحكمة من إرسال الرّسل، عبد الرازق عفيفي، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1420،2هـ، 1999م.

91. حماية الرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

92. الحوار القرآني في قصة موسى، تيسير محجوب الفتياني، الأردن، مركز الكتاب الأكاديمي، 2015م.

93. الحوار في قصة الخليل عليه السلام في القرآن دروس وعبر، محمود سعد عبد الحميد شمس، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، 2008م.

94. الحوار والاستدلال في القرآن الكريم، خالد سليمان الياسين، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، اسطنبول، تركيا، ط1، 2017م.

95. الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، المصطفى السماحي، عالم الكتب الحديث، إربد، 1441هـ/2019م.

96. الحوار وبناء المشترك الإنساني في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية، المصطفى السماحي، مركز ابن غازي للأبحاث والدراسات الاستراتيجية، إربد، الأردن، 2020م.

97. الحياة الزوجية في القرآن الكريم، عبد الفتاح أحمد الخطيب، دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1425هـ، 2004م.

98. حياة محمد (ﷺ)، إميل درمنغم، تحقيق عادل زعيتر، القاهرة: دار العالم العربي، ط3، 2016م.

99. خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، إبراهيم زيد الكيلاني، الطبعة الأولى، 2004م.

100. خصائص الأمة الإسلامية الحضارية، د. إبراهيم زيد الكيلاني، الأردن: منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، ط1، 2004م.

101. خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، 1412 هـ، 1991م.

102. خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري، دمشق، ط3، 1403هـ، 1983م.

103. الخلاص المسيحي ونظرة الإسلام إليه، أحمد علي عجيبة، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2006م.

104. خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

105. الخلافة في الأرض، أحمد حسن فرحات، دار عمّار، ط1، 1423هـ، 2003م.

106. الخلافة والخلفاء الراشدون بين الشورى والديمقراطية، المستشار سالم البهنساوي، مكتبة المنار الإسلامية، ط2، 1418هـ-1997م.

107. خلق آدم ونظرية التطور، محمد علي البار، سلالة من طين، مقال نشر على شبكة معلومات بصيغة PDF.

108. خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط4، 1403هـ-1982م.

109. خليفة الله في الأرض، الإنسان من الخلق إلى البعث، عبد الحافظ سلامة حافظ، مركز الكتاب للنشر، ط1، 2014م.

110. الخليل إبراهيم عليه السلام في الكتاب والسنة، عبد الله علي محمد أبو سيف، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، فرع مكة المكرمة، السعودية، 1397هـ، 1977م.

111. خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، ط1, ١٩٩٠م، ١٤١٠هـ.
112. الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، السعودية، ط1، 1429هـ.
113. الدّرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد يوسف (السمين الحلبي)، تحقيق: د. أحمد الخراط، دمشق: دار القلم، ط1، 1406هـ، 1986م.
114. دراسات تاريخية من القرآن الكريم، محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ/ 1988م.
115. دراسات في الأديان، سعود بن عبد العزيز الخلف، المدينة المنورة: مكتبة جامع العلوم والحكم، 1414هـ.
116. دراسات في التفسير الموضوعي للقران الكريم، زاهر بن عوض الألمعي، السعودية، ط2، 1422هـ، 2001م.
117. دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، أحمد جمال العمري، مكتبة الخانجي، ط1، 1986م.
118. دراسات في تاريخ العرب القديم، محمد بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط2، 1998م.
119. دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، محمد علي البار، دمشق: دار القلم، ط2، 1432هـ، 2011م.
120. درب إبراهيم عليه السلام، سعيد الشبلي، ام كي للنشر والتوزيع، ط1، 2019م.
121. درة التنزيل وغرة التأويل، أبو عبد الله محمد الأصبهاني الخطيب الإسكافي (ت: 420هـ)، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية/ جامعة أم القرى، ط1، 1422هـ/ 2001م.

122. الدروس المستفادة من العقوبات الإلهية في القرآن الكريم قبل الرسالة المحمدية، عبد الهادي الشمراني، تحقيق: عبد الباسط إبراهيم بلبول، السعودية، جامعة أم القرى، 1421هـ/ 2000م.

123. دروس في الحوار وأدبه من قصة موسى، طاهر أحمد محمد الريامي، اليمن، جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 4، ع 14، حزيران/ يونيو 2017م.

124. دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد وموسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1, 1999م.

125. دعاء الأنبياء والرسل، موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر، ط1، 1998م.

126. دعاء موسى في القرآن الكريم: دراسة تحليلية موضوعية، سلمى داود إبراهيم ابن داود، مجلة تبيان للدراسات القرآنية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، تموز/ يوليو2016م، ص٣٢٧.

127. دعوة الرسل إلى الله، محمد أحمد العدوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997م.

128. دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، سليمان الرومي، الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1428هـ، 2007م.

129. الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم، محمد بن سيدي بن الحبيب، دار الوفاء للطباعة والنشر، جدة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1406هـ، 1985م.

130. دقائق التفسير الجامع، ابن تيمية، جمع وتقديم وتحقيق: محمد السيد الجليند، القاهرة: سلسلة التراث الفلسفي، دار الأنصار، ط1، 1398هـ، 1978م.

131. دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه، عيسى بن عبد الله السّعدي، السعودية: كليّة التربية بالطائف، قسم الدراسات الإسلاميّة.

132. الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبد الكريم

عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2000م.
133. دلائل الإعجاز العلمي، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، 2006.
134. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، الحافظ أبو بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1420هـ.
135. دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق، د. عبد المعطي قلعجي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط، 1985م.
136. دليل البلاغة القرآنية، محمد سعيد الدبل، مكتبة الملك فهد الوطنية، السعودية، ط2، 2010 م.
137. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت: 1057هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط4، 2004م.
138. الدور التربوي للمرأة في قصة موسى عليه السلام وتطبيقاته في الأسرة، جوهرة عبد العزيز السيف، رسالة ماجستير، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2013م.
139. الديانات الوضعية المنقرضة، محمد العريبي، دار الفكر اللبناني، بيروت, 1995م.
140. ديوان أبو العتاهية، أبو العتاهية، دار بيروت، 1406هـ-1986م.
141. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ت: 1427هـ)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007م.
142. الرد على الجهمية والزنادقة، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط 1.
143. الرد على المنطقين (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)، ابن تيمية، تحقيق: عبد الصمد شرف الدين الكتبي، بيروت، مؤسسة الريان، 2005م.

144. الرزق في القرآن الكريم، د. سليمان الصادق البيرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط1، ١٤٢٦ هـ، ٢٠٠٥م.
145. رسالات الأنبياء "دين واحد وشرائع عدة"، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2015م.
146. رسالات الأنبياء، عبد الرحمن حللي، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.
147. رسالة الأنبياء من شعيب إلى عيسى، عمر أحمد عمر، القاهرة، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997م.
148. الرسـالة، الشـافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، تحقيق أحمد شـاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط1، 1358هـ-1940م.
149. الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، مصر: مكتبه الحلبي، الطبعة الأولى، 1358هـ،1940م.
150. الرسائل الشمولية، عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة ودار عيون المعرفة، ط1، 2000م.
151. الرسـائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسـن آل الشـيخ، تصـحيح عبد الرحمن الرويشد، 1398هـ، دار العلوم، القاهرة.
152. الرّسل والرّسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، لبنان، دار النفائس، الكويت، ط4، 1410هـ، 1989م.
153. ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2001م.
154. الروايات الواردة في نسبة العجمة لموسى عليه السلام؛ دراسة حديثية، أحمد عبد الله أحمد وطاهر لون نيجيري، فلسطين، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، جامعة غزة، مج 27، نوفمبر 2019م.

155. روح البيان في تفسير القرآن، إسماعيل حقي بن مصطفى الخلوتي البروسوري، دار الفكر، بيروت، 2013م.

156. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، باكستان: مكتبة إمدادية ملتان.

157. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ.

158. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي (ت: 1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ.

159. الروح، شمس الدين ابن القيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1982م.

160. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ومعه السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2009م.

161. رؤية إسلامية للنهضة بواقع الأمة، محمد مسعد ياقوت، دار السلام للطباعة، القاهرة، ط1، 2013م.

162. رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين، الإمام النووي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1422هـ، 2001م.

163. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1422هـ.

164. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر، المعرف بـ(ابن قيم الجوزية) تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية، ط27، 1414هـ، 1994م.

165. زهرة التفاسير، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 2008م.

166. زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (ت: 1394هـ)، القاهرة، دار الفكر العربي، 1987م.

167. زوجات الأنبياء، د. مصطفى مراد، دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت.

168. سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصَّالحي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ، 1394هـ 1974م.

169. السرُّ القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، لبنان: دار ابن حزم، ط1، 1430هـ، 2010م.

170. السَّـرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة، بريكك محمَّد بريكك، دار ابن الجوزي، الطَّبعة الأولى، 1417هـ/1996م.

171. السَّـفارات النَّبويَّة، د. محمد العقيلي، دار إحياء العلوم - بيروت، الطَّبعة الأولى، 1406هـ/1986م.

172. سفر التكوين في ميزان القرآن من آدم إلى إبراهيم، صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط1، 1419هـ/1998م.

173. سفراء الرَّسول(ﷺ)، محمود شيت خطاب، مؤسسة الرَّيان، دار الأندلس الخضراء، الطَّبعة الأولى، 1417هـ/1996م.

174. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، 1415هـ/ 1995م.

175. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، 1415هـ، 1995م.

176. سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، عمان: المكتبة الإسلامية،

1403هـ، 1983م، الكويت: الدار السلفية.
177. السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1405هـ.
178. سمات القيادة في القرآن الكريم من خلال قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، إبراهيم حسن إسماعيل رامي، مجلة القلم، جامعة القلم للعلوم الإنسانية والتطبيقية، اليمن، المجلد 5، العدد (10)، 31 آب 2018م.
179. سنة الله في عقاب الأمم، عبد السلام نصر الله، دار المقاصد، استنبول، ط1، 2015م.
180. سنن ابن ماجه، الحافظ أبو عبد الله بن زيد القزويني، تحقيق: صدقي جميل العطار، دار الفكر، 1424هـ-2003م.
181. سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السِّجستانِيّ، تحقيق وتعليق عزّت الدَّعاس، دمسق،1391هـ.
182. سنن التِّرمذي للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيّ، دار الفكر، 1398هـ.
183. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، بعناية أحمد محمد شاكر، مصر: شركة مصطفى الحلبي، ط2، 1398هـ، 1978م.
184. السنن الجماعية، محمد أمحزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، 2011م.
185. سنن الدارامي، عبد الله بن محمد بن الفضل السمرقندي، خرج آياته وأحاديثه مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ-1996م.
186. سـنن الدارقطني، علي بن عمر الدار قطني، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي، عالم الكتب، لبنان.
187. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م.

188. السنن الكبرى، أحمد بن شعيب النسائي (303هـ)، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1421هـ/ 2001م.

189. السنن الكبرى، البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1424هـ، 2003م.

190. سنن الله في الحضارة الإنسانية، أحمد سريرات، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 2013م.

191. سنن النَّسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ، مطبعة مصطفى الحلبي – القاهرة، 1964م.

192. سورة القصص؛ دراسة تحليلية، محمد مطني أحمد خلف الدليمي، تحقيق: محمد صالح عطية، العراق، ديوان الوقف السُني، 1433هـ/2012م.

193. سورة الكهف: منهجيات في الإصلاح والتغيير؛ دراسة تأصيلية تطبيقية، صلاح سلطان، الولايات المتحدة الأمريكية، سلطان للنشر، ط1، 2008م.

194. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية الدمشقي، تحقيق: علي العمران، جدة، مجمع الفقه الإسلامي، ط1، 1429هـ.

195. سير أعلام النُّبلاء، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى، 1403هـ.

196. السِّير والمغازي لابن إسحاق، تحقيق سهيل زكَّار، دار الفكر، طبعة أولى 1978م.

197. ســـيرة آدم عليه الســـلام، صـــلاح الدين الخالدي، دار الفاروق، عمان، ط1، 1427هـ-2016م.

198. سيرة آدم، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الفاروق، ط1، 1427هـ-2016م.

199. السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون، علي بن برهان الدِّين الحلبي، دار المعرفة.

200. سيرة الرَّسول(ﷺ)، صورٌ مقتبسةٌ من القرآن الكريم، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد ال ثاني – حاكم قطر، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة، الدوحة، ط3، 1400هـ.
201. السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، د. أكرم العمري، مكتبة المعارف والحِكَم، المدينة المنوَّرة، الطَّبعة الأولى 1412هـ/1992م.
202. السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ، وبناء دولةٍ، لصالح أحمد الشَّامي، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، 1412هـ/1992م.
203. السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس، دار الفرقان، الطَّبعة الأولى 1418هـ/1997م، عمَّان.
204. السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ، د. مصطفى السِّباعي، المكتب الإسلامي – بيروت، لبنان، الطبعة التَّاسعة 1406هـ/1986م.
205. السيرة النبويّة عرض وقائع وتحليل أحداث، علي محمّد الصّلابيّ، دار المعرفة، بيروت، ط 12، 1433هـ/2012م.
206. السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة، دار القلم – دمشق، الطَّبعة الثَّالثة، 1417هـ/1996م.
207. السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، د. مهدي رزق الله أحمد، الطَّبعة الأولى 1412هـ/1992م، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة – الرِّياض.
208. السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، القاهرة: دار التراث العربي، 1979م.
209. السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويِّ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة – القاهرة.
210. السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستي، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية – بيروت، الطَّبعة الأولى 1407هـ/1987م.

211. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث؛ دروس وعِبر، دمشق، دار ابن كثير، ط9، 2019م.
212. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط3، 1990م، (٢/٦٥٠،٨٠٤،٨٠٦).
213. السِّــيرة النَّبويَّة، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصــطفى عبد الواحد، الطَّبعة الثانية، 1398هـ، دار الفكر بيروت – لبنان.
214. السِّيرة النَّبويَّة، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام، دار الفكر، بدون تاريخ.
215. السِّيرة النَّبويَّة، للذَّهبي، تحقيق حسام الدِّين القدسي، مكتبة هلال – بيروت.
216. السِّيرة النَّبويَّة، لمحمد الصَّوياني، مؤسَّسة الرَّيان، الطَّبعة الأولى، 1420هـ 1999م.
217. شأن الدعاء، أبو سليمان الخطابي، دار الثقافة العربية، ط1، 1412هـ.
218. الشـخصـية النسـائية في القصـة القرآنية، هدى عبد اللطيف عريان، دار غار حراء، ط1، 1426هـ-2005م.
219. الشخصيّة اليهوديّة من خلال القرآن؛ تاريخ وسمات ومصير، صلاح الخالديّ، ط 1، دار القلم، دمشق، 1986م.
220. شرح أسماء الله الحسنى، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد 112، السنة 33، 1421هـ.
221. شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط1، 1965م.
222. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1990م.
223. شرح العقيدة الطحاوية، علي بن علي بن أبي العز الحنفي، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، بيروت: المكتب الإسلامي، ط4، 1391هـ.

224. شرح صحيح مسلم (إكمال المعلم بفوائد مسلم)، القاضي عياض، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط1، 1419هـ، 1998م.

225. شرح صحيح مسلم، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ.

226. شرح كتاب التوحيد، عبد العزيز ابن باز، تحقيق: محمد العلاوي، دار الضياء، 2001م.

227. شرح مشكل الآثار، أبو جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1994م.

228. شرعة الله للأنبياء، محمد الزحيلي، لبنان، دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1439هـ، 2018م.

229. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم الجوزية، بيروت، دار المعرفة، 1398هـ/ 1978م.

230. الشوكانيّ، فتح القدير، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1414هـ.

231. صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من خلال القرآن والسنة، عمر عبد الوهاب محمود، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العراق، المجلد (11)، العدد (19/1)، 2019م.

232. صحيح ابن حبّان، ابن حبّان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1993م.

233. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان التميمي الدارمي البُستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ، 1993م.

234. صحيح الأنباء المسند من أحاديث الأنبياء، أبو أسامة سليم عبد الهلالي السلفي الأثري، بيروت: دار ابن حزم، ط1، 1429هـ، 2008م.

235. صحيح البخاري، البخاري، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط 4، 2002م.

236. صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، الرياض: بيت الأفكار الدولية.

237. صحيح الترغيب والترهيب، الألباني، مكتبة المعارف للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1421 هـ، 2000م.
238. صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1408هـ، 1988م.
239. صحيح سنن أبي داود، الألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1419هـ، 1998م.
240. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، 1403هـ، 1983م.
241. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.
242. صفات الأنبياء من قصص القرآن "إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولوط"، عقيل حسين عقيل، سما للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2011م.
243. صفوة البيان لمعاني القرآن، محمد حسنين مخلوف، طبعة لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، 1981م.
244. الصلاة وحكم تاركها، ابن القيم الجوزية، تحقيق: عدنان بن صفاخان البخاري، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، السعودية، ط1، د.ت.
245. الصلاة وحكم تاركها، أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، 2004م.
246. صناعة الحوار "مقاربة تداولية جمالية لحوارات سيدنا إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم"، حمد عبد الله السيف، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 2015م.

247. الصواعق المرسلة في الردِّ على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة للطباعة، الرياض، السعودية، ط1، 1408هـ.

248. صيحة تحذير من دعاة التنصير، محمد الغزالي، دمشق: دار القلم، ط1، 1421هـ، 2000م.

249. الطبقات، محمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي للطباعة، القاهرة، ط1، 1421هـ، 2001م.

250. طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن قيم الجوزية، الدار السلفية، القاهرة، مصر، ط2، 1394هـ.

251. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، ابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، من الطبعة المصرية القديمة، 2006م.

252. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، 1379هـ.

253. فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق حسن البخاري القِنَّوجي، تقديم ومراجعة: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، بيروت: المكتبة العصريَّة للطباعة والنشر، 1412 هـ، 1992م.

254. فقه دعوة الأنبياء، أحمد الأميري، دمشق: دار القلم، ط1، 1420هـ، 2000م.

255. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي، تونس: الدار التونسية للنشر، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986م.

256. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، د. حسن ظاظا، دمشق: دار القلم، بيروت: دار العلوم والثقافة، ط2، 1407هـ.

257. في رحاب قصص الأنبياء والرسل، عبود الراضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1435هـ، 2014م.

258. في ظلال القرآن، سيد قطب، القاهرة: دار الشروق، ط 38، 1430هـ، 2009م.

259. قاموس الكتاب المقدس، د. بطرس عبد الملك ورفيقاه، القاهرة: دار الثقافة، ط10، 1995م.
260. قراءة تأصيلية في سير وقصص ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، عثمان محمد الخميس، الكويت: دار إيلاف الدولية، ط1، 1431هـ، 2010م.
261. القرآن الكريم

262. قصة الحضارة، ول ديورانت، تقديم محيي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لبنان، بيروت: دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، د.ت.
263. قصص الأنبياء، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، دمشق: دار الفيحاء، ط1، 1421هـ، 2001م.
264. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، بيروت: دار الجيل للطباعة والنشر، ط1، 2009م.
265. قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة، د. عمر سليمان الأشقر، الأردن، عمان: دار النفائس، ط1، 1432هـ.
266. قصص القرآن الكريم، فضل حسن عباس.

267. القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، د. صلاح الدين الخالدي، دمشق: دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1419هـ، 1998م.
268. القصص القرآني، د صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1419هـ-1998م
269. القصص القرآني، عماد زهير حافظ، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1410هـ-1990م.
270. قصص المرسلين في كلام رب العالمين، أبو بكر الجزائري، مكتبة الملك فهد، المدينة المنورة، 1420هـ.

271. قصص أولي العزم، ليلى بلخير، دمشق: دار طيبة، ط1، 1432هـ.
272. قضية الطوفان بين الأسطورة والدين، هشام محمد ميازكي، شركة دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1436هـ- 2016م.
273. القمة في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، منصور بن راشد التميمي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1435هـ- 2014م.
274. قوانين النبوة، موفق الجوجو، دمشق: دار المكتبتي، ط1، 1423هـ، 2002.
275. القول المفيد على كتاب التوحيد شرح محمد بن صالح العثيمين، جمع وتخريج سليمان بن عبد الله بن حمود أبا الخيل ، خالد بن علي بن محمد المشيقح، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، 1418هـ- 1997م.
276. الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن محمد بن الأثير، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1407هـ، 1987م.
277. كتاب النبوات، للإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية، دار أصول السلف، الرياض، الطبعة الأولى، 1420هـ- 2000م.
278. الكشاف للزمخشري، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار أفنان، طهران
279. كيف نكتب التاريخ، محمد قطب، دار الوطن، السعودية، الطبعة الأولى، 1412هـ.
280. لسان العرب، محمد مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت.
281. الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، د محمد علي البار، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثانية، 1432هـ- 2011م.
282. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دمشق: دار القلم، ط1، 1410هـ، 1989م.
283. مجادلة أهل الكتاب، د. نور الدين عادل، الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 1428هـ،

2007م.
284. مجالس النور، محمد عياش الكبيسي، الدوحة، جامعة قطر، ط1، 2019م، (١٨٢٣/٤).
285. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ.
286. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ابن تيمية، الدمشقي، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425هـ/ 2004م.
287. محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، محمد جمال الدين القاسمي (ت: 1332هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، بيروت، دار الكتب العلمية، 2016م.
288. محاسن التأويل للقاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1398هـ- 1978م.
289. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، المملكة العربية السعودية، الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط4، 1404هـ.
290. المحاور الخمسة للقرآن، محمد العزالي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.
291. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية)، عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001م.
292. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حاكم قطر، الدوحة، الطبعة الأولى، رمضان، 1404هـ- 1984م.
293. محمد الرسالة والرسول، د. نظمي لوقا، ط2، مصر: وزارة التربية والتعليم، 1959م.
294. محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، بيروت: دار المنار، 1409هـ. 1989 م.

295. محمد في الكتاب المقدس، البروفيسور عبد الأحد داود، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، ط4، 1421هـ، 2000م.
296. محمد في الكتاب المقدس، عبد الأحد داود، ترجمة: فاروق الزين، الدمام، دار الإصباح للنشر، 2012م، ص٥٠.
297. مختار القاموس، الظاهر أحمد الزاوي.
298. مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، بيروت، دار القرآن الكريم، 2006م.
299. مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى، د عقيل حسين عقيل، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، 1431هـ- 2010م.
300. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفضي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1412هـ.
301. مدارج السالكين، ابن القيم الجوزية (751هـ)، تحقيق: عماد عامر، القاهرة، دار الحديث، 1426هـ/ 2005م.
302. المدخل إلى العهد الجديد، القس فهيم عزيز، القاهرة: دار الثقافة.
303. المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، محمد البار، دمشق: دار القلم، ط2، 1432هـ، 2011م.
304. المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، القاهرة: دار السلام، ط1، 1421هـ، 2001م.
305. المرتضى سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب، أبو الحسن علي الحسني الندوي، الكويت، دار القلم، ط1، 1989م، ص٥٥.
306. مريم والمسيح، محمد متولي الشعراوي، القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ط2، 1421هـ، 2000م.
307. المستدرك على الصحيحين، الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1422هـ، 2002م.

308. المستدرك على الصحيحين، الإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية- 1390هـ- 1970م.

309. مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

310. مسلم: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1972م.

311. المسلمون والعصر، كتاب العصر، العدد (14).

312. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 2008م.

313. المسند، أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

314. المسيح والتثليث، محمد وصفي، مصر: المطبعة الرحمانية، ط1، 1937م.

315. المسيح والمسيحية والإسلام، عبد الغني عبود، ط1، دار الفكر العربي، 1984م.

316. المسيحية الحق كما جاء بها المسيح، علاء أبو بكر، القاهرة: مكتبة وهبة، ط1، 1418هـ، 1997م.

317. المسيحية المؤمنة بنبوة عيسى عليه السلام، أميمة بنت أحمد جلاهمة، السعودية: جامعة أم القرى، ط1، 1430هـ، 2009م.

318. المسيحية في الأحاديث النبوية، عبد الرزاق الدغري، تونس: دار مسكيلياني.

319. مشكلة الشر ووجود الله؛ الرد على أبرز شبهات الملاحدة، سامي عامري، لندن، دار تكوين للدراسات والأبحاث، ط2، 2016م.

320. مصادر النصرانية، د. عبد الرزاق بن عبد المجيد، الرياض: دار التوحيد، 1428هـ، 2007م.

321. مصنف بن أبي شيبة، عبد الله بم محمد أبي شيبة، تحقيق: أسامة محمد أبو محمد، مكتبة الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 2008م، (٥/٣١٢-٣١٣)، رقم ٢٦٤٢١.

322. المضامين التربوية في قصة موسى والعبد الصالح كما وردت في القرآن الكريم، عويض بن حمود العطوي، السودان، مجلة الدراسات النفسية، ع11، كانون الأول/ ديسمبر 2012.
323. مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد علي عبد المعطي، مكتبة عباد الرحمن، ط1، 1431هـ، 2010م، القاهرة.
324. مع الأنبياء في الدعوة إلى الله، محمد أبو فارس، عمان، الأردن، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، 1436هـ- 2015م.
325. مع الأنبياء وجهادهم، محمود عبد الحميد، دمشق: دار الفكر، ط1، 2003م.
326. معالم التنزيل (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، 1989م
327. معالم التوحيد في قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم، حمود بن غزاي بن غازي الحربي، السعودية، مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، مج12، ع 5، أيار/مايو 2019.
328. معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1408هـ/ 1988م.
329. المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، مصر، القاهرة: دار الفكر العربي.
330. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الكتب المصريّة، د. ط، 1364 هـ/ 1945م.
331. المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط5، 2011.
332. معجم لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد ابن منظور (ت: 711هـ)، بيروت، دار صادر، ط11، 2021م.
333. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت: 395هـ)، دار الفكر، 1979م.

334. مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (606هـ)، تحقيق: سيد عمران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ، ودار الكتب العلمية، 2020م.
335. مفردات ألفاظ القرآن، الرَّاغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط4، 1430 هـ/ 2009 م.
336. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: 502هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، دار القلم، ط 1، 1412 هـ.
337. مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، 2004م.

كتب صدرت للمؤلف:

1.السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2.سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3.سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4.سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5.سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6.سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

7.الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8.فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

9.تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10.تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11.عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12.الوسطية في القران الكريم.

13.الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14.معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

15.عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16.خلافة عبد الله بن الزبير.

17.عصر الدولة الزنكية.

18.عماد الدين زنكي.

19.نور الدين زنكي.

20.دولة السلاجقة.

21.الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22.الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23.الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القران في العقائد.

28.فتنة مقتل عثمان.

29.السلطان عبد الحميد الثاني.

30.دولة المرابطين.

31.دولة الموحدين.

32.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33.الدولة الفاطمية.

34.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39.المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41.الشورى في الإسلام.

42.الإيمان بالله جل جلاله.

43.الإيمان باليوم الآخر.

44.الإيمان بالقدر.

45.الإيمان بالرسل والرسالات.

46.الإيمان بالملائكة.

47.الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48.السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59. الأمير عبد القادر الجزائري.

60. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63.أعلام التصوف السُني "ثمانية أجزاء".

64.المشروع الوطني للسلام والمصالحة

65.الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

66.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67.المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام –الحقيقة الكاملة–.

68.قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام

69.نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

70.إبراهيمُ خليل الله عليه السّلام "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

71.- موسى عليه السلام والخضر .

72.- موسى عليه السلام في سورة طه .

73.- موسى عليه السلام في سورة القصص .

74.- موسى عليه السلام في سورة الشعراء .

75.- مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

المؤلف في سطور



د. علي محمد محمد الصَّلَّابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث .

- سير الخلفاء الراشدين .
- الدولة الحديثة المسلمة .
- الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط .
- فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.
- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية .
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام الحقيقة الكاملة.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام
- نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيمُ خليل الله عليه السّلام "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".
- – موسى عليه السلام.

فهرس المحتويات